قصص الأنبياء

وآل البيت رضي الله عنهم

تأليف فضيلة الشيخ

د/ عبد الحليم محمود

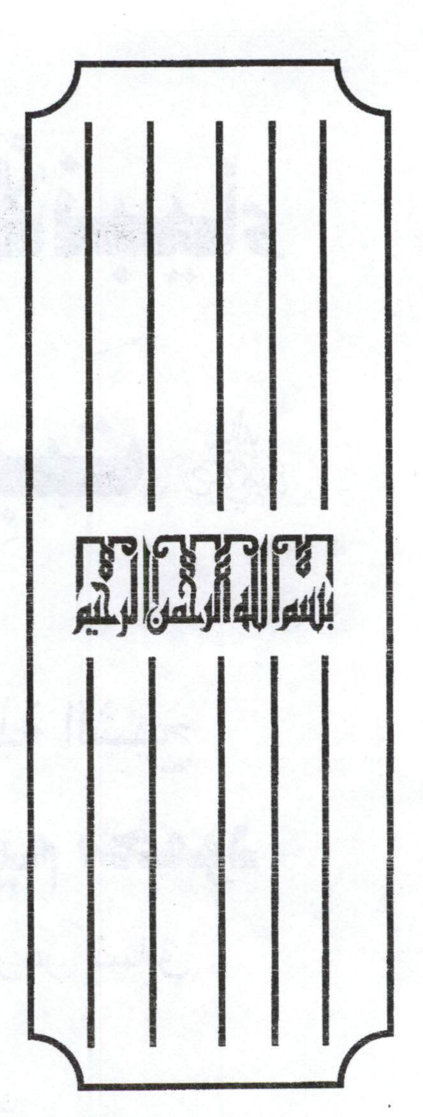
شيخ الجامع الأزهر السابق

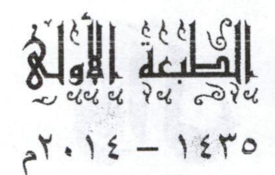
إعداد

مجدى عبد المعطى

دار الروضة

طبع - نشر - توزيع





١٤٣٥ - ٢٠١٤م

دار الروضة

للطباعة والنشر

٢ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر

ت: ٢٥٠٦٦٨٨٤ - ٠١٢٢٣٦٠٨٩٩٥

darelrwdamms@yahoo.com

رقم الإيداع: ٢٨٤٦ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى/ ٩٧٨-٩٧٧-٤٥٨-٠٦٦-٦

المقدمـــــة

عبد الحليم محمود

عبد الحليم محمود (١٩١٠ - ١٩٧٨) عالم أزهري ووزير مصري سابق وشيخ الأزهر في الفترة بين عامي ١٩٧٣ و١٩٧٨.

سيرته الذاتية

ولد في ٢ جمادى الأولى ١٣٢٨هـ الموافق ١٢ مايو ١٩١٠م، بعزبة أبو أحمد قرية السلام مركز بلبيس بمحافظة الشرقية. نشأ في أسرة كريمة مشهورة بالصلاح والتقوى، وكان أبوه ممن تعلم بالأزهر لكنه لم يكمل دراسته فيه. حفظ القرآن الكريم ثم التحق بالأزهر سنة ١٩٢٣م حصل على العالمية سنة ١٣٥١ هـ -١٩٣٢م ثم سافر إلى فرنسا على نفقته الخاصة لاستكمال تعليمه العالي حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عن الحارث المحاسبي سنة ١٣٥٩هـ -١٩٤٠م. بعد عودته عمل مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية بكليات الأزهر ثم عميدا لكلية أصول الدين سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م وعضوا ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فنهض به وأعاد تنظيمه عين وكيلا للأزهر سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م فوزيراً للأوقاف وشئون الأزهر.

شياخته للأزهر

تولى الشيخ عبد الحليم محمود مشيخة الأزهر في ظروف بالغة الحرج، وذلك بعد مرور أكثر من ١٠ سنوات على صدور قانون الأزهر سنة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م الذي توسع في التعليم المدني ومعاهده العليا، وألغى جماعة كبار العلماء، وقلص سلطات شيخ الأزهر، وغلّ يده في إدارة شئونه، وأعطاها لوزير الأوقاف وشئون الأزهر، وهو الأمر الذي عجّل بصدام عنيف بين محمود شلتوت شيخ الأزهر الذي صدر القانون في عهده وبين تلميذه الدكتور محمد البهي الذي كان يتولى منصب وزارة الأوقاف، وفشلت محاولات الشيخ الجليل في استرداد سلطاته، وإصلاح الأوضاع المقلوبة.

لم يكن أكثر الناس تفاؤلا يتوقع للشيخ عبد الحليم محمود أن يحقق هذا النجاح الذي حققه في إدارة الأزهر، فيسترد للمشيخة مكانتها ومهابتها، ويتوسع في إنشاء المعاهد الأزهرية على نحو غير مسبوق، ويجعل للأزهر رأيا وبيانا في كل موقف وقضية، حيث أعانه على ذلك صفاء نفس ونفاذ روح، واستشعار المسئولية الملقاة على عاتقه، وثقة في الله عالية، جعلته يتخطى العقبات ويذلل الصعاب.

للشيخ أكثر من ٦٠ مؤلفا في التصوف والفلسفة، بعضها بالفرنسية، من أشهر كتبه: أوروبا والإسلام، والتوحيد الخالص أو الإسلام والعقل، وأسرار العبادات في الإسلام، والتفكير الفلسفي في الإسلام، والقرآن والنبي، والمدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلي.

إرهاصات الإصلاح

بدت بوادر الإصلاح واضحة في سلوك الشيخ عبد الحليم محمود بعد توليه أمانة مجمع البحوث الإسلامية الذي حل محل جماعة كبار العلماء، فبدأ بتكوين الجهاز الفني والإداري للمجمع من خيار رجال الأزهر، وتجهيزه بمكتبة علمية ضخمة استغل في تكوينها صداقاته وصلاته بكبار المؤلفين والباحثين وأصحاب المروءات. عمل الشيخ على توفير الكفايات العلمية التي تتلاءم ورسالة المجمع العالمية، وفي عهده تم عقد مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية، وتوالى انعقاده بانتظام، كما أقنع المسئولين بتخصيص قطعة أرض فسيحة بمدينة نصر لتضم المجمع وأجهزته العلمية والإدارية، ثم عني بمكتبة الأزهر الكبرى، ونجح في تخصيص قطعة أرض مجاورة للأزهر لتقام عليها.

أثناء توليه لوزارة الأوقاف عني بالمساجد عناية كبيرة، فأنشأ عددا منها، وضم عددا كبيرا من المساجد الأهلية، وجدد المساجد التاريخية الكبرى مثل جامع عمرو بن العاص أقدم المساجد في إفريقيا، وأوكل الخطبة فيه إلى الشيخ محمد الغزالي فدبت فيه الروح، وعادت إليه الحياة بعد أن اغتالته يد الإهمال، وتدفقت إليه الجماهير من كل صوب وحدب، وأنشأ بمساجد الوزارة فصولا للتقوية ينتفع بها طلاب الشهادتين الإعدادية

والثانوية جذبت آلافا من الطلاب إلى المساجد وربطتهم بشعائر دينهم الحنيف.

رأى أن للوزارة أوقافا ضخمة تدر ملايين الجنيهات أخذها الإصلاح الزراعي لإدارتها لحساب الوزارة، فلم تعد تدر إلا القليل، فاستردها من وزارة الإصلاح الزراعي، وأنشأ هيئة كبرى لإدارة هذه الأوقاف لتدر خيراتها من جديد، وعلم أن هناك أوقافا عدت عليها يد الغصب أو النسيان، فعمل على استرداد المغتصب، وإصلاح الخرب.

استعادة هيبة الأزهر وشيخه

صدر قرار تعيين الشيخ عبد الحليم محمود شيخا للأزهر في ٢٢ صفر ١٣٩٣هـ - ٢٧ مارس ١٩٧٣م، وكان هذا هو المكان الطبيعي الذي أعدته المقادير له، وما كاد الشيخ يمارس أعباء منصبه وينهض بدوره على خير وجه حتى بوغت بصدور قرار جديد من رئيس الجمهورية في ١٧ جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ - ٧ يوليو ١٩٧٤م يكاد يجرد شيخ الأزهر مما تبقى له من اختصاصات ويمنحها لوزير الأوقاف والأزهر، وما كان من الشيخ إلا أن قدم استقالته لرئيس الجمهورية على الفور، معتبرا أن هذا القرار يغض من قدر المنصب الجليل ويعوقه عن أداء رسالته الروحية في مصر والعالم العربي والإسلامي.

روجع الإمام في أمر استقالته، وتدخل الحكماء لإثنائه عن قراره، لكن الشيخ أصر على استقالته، وامتنع عن الذهاب إلى مكتبه، ورفض تناول راتبه، وطلب تسوية معاشه، وأحدثت هذه الاستقالة دويا هائلا في مصر وسائر أنحاء العالم الإسلامي، وتقدم أحد المحامين الغيورين برفع دعوى حسبة أمام محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة ضد رئيس الجمهورية ووزير الأوقاف، طالبا وقف تنفيذ قرار رئيس الجمهورية.

إزاء هذا الموقف الملتهب اضطر أنور السادات إلى معاودة النظر في قراره ودراسة المشكلة من جديد، وأصدر قرارا أعاد فيه الأمر إلى نصابه، جاء فيه: شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأي في كل ما يتصل بالشئون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام، وله الرياسة والتوجيه في كل ما يتصل بالدراسات الإسلامية والعربية في الأزهر. تضمن القرار أن يعامل شيخ الأزهر معاملة الوزير من حيث المرتب والمعاش، ويكون

ترتيبه في الأسبقية قبل الوزراء مباشرة، وانتهت الأزمة وعاد الشيخ إلى منصبه ليواصل جهاده. وجدير بالذكر أن قرارا جمهوريا صدر بعد وفاة الشيخ بمساواة منصب شيخ الأزهر بمنصب رئيس الوزراء.

مسئولية شيخ الأزهر

كان الشيخ عبد الحليم يدرك خطورة منصبه، وأنه مسئول عن القضايا التي تتعلق بالمسلمين، وأنه لا ينتظر من أحد توجيها إلى النظر في بعض القضايا وغض النظر عن بعضها، فكان للأزهر في عهده رأي ومقال في كل قضية وموضوع يتعلق بأمر المسلمين، فتصدى لقانون الأحوال الشخصية الذي حاولت الدكتورة عائشة راتب إصداره دون الرجوع إلى الأزهر، وحرصت على إقراره من مجلس الشعب على وجه السرعة، وكان هذا القانون قد تضمن قيودا على حقوق الزوج على خلاف ما قررته الشريعة الإسلامية.

ولما علم الإمام الأكبر بهذا القانون أصدر بيانا قويا حذر فيه من الخروج على تعاليم الإسلام، وأرسله إلى جميع المسئولين وأعضاء مجلس الشعب وإلى الصحف، ولم ينتظر صدور القانون بل وقف في وجهه قبل أن يرى النور، لكن بيان الشيخ تآمرت عليه قوى الظلام فصدرت التعليمات إلى الصحف بالامتناع عن نشره، واجتمعت الحكومة للنظر في بيان الشيخ عبد الحليم محمود، ولم تجد مفرا من الإعلان عن أنه ليس هناك تفكير على الإطلاق في تعديل قانون الأحوال الشخصية، وبذلك نجح الإمام في قتل القانون في مهده.

التصوف في حياته

يقول الإمام عبد الحليم عن نفسه بعد إعداده رسالة الدكتوراه: «بعد تردد بين هذا الموضوع أو ذاك، هداني الله - وله الحمد والمنة - إلى موضوع التصوف الإسلامي، فأعددت رسالةً عن (الحارث بن أسد المحاسبي) فوجدت في جوٍّ (الحارث بن أسد المحاسبي) الهدوءَ النفسي، والطمأنينة الروحية، هدوء اليقين، وطمأنينة الثقة، لقد ألقى بنفسه في معترك المشاكل، التي يثيرها المبتدعون والمنحرفون، وأخذ يصارع مناقشًا مجادلًا،

وهاديًا مرشدًا؛ وانتهيت من دراسة الدكتوراه، وأنا أشعر شعورًا واضحًا بمنهج المسلم في الحياة، وهو منهج الإتباع. لقد كفانا الله ورسوله كل ما أهمنا من أمر الدين، وبعد أن قرَّ هذا المنهج في شعوري، واستيقنته نفسي، أخذتُ أدعو إليه كاتبًا ومحاضرًا، ومدرسًا، ثم أخرجت فيه كتاب «التوحيد الخالص» وما فرحت بظهور كتاب من كتبي، مثل فرحي يوم ظهر هذا الكتاب؛ لأنه خلاصة تجربتي في الحياة الفكرية».

لم يكن تصوفه هروبًا من الحياة؛ بل كان علاجًا لمعضلاتها، لقد كان الشيخ عبد الحليم لا يفارق الناس إلا عند نومه، فهو يزور ويرحل، ويجتمع ويناقش، ويدفع إلى الخير، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. والفرق بينه وبين سواه من النظريين، أنه يصدر عن يقين، وينفعل عن عقيدة، وينصح عن إدراك، وقد فهم رسالة المسلم في الحياة، فهم أنه خليفة في الأرض.

لقد اهتدى الإمام بعد عناء طويل في رحلته الفكرية إلى أن القلب موضع إقناع المؤمن، فالمؤمن لا يتطلب تغلغل العقل كي يقتنع، ولكنه يلتمس ماء الهداية كي يرتوي!

قال عن التصوف:

* «إنه نظام الصفوة المختارة، إنه نظام هؤلاء الذين وهبهم الله حسًّا مرهفًا، وذكاءً حادًّا، وفطرة روحانية، وصفاء يكاد يقرب من صفاء الملائكة، وطبيعة تكاد تكون مخلوقة من نور»

* من هو الصوفي في رأي الإمام؟

قال الإمام: «الصوفي هو الذي التزم بتعاليم الإسلام سيرةً وسلوكًا، وقولًا وعملًا، وهو الذي يستحضر ذكر ربه في كل وقت؛ فإذا وصل المؤمن إلى إسلام حقيقي يجعله مستحضرًا ربه في كل وقت فلن يهتم بمعصيته، ولن يأمر بمنكر، ولن ينهى عن معروف».

وقال أيضًا:

«فالصوفي لا يكون صوفيًّا بالقراءة أو الدراسة والبحث، حتى ولو كانت هذه

القراءة والدراسة في الكتب الصوفيَّة نفسها، وفي المجال الصوفي خاصَّة، وقد يكون شخص من أعلم الناس بهذه الكتب، درسها دراسة باحث متأمل، وعرف قديمها وحديثها، وميز بين الزائف منها والصحيح، وصنفها زمنًا وميزها أمكنة، وهو مع ذلك لا سهم له، في قليل ولا في كثير في المجالات الصوفية».

وقال في موضع آخر:

«فالتصوف ليس ثمرة لثقافة كسبيَّة؛ إن الوسيلة إليه ليست هي الثقافة، ولكن الوسيلة إليه إنما هي العمل، إن الطريق إليه إنما هو السلوك، والمعرفة الناشئة عن العمل والسلوك هي إلهام، وهي كشف، وهي ملأ أعلى انعكس على البصيرة المجلوَّة فتذوقه الشخص حالًا، وأحس به ذوقًا، وأدركه إلهامًا وكشفًا».

* من كرامات الإمام:

يقول الشيخ - رضي الله عنه - عن نفسه أثناء ترجمته لسيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

«أنا في غير كبرياء ولا فخر، من الذين لا تلعب بهم الأوهام ولا التخيلات، ولم أكن في يوم من الأيام فريسة أباطيل وخرافات، وقد باعد الله تعالى - وله الفضل والمنة - بيني وبين التأثر بالإيحاء والوهم».

أما الكرامة الأولى فقد قال عنها الشيخ: «في فترة من الفترات ابتلاني الله بموضوع شقَّ على نفسي، وعلى نفس المحيطين بي، واستمر الابتلاء فترة كنا نلجأ فيها إلى الله، طالبين الفرج، وذات يوم أتى عندي بعض الصالحين، وكان على علم بهذا الابتلاء، وأعطاني ورقةً كُتِبَتْ فيها صيغةٌ من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اقرأها، واستغرقْ فيها وكرِّرْها منفردًا بالليل؛ لعل الله يجعلها سببًا في تفريج هذا البلاء؛ فاعتكفت في غرفة بعد صلاة العشاء، وأضأت نور الغرفة، وأمسكت الورقة بيدي وأخذت في تكرار الصيغة، واستغرقتُ فيها وإذ بي أرى فجأة أن الحروف التي كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ

نورًا، ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نورًا وسط هذا النور، ولم أصدق عيني، فوضعت الورقة أمامي، ووضعت يدي على عيني أدلكهما وأدعكهما، ثم فتحت عيني، فإذا بالحروف على ما هي عليه، تتلألأ نورًا، وتشع سناءً، فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت وأن هذا النور رمز لذلك، وفعلًا أزال الله الكرب، وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة». هذه هي الكرامة الأولى،

أما الكرامة الثانية فقد قال عنها الإمام الأكبر:

«في ذات صباح كنت جالسًا في المجلس، في غرفة الكتب كعادتي، وكنت في تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثم رفعت رأسي ناظرًا أمامي، وإذ بي أجد أمامي إنسانًا، فأخذت في تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع، كان طويلًا أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة يميل لونه إلى السمرة، وعلى رأسه شال أبيض مما يسميه الحجازيون (الغترة) وكان في وقفته منحنيًا قليلًا، وقد تأملت ملابسه أيضًا في تفاصيلها وشكلها، لم يتحدث معي ولم أتحدث إليه وبعد فترة ونحن على هذا الوضع أنظر إليه في تحديق وينظر إلي نظرات ثابتة، أخذ يشف شيئًا فشيئًا، وأنا ألاحظ في وضوح هذا التدرج في الشفافية وانتهت الشفافية بزواله تمامًا دون أن يتحرك من موضعه؛ ذلك ما شاهدته بنفسي».

أثره في المجتمع:

أفلح الشيخ رحمه الله في تكوين مجتمع يستشعر وجود الله في كل وقت، المجتمع البريء من الذنب، المتطلع إلى الخير، البعيد عن التنازل والتضاد، وإذا جاهد الشيخ في سبيل إنشاء هذا المجتمع، فما أعظم ما جاهد في سبيل الإصلاح.

* حارب الشيخ في عدة جهات من أجل إقامة المجتمع السويِّ، فقد حارب (الوجودية)، حين هبت فئة تدعو إليها.

* وصمد الإمام أمام (الماركسية) صمود الفارس الصنديد، فأخذ يزيل الغشاء الخادع عن الماركسية الحاقدة، ليراها الناس في وجهها الكالح البسيط.

* وطالب الإمامُ بالشريعة الإسلامية تطبيقًا والتزامًا، وقد سارع رحمه الله فألف لجنة علميَّة لصياغة قوانين الشريعة في مواد محددة؛ لتسهل مهمة التطبيق، وأخذ يتصل بأعضاء مجلس الشعب ليحدث تكتلًا إسلاميًا ينادي بتطبيق الشريعة.

المؤتمرات والملتقيات والرحلات:

* سافر الشيخ إلى العراق بدعوة من حكومتها؛ لتنظيم وزارة الأوقاف العراقية، وتنظيم المؤسسات الدينيَّة بها، ووضع تقريرًا مفصلًا عن وجوه الإصلاح فيها، ومكث في مهمته شهرًا.

* تمثيله للأزهر في مهرجان الإمام الغزالي الذي عقد بدمشق سنة ١٩٦١م.

- سافر إلى باكستان أستاذًا زائرًا بدعوة من وزير الأوقاف والشئون الإسلامية.

- سافر إلى ماليزيا أستاذًا زائرًا للمركز الإسلامي لإلقاء محاضرات دينية وتنظيم شئون المسلمين بها.

- سافر إلى قطر بدعوة من حكومتها ووضع قواعد بناء التعليم الديني وألقى كثيرًا من المحاضرات بها.

- سافر إلى الكويت بدعوة من حكومتها لإلقاء محاضرات دينية في شهر رمضان المعظم.

- سافر إلى دولة الإمارات العربية بدعوة من حكومتها لافتتاح الموسم الثقافي لعام ١٩٧٤م، وإلقاء المحاضرات الدينية بها.

- سافر إلى ماليزيا بدعوة من حكومتها سنة ١٩٧٤م لحضور إشهار عدد كبير من المواطنين الماليزيين إسلامهم بلغ تعدادهم أربعة آلاف مواطن.

- مشاركته في مؤتمر السيرة النبوية بباكستان في فبراير سنة ١٩٧٦م.

- سافر إلى لندن لحضور مهرجان العالم الإسلامي في ٣٠ من مارس سنة ١٩٧٦م.

- سافر إلى مكة المكرمة لحضور مؤتمر رسالة المسجد، في ١٦ من أبريل سنة ١٩٧٦م.

- استجابته لدعوة الأمين العام للمؤتمر الاقتصادي الإسلامي المنعقد في لندن، في الفترة من ٣٠ من يونيه إلى ١٦ من يوليو سنة ١٩٧٧م، وقد التقى فضيلته بكثير من علماء اللاهوت، وأساتذة مقارنة الأديان بالجامعات الإنجليزية، وبمشاهير علماء الاقتصاد، وتقدم بمقترحات مهمَّة لوضع أسس متينة مقتبسة من الإسلام تتيح نهضة اقتصادية كبرى للشعوب الإسلامية.

قالوا عن الإمام:

الأستاذ الدكتور/ منيع عبد الحليم محمود

* الإمام الأكبر عبد الحليم محمود: اسم عظيم لرجل عظيم، رجل شرَّف الإسلام كواحد من أبنائه وعالم من علمائه.

* عاش حياته مخبتًا أوَّابًا، وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة دائمة وروَّادًا، وكان إمامًا للمتقين.

* كان كالأنفاس الطاهرة الهادئة، والنسمات الوادعة في صمته وصوته وجميع سمته كان عظيم الصدق مع ربه ومع نفسه، وكان شجاعًا في اختيار طريقه، وفي السير على هذا الطريق .

* لم تكن له شخصيتان؛ بل شخصية واحدة، اتسقت اتساقًا باهرًا مع نور الشريعة والحقيقة معًا، وكان يذكر - كلما ذكر: الإخلاص والطهر والتقى.

* كان عالمًا حكيمًا، يدرس الوضع بدقة وإمعان، ويفكر في القضايا والمشكلات تفكيرًا جديًّا وسليمًا، ويبحث لها عن حلول في صمت، ويبدي رأيه في أوانه؛ لذلك استطاع أن يحفظ مكانة الأزهر ويُبقِي كرامته.

* لقد كان أمة في ذاته؛ فإذا جلس في مكان تحول ذلك المكان إلى مسجد ومدرسة،

وكان الناس يؤمونه من الجهات البعيدة؛ ليستفيدوا منه العلم والدين والربانيَّة.

* لقد قام شيخ الأزهر الإمام عبد الحليم محمود رضي الله عنه بجلائل الأعمال؛ وأجل من كل شيء - فيما أرى - هو صموده في وجه أي ظلم وطغيان، ورفضه بيع الضمير.

إنه ثبت على عقيدته وإيمانه كالجبل الراسي، وألح على الحفاظ على مكانته عند الله وعند الناس ولقد قام بإعادة اعتبار الأزهر ومكانته إلى النفوس، وأزال جميع العوائق والعراقيل التي وضعت في طريقه، وفتح باب الأزهر على مصراعيه للوافدين من طلاب العلم والدين؛ فعاد الأزهر من جديد إلى مكانة القيادة العلمية والتربوية في العالم الإسلامي

* ويعد الإمام الأكبر عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث، ولقب بـ(أبي التصوف) في العصر الراهن.

* والإمام الأكبر عبد الحليم محمود رضي الله عنه له عمق وغزارة في الآراء الفقهية، ودقة الاجتهادات؛ مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة في عرض أي موضوعٍ ومسألةٍ تتعلق بأمور الدين.

فلهذا اكتسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم، وسيبقى هذا العالم وتراثه في قلوبنا على مر العصور.

* ثم كان من أمر الشيخ عبد الحليم رضي الله أن أصبح هو الفضيل بن عياض، وهو الإمام الغزالي، وهو الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، حتى وصل به الأمر أن امتزج امتزاجًا كاملًا بالمدرسة الشاذلية فكان قطبها، ولقب بأبي الحسن الشاذلي القرن العشرين.

و لقب أيضًا بـ (أبي العارفين) فلقد كان إليه - رضي الله عنه - المرجع والفتيا وريادة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث.

الأستاذ الدكتور/ محمد رجب البيومي:

* لا يفارقك - وأنت في مجلس الإمام عبد الحليم محمود -إحساسُك أنك مع إنسان يعرف ربَّه، وأنه بهذه المعرفة الحقيقية قد ارتفع إلى مستوى وضيء، فأنت معه في مكان واحد، ولكن شعورك يدعوك إلى أن ترى أنه في السماء، وأنك في الأرض، هيبته تملأ مشاعرك، وتواضعه يزيده لألاء، ويزيدك إجلالًا للعارفين بالله، فتحاول أن تسمع منه ليعطيك، مفضِّلًا مأثرة السكوت الناطق أمام وجهٍ مضيء الملامح، طاهر القسمات، تنطق أساريره المؤمنة بمعان لا تعرفها الأرض؛ لأن بوارقها الفاتنة تلوح في الأفق الأعلى كما تلوح أشعة الشمس وضياء القمر، ومن الإنسان ما يتألق ويشع ويضيء، مثل: محمد عبده، وعبد الحليم محمود.

* «الله حق والموت حق» كانت هاتان الجملتان آخر ما نطق به الإمام الأكبر في حياته، ثم ارتقى إلى الملأ الأعلى، تاركًا وراءه سجل أعماله مشرق الصفحات، ولعمري، لكأنَّ الله عز وجل ألهمه أن ينطق بهاتين الجملتين إلهامًا صادقًا؛ لأنهما في نظر الدارس المتأمل مفتاح شخصيته، الذي يكشف خباياها دون خفاء، والذي يفسر مواقفه المختلفة، ما اتضح منها بارزًا للعيان، وما احتاج في اتضاحه إلى علاج صبور. «الله حق» هذا قول كان يجد تطبيقه العملي في كل ما قام به الرجل من أعمال؛ إذ أنه كان يسهر الليل ويكد النهار، ويصالح الخصوم وينصف المتنازعين، ويسعى في جنبات الأرض يقرأ صحائف العلم، ويفعل ذلك كله وفي ذهنه معنًى واضح يهتف به: أن الله تعالى حق، فيجب إذًا أن يتقيد بالحق فيما يزاول من عمل وقول؛ لأنه يصدر عن أمر ربه، ويجب إذًا أن ينأى عن الباطل؛ لأن ربه عن الباطل قد نهاه؛ و«الموت حق» قول آخر، كان يجد تطبيقه العملي في نفس الرجل، فهو بصوفيته الشفيفة، يدرك تمام الإدراك أن الحياة سفر قصير مهما تطاول، وأن وراء الحياة رحلة حقيقية إلى عالم الحق الخالد، وأن هذه الرحلة تتطلب زادًا حقيقيًّا من العدل والأمانة والإخلاص والتقوى، وقد عاش الشيخ مدركًا حقيقة هذه الرحلة ومنتظرًا لها في كل لحظة تحين، حتى إذا لاحت لعينيه ساعتها المرتقبة؛ ابتسم ابتسامته الراضية، وقال في لقاء العارف الواصل: الموت حق، وقد ابتسم في هذا الموقف ابتسامة

تؤثر عن أسلافه الكبار، ممن قطعوا الطريق خطوة بخطوة حتى شافهوا مشارق الأنوار. لقد كانت عينا عبد الحليم تشعان بوميض ساطع، وكأنهما ترتادان آفاقًا مجهولة وكان الرجل يحدق بهما إلى أبعد الآماد، فتشعر أنه غائب عنك وإن كنت بجواره، ثم تعلو وجهَه ابتسامة خفيفة هادئة، ويلتفت إليك متحدثًا ومسبحته تدور في كفه، فتعلم أن الرحلة الروحية قد انقضت، وأن عين العارف البصير قد قطعت المسافة بين المحجوب النائي والمشاهد المنظور.

أسعد السعداء من يصادق نفسه فيناجيها وتناجيه، ذلك الذي حفر البئر في صدره حتى اهتدى إلى الينبوع الغزير، ولذلك كان الإمام الأكبر يبحث عن أماكن الخلوات الهادئة؛ ليقابل فيها نفسه المطمئنة، وليسعد بمراجعتها في أنس. أحب عبد الحليم الخلوة وجعل يبحث عن مظانّها، فإذا خرج من الخلوة دعا الشاردين إلى مجالس تقواه، فيفيض عليهم من روحه؛ فمنهم من يدنو ومنهم من يبتعد، ومنهم من يتردد بين البعد والقرب، حتى إذا أدى الشيخ رسالته الروحية، ترك الجموع إلى خلوته التي لا تتسع لسواه، حين ذاك يسبح في تأمله ليكشف ينابيع نفسه، وليفيضَ الله عليه من المعاني ما يؤدي دور الإمامة في الهداية، ورسالة المشيخة في الفتوى.

الأستاذ الدكتور/ محمد يحيى، أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة:

في عهد المرحوم الشيخ عبد الحليم محمود - رحمه الله - كان الأزهر نورًا للإسلام ونارًا على أعدائه، وقد جمع الشيخ بين دعوة لإحياء القلوب بالتوبة والرجوع إلى الله، ودعوة لإحياء العقول بالفكر الإسلامي النقي الواعي، الذي كان هو رائده؛ وتحرك بالأزهر إلى قلب الشعب والحياة، فكانت عشرات المعاهد الأزهرية والمساجد والجمعيات، وتزعم الأزهرُ في عهده تطبيقَ الشريعة الإسلامية، ورعاها وزودها بالفكر والدراسات والأبحاث، وإخراج مشروع الدستور الإسلامي، وقانون إسلامي أصيل للأسرة؛ وكرسي الشيخ الذي فقدناه: علمه، ومعه علم العديد من رجالات الأزهر الشرفاء لحرب أعداء

الإسلام؛ فإذا الذين زعموا أنهم أصحاب الأفكار التي لا تُقهَر، والفلسفات التي لا يأتيها الباطل، إذا بهم ينكشفون كمجرد عملاء مدفوعي الأجر لقوى كبرى غيرهم بالشعارات وبما يقرؤون، وتنسى تلك القوى أن تفسره لهم، أو تعطيهم العقول اللازمة لشرحه.

وانتعشت في ذلك العهد -ومن جرَّاء ذلك الجهد الأزهري- الحركة الإسلامية فكانت النبات الأصيل للأزهر ورجاله كما كانت امتدادًا لكفاح الشعب المصري المسلم وطلائعه من التيارات الإسلامية، وعلى رأسهم حركة الإخوان، وغيرها من حركات النضال والإيمان، ودفع الشيخ عبد الحليم محمود ومعه الأزهر ثمنًا غاليًا جراء هذا التحدي لأعداء الإسلام، من طائفيين وعلمانيين، وقوى داخلية وخارجية مختلفة، فكان أن تعرض الرجلُ في حياته لأبشع هجوم وتشويه، وشتم بذيء منحط، وسخَّرت السلطة - من وراء ستار - مجلة يسارية أسبوعية للهجوم على الرجل، ومن هنا بدأ الحديث عن تلقيه الأموال العربية لبناء المساجد، وكأن بيوت الله جريمة؛ ونسوا مئات الكنائس التي بناها الأنبا شنودة، واستحق لذلك وصف (صاحب النهضة) عند أبنائه، وعند العلمانيين أنفسهم، الذين يطبقون علمانيتهم على الإسلام وحده، وهوجمت سياسة بناء المعاهد الأزهرية، وأخذ وزير التعليم المزمن في تلك الفترة يتحدث عن ضرورة توحيد نظام التعليم في مصر؛ أي: إلغاء التعليم الأزهري، وعندما مات الشيخ عبد الحليم محمود حرمت الجماهير من تشييع جنازته، ومنعت - حتى الآن - أحاديثه الكثيرة من وسائل الإعلام؛ لأنها كانت مؤثرة في إحداث موجة التدين الذي يحاربونه؛ وتحول الأزهر بعده إلى النقيض.

الأستاذ الدكتور/ علي حلوة، الأستاذ بجامعة الأزهر:

كان الإمام محل تقدير واحترام من الناس جميعًا، ومنهم الملوك والحكام، ففي صلاةِ جمعةٍ، وكان يحضرها الرئيس الراحل أنور السادات والعاهل السعودي والإمام عبد الحليم، وأثناء دخول المسجد، انتظر العاهل السعودي الإمامَ ليكونَ هو أول من يدخل المسجد؛ احترامًا وتقديرًا له، ورفض أن يدخل قبل الإمام.

الأديب السعودي الكبير/ إبراهيم هاشم فلالي، في رسالة خاصة بعث بها إلى الإمام الأكبر:

سيدي الجليل فضيلة الدكتور/ عبد الحليم محمود الموقر، تحية طيبة مباركة، إنني يا سيدي من تلامذتكم المجهولين لأنني متتبع ما تكتبونه من بحوث دينيه، وأحاديث في المذياع والتلفاز، وإنني من الذين يحبونكم في الله، ولي عظيمُ الثقةِ فيكم؛ لأنكم أحد قيادات الإصلاح الديني، ولفضيلتكم قدم راسخة في علوم الشريعة الإسلامية، ودراية واسعة بالتصوف والمتصوفين وبحوثهم .

الأستاذ الكبير / خالد محمد خالد:

بالأمس رحل عن الدنيا رجل من الأخيار، رجل اتقى الله وآمن برسوله، فآتاه الله كفلين من رحمته، وجعل له نورًا يمشي به، كالأنفاس الطاهرة الهادئة والنسمات الوادعة في صمته وصوته وجميع سمته، كان وَفِيًّ السير على هذا الطريق، غير ملقٍ بالَه لنقد الناقدين ولوم اللائمين، لم تكن له شخصيتان؛ بل شخصية واحدة، اتسقت اتساقًا باهرًا مع نور الشريعة والحقيقة معًا، وكان يذكر - كلما ذكر - الإخلاص والطهر والتقى؛ ذلكم هو الإمام الأكبر عبد الحليم محمود.

عاش حياته متبتلًا مخبتًا أوَّابًا، وكان يحمل كل خصائص العلماء الذين كتب لهم أن يكونوا للناس قدوة وأمة وروَّادًا.

كان للمتقين إمامًا (عبد الحليم محمود) اسم عظيم لرجل عظيم .. رجل شرف به الإسلام كواحد من أبنائه وعلم من أعلامه.

الدكتور / محمد عبد الرحمن بيصار، شيخ الأزهر الأسبق:

كان سريع التحرك بوجدانه إلى ما ينبغي أن يكون عندما يطرأ أمر أو تزحف حادثة من أحداث الحياة، وكانت حركته بوجدان صافٍ وفكرٍ مدرك وصفاء نفس عميق، وما ذكرت يومًا أنه غضب عندما غضبت، أو انفعل عندما خولف في الرأي؛ كان يسدد

الغضب ويصرف الانفعال بابتسامة رقيقة ترتسم على شفتيه، معبرةً عن معنًى دقيق من الأخوة والصفاء، وراءها فيض جارف من العواطف الأخوية، والعبارات الشفافة الملطفة، التي تبدد كل غيم وتوضح كل لبس.

الأستاذ/ نصر عبد الغفور:

فزعت مصر ورُوع المسلمون وجزع الشرق حين نعى الناعي الرجل العظيم، إمام المسلمين الأكبر، وقائد المسيرة القرآنية، وزعيم علماء العصر بلا منازع، وما كان الجزع والترويع والفزع لموت الفقيد الكريم؛ فالموت حق على الجميع، فلقد مات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ ولكن مظاهر الحزن والفزع كانت للمعاني التي يمثلها الإمام الراحل في حياته، كان -يرحمه الله ويطيب ثراه- رجلًا بكل ما تحمله كلمة الرجولة من معانٍ. كان بطلًا تنحني أمامه الهامات وكان صاحب رسالة آمن بها وناضل من أجلها، حتى وافته المنية وهو أشد ما يكون حرصًا على الحركة والنشاط ودقة الأداء.

فكر متدفق .. إيمان عميق .. ثقة زائدة لا حدود لها، يهز الرأي العام والعالم الإسلامي بكلماته القوية، يخاطب الملوك والوزراء وأهل الرأي في أنحاء العالم، يطالبهم برعاية الدعوة الإسلامية ودعمها وتقويتها، ولقد قاد الأزهر منذ إنشائه مئاتٌ من شيوخ الأزهر، وأشهد أن عبد الحليم محمود سجل في التاريخِ صفحات من أنصع وأعظم الصفحات، وأنه يعد بين شيوخ الأزهر السابقين من أكثرهم علمًا وأشدهم تأثيرًا وسيذكر له التاريخ جهده وجهاده ونضاله وسيبقى الذكر للأبد.

العلامة الدكتور / سيد حسين نصر

هو المرجع الشرعي وشيخ الأزهر والمتصوف العالم في الطريقة الشاذلية، الذي أقام مسجدًا للعارف بالله: ابن عطاء الله السكندري عند سفح هضبة المقطم، وهو الذي تلقى قسطًا من دراسته في الغرب، كما أنه أتقن اللغة الفرنسية وأمعن في الاطلاع على فكر الغرب وثقافته.

و يقول في موضع آخر: العلامة الفقيه الصوفي المسلم المصري الشيخ عبد الحليم

محمود، الذي ما تزال رسالته حية في قلوب وعقول الكثير من المصريين.

الأستاذ علي عبد العظيم:

ما رأيت ذكاء في صفاء ولا صمتًا في بيان ولا علمًا في تواضع ولا جلالًا في تسامح كما رأيته في الشيخ الإمام؛ تخلق بالأخلاق القرآنية، وتمسك بالآداب الصوفية، وعاش مع الناس في حياتهم العادية، وإن كان بعيدًا عنهم في سبحاته الروحية، يطيل الصمت إلا عن ذكر الله، ويكثر التأمل ويطيل التفكير، وهو مع هذا يجيد الاستماع حيث تدور من حوله المجادلات، وتصطدم الآراء وتتشعب الأفكار وهو صامت، فإذا تحدث جاء بالقول الفصل، والكلام الجزل، والحجة القاطعة، في أوجز بيان وأحكم أسلوب، فإذا لج المجادلون في المراء تركهم وما يشاءون، وعاد إلى صمته المهيب، مشغولًا بالذكر أو بالفكر أو بالدعاء، امتاز بعفة اللسان، والتسامي واللغو والقصد في الحديث، كما امتاز بمحبة الصالحين، والسعي إليهم أحياء، وأضرحتهم أمواتًا، ودراسة أثارهم العلمية والسلوكية الباقية، فهو يعيش أبدًا في جوهم العبق، وحياتهم النقية المشعة بالصفاء، وفي الأزمات يتجلى فيه مضاء العزيمة، وجودة الرأي، وسرعة البديهة، وقوة الصبر والمثابرة، وطول الأناة في أدب جم وتواضع كبير، يزينه الوقار والجلال، وتراه في تواضعه وهدوئه كالبحر الساجي، فإذا عاشرته وخبرته وجدت تحت هدوئه أمواجًا دافقة، وتيارات صاخبة، وأعناقًا غائرة، وجلالًا مهيبًا، وقلما يثور، إلا إذا رأى ما يمس حرمات الله، أو ينال من شرعه القويم، وحينئذ تصخب أمواجه، وتفور تياراته، وتعصف أجوائه، وتتفجر فيه الزلازل والبراكين، ثم لا يلبث أن يعود للهدوء والصفاء، وقد لقي من العداوات والضغائن والأحقاد –ممن أحسن إليهم– ما يثير أحلم الحلماء، ولكنه ترفع بصوفيته عن الأحقاد والضغائن، وسما بروحانياته إلى عالم الصفاء والنقاء، ومع إقبال الدنيا عليه فإنها لم تستبعده ولم تفتنه، فكان سخي اليد لا تدري يمينه ما تنفق شماله، فكم جاد بالأموال على الجمعيات الخيرية، وعلى جهات البر وعلى المُعْدَمين في تستر وخفاء، وقد يختلف معه الباحثون في بعض الآراء ولكنهم يجمعون جميعًا على احترامه وتقديره ومحبته.

وفاته:

بعد عودة الشيخ الإمام عبد الحليم محمود من رحلة الحج في ١٦ من ذي القعدة ١٣٩٨هـ، الموافق ١٧ من أكتوبر ١٩٧٨م قام بإجراء عملية جراحية بالقاهرة فتُوفِّيَ على إثرها، وتلقت الأمة الإسلامية نبأ وفاته بالأسى، وصلى عليه ألوف المسلمين الذين احتشدوا بالجامع الأزهر ليشيعوه إلى مثواه الأخير، تاركًا تُرَاثًا فِكْرِيًّا زَاخِرًا، ما زال يعاد نشره وطباعته.

مصادر ترجمته:

- الحمد لله هذه حياتي، تأليف: الإمام الأكبر عبد الحليم محمود.
- المدرسة الشاذلية، تأليف: الإمام الأكبر عبد الحليم محمود.
- قضية التصوف: المنقذ من الضلال، الإمام الأكبر عبد الحليم محمود.

***

قصص الأنبياء

الرسل والأنبياء في القرآن

أرسل الله نبيَّه محمدًا ، وختم به رسالاته، فكانت رسالته رحمة وهدى للعالمين، فلم يَأْتِ رسول الله ليختلف مع الآخرين، ويُثِيرُ البغضاء والشحناء، بل جاء هاديًا ومبشِّرًا ونذيرًا؛ إيمانًا من رسول الله بأن أنبياء الله جميعًا - عليهم صلوات الله وسلامه - إنما جاءوا بنفس التعاليم التي جاء بها؛ لذلك حرص رسول الله دائمًا على إظهار هذا المعنى، وآياتُ القرآن تدعوه إلى إعلان ذلك، فيقول تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٩).

وكانت معاملة رسول الله لأصحاب الديانات الأخرى معاملة راقية؛ انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠)، فلم يفكر يومًا في ظلم أحدهم أو قتله أو إجباره على اعتناق الإسلام، أو إكراهه على تغيير دينه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

ورغم ذلك فما زال هناك بعض الحاقدين يُثِيرون حول الإسلام ورسوله الكثير من الشبهات التي هو منها براء؛ ولذا فقد أفردنا هذه المقالات لتناول حياة رسول الله مع غير المسلمين، وآداب تعامله معهم.

الإسلام الدين الخاتم

منذ بعث الله نبيَّه محمدًا إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا وهو يؤكِّد على حقيقة مهمَّة، ألا وهي أن دينَ الأنبياء جميعًا هو الإسلام -منذ خلق الله آدم إلى أن ختم الله رسالاته بمحمد - دينٌ واحد، يدعو إلى عبادة ربٍّ واحد وإن اختلفت الشرائع في الأحكام الفرعيَّة، وجاء القرآن الكريم معبِّرًا عن هذا المعنى في آيات كثيرة؛ فقال عن إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧)، وجاء على لسان يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي

مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١).

فالإسلام ينظر إلى الأنبياء جميعًا نظرة تبجيل وتعظيم؛ فاستحقَّ لذلك أن يكون الدِّينَ الخاتم للبشريَّة.

نظرة القرآن للرسل والأنبياء

منذ بداية الدعوة الإسلاميَّة والقرآن يتنزَّل بالآيات التي تشرح قصص الأنبياء؛ انطلاقًا من كون الرسالة التي نزلتْ عليهم جميعًا واحدة -مهما اختلفت العصور والأماكن- وهدفها واحد؛ وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى طريق الحقِّ تبارك وتعالى، فكان القرآن واضحًا غاية الوضوح في بيان حقيقةُ العَلاقة بين الرسل جميعًا؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (النساء:١٦٣، ١٦٤).

ثم ها هو ذا القرآن المكِّيُّ يتحدَّث عن تكريم موسى - على سبيل المثال - فيقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (القصص:١٤)، ويقول أيضًا: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأعراف:١٤٤)، ومثال ذلك كثير جدًّا في القرآن الكريم.

والأمر كذلك بالنسبة لعيسى؛ فتجد القرآن المكِّيَّ يُمَجِّد قصَّته في أكثر من موضع، فيذكر على سبيل المثال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا [٣٠] وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا [٣١] وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا [٣٢] وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (مريم:٣٠-٣٣). ويقول أيضًا: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنعام:٨٥).

وعلى هذا التكريم والتبجيل استمرَّ الوضعُ في فترة المدينة، على ما كان فيها من

صراعات وخلافات مع اليهود والنصارى، وعلى ما حدث من تكذيبٍ مستمرٍّ منهم، إلاّ أن المديح الإلهي للأنبياء الكرام استمرَّ دونها انقطاع؛ فربنا ا يذكر موسى وعيسى عليهما السلام كائنين من أُولي العزم من الرسل، فيقول سبحانه في حقِّهما: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (الأحزاب:٧) .

فإذا أخذنا في الاعتبار أن هذه السورة -وهي سورة الأحزاب- قد نزلت بعد خيانة يهود بني قريظة للمسلمين، ومحاولتهم استئصال كافَّة المسلمين من المدينة؛ أدركنا مدى التكريم الإلهي لموسى وعيسى عليهما السلام - وهما من أنبياء بني إسرائيل - وأدركنا كذلك مدى الأمانة التي اتَّصف بها رسول الله ؛ إذ ينقل تكريم الله لهؤلاء الأنبياء العظام على رغم خيانة أقوامهم وأتباعهم.

ولم يكن هذا الاحتفاء والاحترام لهذين الرسولين العظيمين أمرًا عرضيًّا عابرًا في القرآن الكريم، بل كان متكرِّرًا بشكل لافت للنظر؛ فعلى الرغم من ورود لفظ (محمد) أربع مرَّات فقط، ولفظ (أحمد) مرَّة واحدة فقط، نجد أن لفظ (عيسى) قد جاء خمسًا وعشرين مرَّة، ولفظ (المسيح) إحدى عشرة مرَّة، بمجموع ستّ وثلاثين مرَّة!! بينما تصدَّر موسى قائمة الأنبياء الذين تمَّ ذكرهم في القرآن الكريم؛ حيث ذُكر مائة وست وثلاثين مرَّة[١]!

وبالنظر إلى عدد المرَّات التي ذُكر فيها كل نبي في القرآن نُدرك مدى الحفاوة التي زُرعت في قلوب المسلمين لهم، كما نجد أن لها دلالات لطيفة، فأكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن هم: موسى، ثم إبراهيم، ثم نوح، ثم عيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم، وهم جميعًا من أُولِي العزم من الرسل، ولا شكَّ أنَّ في هذا تعظيمًا وتكريمًا لهؤلاء الرسل خاصَّةً، ولكن لم يأتِ ذِكْرُ رسولنا محمد -كما أشرنا قبل ذلك- إلاَّ خمس مرَّات، بل إننا نرى في هذا الإحصاء أن سبعة عشر نبيًّا قد ورد ذكرهم أكثر من ذكر رسول الله ؛ ممَّا يدلُّ دلالة قاطعة على أن الإسلام يجلُّ كل الرسل والأنبياء، كما يجزم هذا الإحصاء بأن القرآن ليس من تأليف رسول الله -كما يدَّعي كثير من الغربيين- وإلاَّ كان همُّه أن يُمَجِّدَ نفسه لا غيره.

---

(١) انظر: محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٦٨٠، ٦٦٦، ٤٩٤، ٢١٨.

ونتساءل: أَبَعْد كل هذا الذِّكْر والتعظيم يقال: إن المسلمين لا يعترفون بغيرهم؟! مَنْ مِنْ أهل الأرض يعترف بنا كما نعترف نحن بغيرنا؟!

الإيمان بجميع الأنبياء

وعلى الرغم من قناعتنا أن رسول الله هو أفضل البشر وسيِّد الخَلْق، إلاَّ أن القرآن الكريم يأمرنا بالإيمان بجميع الأنبياء دون تفرقة بينهم؛ فيقول الله يصف الإيمان الأمثل الذي يجب أن تتحلَّى به أُمَّة الإسلام: **﴿قُولُوا آمَنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾** (البقرة:١٣٦).

"هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات، وفي ولائه لكافَّة الرسل، وفي توحيده لدين الله كله، ورَجْعِهِ جميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده"[١].

كما أن القرآن يعدُّ تكذيب رسول واحد من الرسل تكذيبًا لجميع الأنبياء والمرسلين؛ لقول الله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾** (الشعراء:١٢٣)، وقوله: **﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾** (الشعراء:١٠٥)، ويقول سيد قطب في الظلال تعليقًا على هذه الآية: "وقوم نوح لم يُكَذِّبوا إلاَّ نوحًا، ولكن الله ا يذكر أنهم كذَّبوا المرسلين، فالرسالة في أصلها واحدة، وهي دعوة إلى توحيد الله، وإخلاص العبودية له، فمَنْ كَذَّب بها فقد كَذَّب بالمرسلين أجمعين، فهذه دعوتهم أجمعين"[٢].

هذه هي الخلفية التي كان يضعها رسول الله في ذهنه عند الحديث عن الأنبياء والمرسلين.

د. راغب السرجاني

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤٢٣/١.

(٢) المصدر السابق ٣٥٦/٥.

آدم (عليه السلام)

أخبر الله -عز وجل- ملائكته بخلق آدم -عليه السلام- فقال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠) فسألت الملائكة الله -عز وجل- واستفسرت عن حكمة خلق بني الإنسان، وقد علمت الملائكة أن من الخلق من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، فإن كانت الحكمة من خلقهم هي عبادة الله، فهم يعبدونه، فقالوا لله: ﴿ قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠) فأجابهم الله -عز وجل- عن استفسارهم بأنه -سبحانه- يعلم الحكمة التي تخفى عليهم، فإنه -سبحانه- سيخلق بني البشر ويجعل فيهم الرسل والأنبياء والصديقين والصالحين والشهداء، والعلماء والعاملين لدين الله، والمحبين له، المتبعين رسله، قال تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠).

وخلق الله -سبحانه- آدم من تراب الأرض ومائها، ثم صوَّره في أحسن صورة ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو إنسان حي من لحم ودم وعظم، وكان ذلك يوم الجمعة، قال النبي ﷺ: (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)_[متفق عليه] وقال ﷺ: (إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزْن (الصعب)، والخبيث والطيب) [الترمذي].

ولما صار آدم حيًّا، ودبَّت فيه الحركة علمه الله -سبحانه- أسماء كل شيء ومسمياته وطرائق استعماله والتعامل معه من الملائكة والطيور والحيوانات

وغير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) وأراد الله -عز وجل- أن يبين للملائكة الكرام فضل آدم ومكانته عنده، فعرض جميع الأشياء التي علمها لآدم على الملائكة، وقال لهم: ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٣١) فقالوا:

﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:٣٢) .

فأمر الله آدم أن يخبرهم بأسماء هذه الأشياء التي عجزوا عن إدراكها، فأخذ آدم يذكر اسم كل شيء يعرض عليه، وعند ذلك قال الله -تعالى- للملائكة: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (البقرة:٣٣).

ودار حوار بين آدم -عليه السلام- والملائكة حكاه لنا رسول الله -ﷺ- فقال: "خلق الله آدم -عليه السلام- طوله ستون ذراعًا، فلما خلقه قال: اذهب فَسَلِّم على أولئك -نفر من الملائكة- فاستمع ما يحيونك، فإنها تحية ذُرِّيتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله..."[متفق عليه].

وأمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم تشريفاً وتعظيماً له فسجدوا جميعًا، ولكن إبليس رفض أن يسجد، وتكبر على أمر ربه، فسأله

الله -عز وجل- وهو أعلم: ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (ص:٧٥) فَرَدَّ إبليس في غرور: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (ص:٧٦) فطرده الله -عز وجل- من رحمته وجعله طريدًا ملعونًا، قال تعالى: ﴿ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ [٧٧] وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (ص: ٧٧-٧٨).

فازداد إبليس كراهية لآدم وذريته، وحلف بالله أن يزين لهم الشر، فقال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ[٨٢] إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص:٨٢-٨٣) فقال الله -تعالى- له: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص:٨٥) وذات يوم نام آدم -عليه السلام-، فلما استيقظ وجد امرأة تجلس إلى جانبه فسألها: من أنتِ؟ قالت: امرأة، قال: ولِمَ خُلِقْتِ؟ قالت: لتسكن إليَّ، ففرح بها آدم وأطلق عليها اسم حواء؛ لأنها خلقت من شيء حي، وهو ضلع آدم الأيسر.

وأمر الله -سبحانه- آدم وزوجته حواء أن يسكنا الجنة، ويأكلا من ثمارها ويبتعدا عن شجرة معينة، فلا يأكلان منها؛ امتحانًا واختبارًا لهما، فقال تعالى: ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ

وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٣٥) وحذَّر الله -سبحانه- آدم وزوجه تحذيرًا شديدًا من إبليس وعداوته لهما، فقال تعالى: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى[١١٧] إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى[١١٨] وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ (طه:١١٧-١١٩).

وأخذ إبليس يفكر في إغواء آدم وحواء، فوضع خطته الشيطانية؛ ليخدعهما فذهب إليهما، وقال: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ (طه:١٢٠) فصدَّق آدم وحواء كلام إبليس بعد أن أقسم لهما، ظنًّا منهما أنه لا يمكن لأحد أن يحلف بالله كذبًا، وذهب آدم وحواء إلى الشجرة وأكلا منها.. وعندئذ حدثت المفاجأة؟!!

لقد فوجئ آدم وحواء بشيء عجيب وغريب، لقد أصبحا عريانين؛ بسبب عصيانهما، وأصابهما الخجل والحزن الشديد من حالهما، فأخذا يجريان نحو الأشجار، وأخذ يقطعان من أوراقها ويستران بها جسديهما، فخاطب الله -عز وجل- آدم وحواء معاتبًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف:٢٢) فندم آدم وحواء ندمًا شديدًا على معصية الله ومخالفة أمره وتوجها إليه -سبحانه- بالتوبة والاستغفار، فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف:٢٣) وبعد الندم والاستغفار، قبل الله توبتهما ودعاءهما، وأمرهما بالهبوط إلى الأرض والعيش عليها.

وعاش آدم وحواء على الأرض، وبدءا مسيرة الحياة عليها.. ووُلد لآدم وهو على الأرض أولاد كثيرون، فكان يؤدبهم ويربيهم، ويرشدهم إلى أن الحياة على الأرض امتحان للإنسان وابتلاء له، وأن عليهم أن يتمسكوا بهدى الله، وأن يحذروا من الشيطان ومن وساوسه الضَّارة.

قصة ابني آدم:

وحكى لنا القرآن الكريم قصة ابني آدم حينما تقدم كل منهما بقربان إلى الله -سبحانه- فتقبَّل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، فما كان من هذا الابن الذي لم يتقبل

الله قربانه إلا أن حسد أخاه وحقد عليه وقتله ظلمًا وعدوانًا، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ [٢٧] لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ [٢٨] إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ [٢٩] فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة:٢٧-٣٠).

ولما قَتَلَ ابن آدم أخاه لم يعرف كيف يواري جثمانه، فأرسل الله إليه غرابًا يحفر في الأرض؛ فعرف ابن آدم كيف يدفن أخاه، فدفنه وهو حزين أشد الحزن لأنه لم يعرف كيف يدفن جثة أخيه، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة:٣١) وظل آدم يعيش وسط أبنائه يدعوهم إلى الله، ويعرِّفهم طريق الحق والإيمان، ويحذِّرهم من الشرك والطغيان وطاعة الشيطان، إلى أن لقى ربه وتوفي بعد أن أتم رسالته، وترك ذريته يعمرون الأرض ويخلفونه فيها.

وعندما صعد النبي ﷺ إلى السماء في رحلة المعراج مَرَّ بآدم -عليه السلام- في السماء الأولى، وقيل له: هذا أبوك آدم فسلِّمْ عليه، فسلم عليه الرسول -ﷺ- وردَّ آدم -عليه السلام- على النبي -ﷺ- السلام، وقال: (مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح)_[متفق عليه].

ويخبرنا النبي -ﷺ- أن الناس يوم القيامة يذهبون إلى آدم -عليه السلام- فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ ولكن آدم -عليه السلام- يتذكر أكله من الشجرة فيستحي من الله، ويطلب من الناس أن يذهبوا إلى غيره من الأنبياء. [البخاري].

***

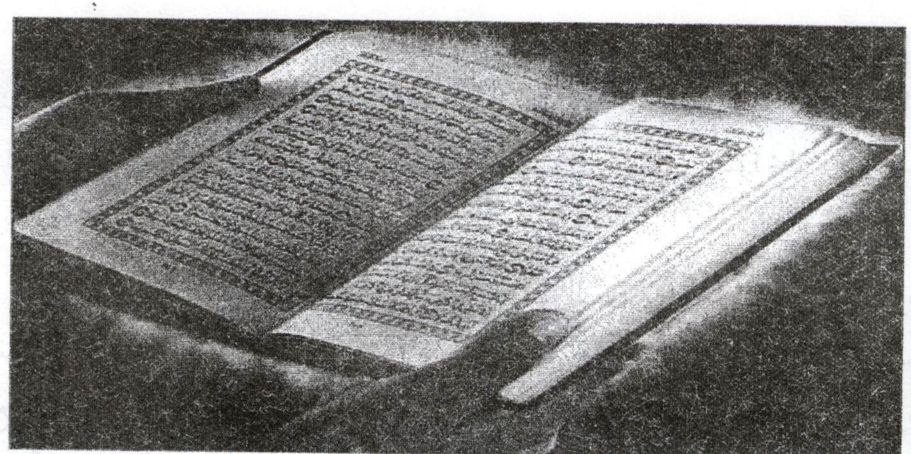
إدريس (عليه السلام)

نبي كريم من أنبياء الله -عز وجل- ذكره الله في القرآن الكريم مرتين دون أن يحكي لنا قصته أو قصة القوم الذين أُرسل إليهم، قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنبياء:٨٥) وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً [٥٦] وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ (مريم: ٥٦-٥٧).

وقد مرَّ رسول الله -ﷺ- بإدريس ليلة الإسراء والمعراج، وهو في السماء الرابعة، فسلَّم عليه فقال: (.. فأتيتُ على إدريس فسلمتُ، فقال: مرحبًا بك من أخ ونبي) [البخاري].

ويروى أن نبي الله إدريس -عليه السلام- كان خياطًا، فكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله! فكان يمسي حين يمسي وليس في الأرض أحد أفضل منه عملاً، وذكر بعض العلماء أن زمن إدريس كان قبل نوح -عليه السلام- والبعض الآخر ذكر أنه جاء بعده، واختلف في موته فقيل إنه لم يمت بل رفع حيًا، كما رفع عيسى -عليه السلام- وقيل: إنه مات كما مات غيره من الرسل، والله أعلم.





نوح (عليه السلام)

كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر رجالا صالحين أحبهم الناس، فلما ماتوا حزنوا عليهم حزنًا شديداً، واستغل الشيطان هذه الفرصة فوسوس للناس أن يصنعوا لهم تماثيل تخليداً لذكراهم، ففعلوا، ومرت السنوات، ومات الذين صنعوا تلك التماثيل، وجاء أحفادهم، فأغواهم الشيطان وجعلهم يظنون أن تلك التماثيل هي آلهتهم فعبدوها من دون الله، وانتشر الكفر بينهم، فبعث الله إليهم رجلا منهم، هو نوح -عليه السلام- فاختاره الله واصطفاه من بين خلقه، ليكون نبيًّا ورسولا، وأوحى إليه أن يدعو قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وظل نوح -عليه السلام- يدعو قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:٥٩) فاستجاب لدعوته عدد من الفقراء والضعفاء، أما الأغنياء والأقوياء فقد رفضوا دعوته، كما أن زوجته وأحد أبنائه كفرا بالله ولم يؤمنا به، وظل الكفار يعاندونه، وقالوا له: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود:٢٧).

ولم ييأس نوح -عليه السلام- من عدم استجابتهم له، بل ظل يدعوهم بالليل والنهار، وينصحهم في السر والعلن، ويشرح لهم برفق وهدوء حقيقة دعوته التي جاء بها، إلا أنهم أصرُّوا على كفرهم، واستمروا في استكبارهم وطغيانهم، وظلوا يجادلونه مدة طويلة، وأخذوا يؤذونه ويسخرون منه، ويحاربون دعوته.

وذات يوم ذهب بعض الأغنياء إلى نوح -عليه السلام- وطلبوا منه أن يطرد الفقراء الذين آمنوا به؛ حتى يرضى عنه الأغنياء ويجلسوا معه ويؤمنوا بدعوته فقال لهم نوح: ﴿وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَـكِنِّيَ أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ [٢٩] وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(هود:٢٩-٣٠) فغضب قومه واتهموه بالضلال،

وقالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأعراف:٦٠) فقال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٦١] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٦١-٦٢).

واستمر نوح -عليه السلام- يدعو قومه يومًا بعد يوم، وعامًا بعد عام، دون أن يزيد عدد المؤمنين، وكان إذا ذهب إلى بعضهم يدعوهم إلى عبادة الله، ويحدثهم عن الإيمان به، وضعوا أصابعهم في آذانهم حتى لا يسمعوا كلامه، وإذا ذهب إلى آخرين يحدثهم عن نعم الله عليهم وعن حسابهم يوم القيامة، وضعوا ثيابهم على وجوههم حتى لا يروه، واستمر هذا الأمر طويلا حتى قال الكفار له: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (هود:٣٢).

فقال لهم نوح: ﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ[٣٣] وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (هود:٣٣-٣٤) وحزن نوح -عليه السلام- لعدم استجابة قومه وطلبهم للعذاب، لكنه لم ييأس، وظل لديه أمل في أن يؤمنوا بالله -تعالى- ومرت الأيام والسنون دون نتيجة أو ثمرة لدعوته، واتَّجه نوح -عليه السلام- إلى ربه يدعوه، ويشكو له ظلم قومه لأنفسهم، فأوحى الله إليه: ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ (هود:٣٦).

وظل نوح -عليه السلام- يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين (٩٥٠ سنة) دون أن يجد منهم استجابة، فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ [١١٧] فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:١١٧-١١٨) ودعا عليهم بالهلاك، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾ (نوح: ٢٦-٢٧) فأمره الله أن يصنع سفينة، وعلَّمه كيف يتقن صنعها، وبدأ نوح -عليه السلام- والمؤمنون معه في صنع السفينة، وكلما مر الكفار عليهم سخروا منهم واستهزءوا بهم؛ إذ كيف يصنعون سفينة وهم يعيشون في صحراء جرداء لا بحر فيها ولا نهر، وزاد استهزاؤهم

حينما عرفوا أن هذه السفينة هي التي سوف ينجو بها نوح ومن معه من المؤمنين حينما ينزل عذاب الله.

وأتمَّ نوح -عليه السلام- صنع السفينة، وعرف أن الطوفان سوف يبدأ، فطلب من كل المؤمنين أن يركبوا السفينة، وحمل فيها من كل حيوان وطير وسائر المخلوقات زوجين اثنين، واستقر نوح -عليه السلام- على ظهر السفينة هو ومن معه، وبدأ الطوفان، فأمطرت السماء مطرًا غزيرًا، وتفجرت عيون الماء من الأرض وخرج الماء منها بقوة، فقال نوح: ﴿ **بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (هود:٤١).

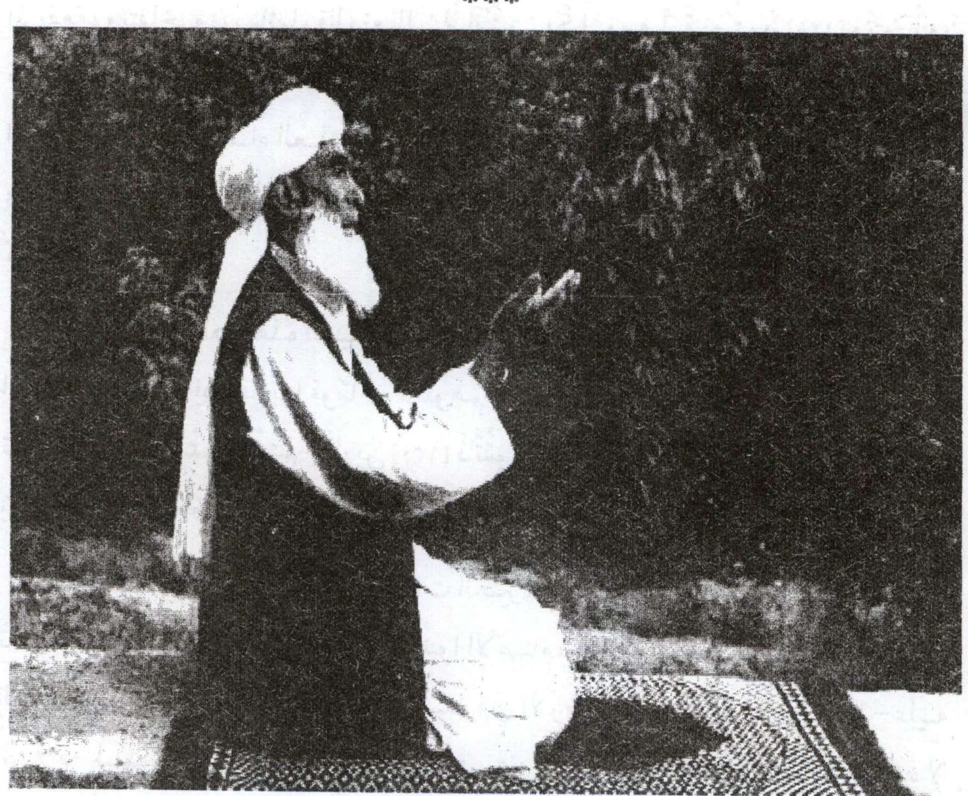
وبدأت السفينة تطفو على سطح الماء، ورأى نوح -عليه السلام- ابنه، وكان كافرًا لم يؤمن بالله، فناداه: ﴿ **يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ** ﴾ (هود:٤٢) فامتنع الابن ورفض أن يلبي نداء أبيه، وقال: ﴿ **سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ** ﴾ (هود:٤٣) فقد ظن أن الماء لن يصل إلى رءوس الجبال وقممها العالية، فحذره نوح -عليه السلام- وقال له: ﴿ **لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ** ﴾ (هود: ٤٣).

ورأى المشركون الماء يملأ بيوتهم، ويتدفق بسرعة رهيبة، فأدركوا أنهم هالكون فتسابقوا في الصعود إلى قمم الجبال، ولكن هيهات .. هيهات، فقد غطى الماء قمم الجبال، وأهلك الله كلَّ الكافرين والمشركين، ونجَّى نوحًا -عليه السلام- والمؤمنين؛ فشكروا الله على نجاتهم، وصدر أمر الله -تعالى- بأن يتوقف المطر، وأن تبتلع الأرض الماء: ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ (هود:٤٤) وابتلعت الأرض الماء، وتوقفت السماء عن المطر، ورست السفينة على جبلٍ يسَمَّى الجودى.

ثم أمر الله نوحًا -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين بالهبوط من السفينة، قال تعالى: ﴿ **يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (هود:٤٨) وناشد نوح -عليه السلام- ربه في ولده، وسأله عن غرقه استفسارًا واستخبارًا عن الأمر، وقد وعده أن ينجيه وأهله، فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّهُ**

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ (هود:٤٦) وكان ابن نوح من الكافرين فلم يستحق رحمة الله، فامتثل نوح لأمر الله، وهبط من السفينة ومعه المؤمنون، وأطلق سراح الحيوانات والطيور، لتبدأ دورة جديدة من الحياة على الأرض، وظل نوح يدعو المؤمنين، ويعلمهم أحكام الدين، ويكثر من طاعة الله من الذكر والصلاة الصيام إلى أن توفي ولقى ربه.





هود (عليه السلام)

في أرض اليمن، وفي مكان يسمَى (الأحقاف) كان يقيم قوم عاد الأولى الذين يرجع نسبهم إلى نوح، وكانوا يسكنون البيوت ذوات الأعمدة الضخمة، قال تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [٧] الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (الفجر:٧-٨) ويبنون القصور العالية والحصون المرتفعة، ويتفاخرون ببنائها، قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ [١٢٨] وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٢٩) ويملكون حضارة عظيمة، وقد برعوا في الزراعة بسبب توفر الماء العذب الغزير وكثر لديهم الخير الوفير، وكثرت الأموال والأنعام، وأصبحت منطقتهم حقولا خصبة خضراء، وحدائق زاهرة وبساتين وعيونًا كثيرة.

وأعطى الله أهل هذه القبيلة بنية جسدية تختلف عن سائر البشر، فكانوا طوال الأجسام أقوياء.. إذا حاربوا قومًا أو قاتلوهم هزموهم، وبطشوا بهم بطشًا شديدًا، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ [١٣٠] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [١٣١] وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ [١٣٢] أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [١٣٣] وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء:١٣٠-١٣٤).

وبرغم هذه النعم الكبيرة والخيرات الكثيرة التي أعطاهم الله إياها، لم يشكروا الله - تعالى- عليها، بل أشركوا معه غيره؛ فعبدوا الأصنام، وكانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وارتكبوا المعاصي والآثام، وأفسدوا في الأرض، فأرسل الله لهم هودًا -عليه السلام- ليهديهم إلى الطريق المستقيم وينهاهم عن ضلالهم ويأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ويخبرهم بأن الله -سبحانه- هو المستحق للشكر على ما وهبهم من قوة وغنى ونعم، فقال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:٦٥) فتساءلوا: ومن أنت حتى تقول لنا مثل هذا الكلام؟! فقال هود -عليه السلام- ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٢٥] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (الشعراء:١٢٥-١٢٦) فرد عليه قومه بغلظة واستكبار: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف:٦٦) فقال لهم هود: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي

سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٦٧] أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (الأعراف:٦٧-٦٨).

فاستكبر قومه، وأنكروا عبادة الله، وقالوا لـه: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:٥٣) وقالوا له: وما الحالة التي أنت فيها، إلا أن آلهتنا قد غضبت عليك، فأصابك جنون في عقلك، فذلك الذي أنت فيه، فلم ييأس هود -عليه السلام- وواصل دعوة قومه إلى طريق الحق، فأخذ يذكرهم بنعم الله -تعالى- عليهم؛ لعلهم يتوبون إلى الله ويستغفرونه، فقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ[١٣٢] أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ [١٣٣[وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الشعراء:١٣٢-١٣٤) ثم قال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (هود:٥٢).

ولم يجد هود -عليه السلام- فيهم إلا قلوبًا ميتة متحجرة متمسكة بغيها وضلالها، وإصرارها على عبادة الأصنام، إذ قابلوا نصحه وإرشاده لهم بالتطاول عليه والسخرية منه، فقال لهم: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ [٥٤] مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ [٥٥] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [٥٦] فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود:٥٤-٥٧) فاستكبروا وتفاخروا بقوتهم وقالوا لهود: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت:١٥) وأخذوا يسخرون منه ويستعجلون العذاب والعقوبة في سخرية واستهزاء فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (الأعراف:٧٠).

فقال هود -عليه السلام-: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ (الأعراف:٧١) وبدأ عذاب الله لقوم عاد بأن أرسل عليهم حرًا شديدًا، جفت معه الآبار والأنهار، وماتت معه الزروع والثمار، وانقطع المطر عنهم مدة طويلة، ثم جاء

سحاب عظيم، فلما رأوه استبشروا به، وفرحوا، وظنوا أنه سيمطر ماءً، وقالوا: ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ (الأحقاف:٢٤) لقد ظنوا أن السحب ستأتي لهم بالخير، لتروي عطشهم وتسقي إبلهم وخيولهم، وزرعهم وبساتينهم، ولكنها كانت تحمل لهم العذاب والفناء، فجاءتهم ريح شديدة استمرت سبع ليالٍ وثمانية أيام دائمة دون انقطاع، تدمر كل شيء أمامها حتى أهلكتهم، قال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[٢٤] تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأحقاف:٢٤-٢٥).

ونجَّى الله هودًا ومن آمنوا معه، قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٧٢) وسار هود -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين إلى مكان آخر يعبدون الله فيه ويسبحونه.





صالح عليه السلام

في منطقة الحِجْر التي تقع بين الحجاز والشام، والتي تسمى الآن (بمدائن صالح) كانت تعيش قبيلة مشهورة تسمى ثمود، يرجع أصلها إلى سام بن نوح، وكانت لهم حضارة عمرانية واضحة المعالم، فقد نحتوا الجبال واتخذوها بيوتًا، يسكنون فيها في الشتاء؛ لتحميهم من الأمطار والعواصف التي تأتي إليهم من حين لآخر واتخذوا من السهول قصورًا يقيمون فيها في الصيف.

وأنعم الله -عز وجل- عليهم بنعم كثيرة لا تعد ولا تحصى، فأعطاهم الأرض الخصبة، والماء العذب الغزير، والحدائق والنخيل، والزروع والثمار، ولكنهم قابلوا النعمة بالجحود والنكران، فكفروا بالله -سبحانه- ولم يشكروه على نعمه وعبدوا الأصنام، وجعلوها شريكة لله، وقدَّموا إليها القرابين، وذبحوا لها الذبائح وتضرعوا لها، وأخذوا يدعونها، فأراد الله هدايتهم، فأرسل إليهم نبيًّا منهم، هو صالح -عليه السلام- وكان رجلاً كريمًا تقيًّا محبوبًا لديهم.

وبدأ صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما هم فيه من عبادة الأصنام، فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ (الأعراف:٧٣) فرفض قومه ذلك، وقالوا له: يا صالح قد كنت بيننا رجلا فاضلاً كريمًا محبوبًا نستشيرك في جميع أمورنا لعلمك وعقلك وصدقك، فماذا حدث لك؟! وقال رجل من القوم: يا صالح ما الذي دعاك لأن تأمرنا أن نترك ديننا الذي وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا، ونتبع دينًا جديدًا ؟! وقال آخر: يا صالح قد خاب رجاؤنا فيك، وصِرْتَ في رأينا رجلا مختلَّ التفكير.

كل هذه الاتهامات وجهت لنبي الله صالح -عليه السلام- فلم يقابل إساءتهم له بإساءة مثلها، ولم ييأس من استهزائهم به وعدم استجابتهم له، بل ظل يتمسك بدين الله رغم كلامهم، ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، ويذكِّرهم بما حدث للأمم التي قبلهم، وما حلَّ بهم من العذاب بسبب كفرهم وعنادهم، فقال لهم: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ

خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف:٧٤) ثم أخذ صالح يذكِّرهم بنعم الله عليهم، فقال لهم: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ [١٤٦] فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ [١٤٧] وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ (الشعراء:١٤٦-١٤٨).

ثم أراد أن يبين لهم الطريق الصحيح لعبادة الله، وأنهم لو استغفروا الله وتابوا إليه فإن الله سيقبل توبتهم، فقال: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود:٦١) فآمنت به طائفة من الفقراء والمساكين، وكفرت طائفة الأغنياء، واستكبروا وكذبوه، وقالوا: ﴿أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ [٢٤] أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ (القمر:٢٤-٢٥).

وحاولت الفئة الكافرة ذات يوم أن تصرف الذين آمنوا بصالح عن دينهم وتجعلهم يشكون في رسالته، فقالوا لهم: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الأعراف:٧٥) أي: هل تأكدتم أنه رسول من عند الله؟ فأعلنت الفئة المؤمنة تمسكها بما أُنزِلَ على صالح وبما جاء به من ربه، وقالوا: ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٧٥) فأصرَّت الفئة الكافرة على ضلالها وقالوا معلنين كفرهم وضلالهم: ﴿إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف:٧٦) ولما رأى

صالح -عليه السلام- إصرارهم على الضلال والكفر قال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةً مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هود:٦٣).

وكان صالح -عليه السلام- يخاطب قومه بأخلاق الداعي الكريمة، وآدابه الرفيعة ويدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة تارة، ويجادلهم تارة أخرى في موضع الجدال، مؤكدًا على أن عبادة الله هي الحق، والطريق المستقيم. ولكن قومه تمادوا في كفرهم، وأخذوا يدبرون له المكائد والحيل حتى لا يؤمن به أكثر الناس، وذات يوم كان صالح -عليه السلام- يدعوهم إلى عبادة الله، ويبين لهم نعم الله الكثيرة، وأنه يجب شكره وحمده عليها،

فقالوا له: يا صالح ما أنت إلا بشر مثلنا، وإذا كنت تدعي أنك رسول الله، فلابد أن تأتينا بمعجزة وآية.

فسألهم صالح -عليه السلام- عن المعجزة التي يريدونها، فأشاروا على صخرة بجوارهم، وقالوا له: أَخْرِجْ لنا من هذه الصخرة ناقة طويلة عُشَراء، وأخذوا يصفون الناقة المطلوبة ويعددون صفاتها، حتى يعجز صالح عن تحقيق طلبهم، فقال لهم صالح: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم أتؤمنون بي وتصدقونني وتعبدون الله الذي خلقكم؟ فقالوا له: نعم، وعاهدوه على ذلك، فقام صالح -عليه السلام- وصلى لله -سبحانه- ثم دعا ربه أن يجيبهم إلى ما طلبوا.

وبعد لحظات حدثت المعجزة، فخرجت الناقة العظيمة من الصخرة التي أشاروا إليها، فكانت برهانًا ساطعًا، ودليلاً قويًّا على نبوة صالح، ولما رأى قوم صالح هذه الناقة بمنظرها الهائل آمن بعض قومه، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم، ثم أوحى الله إلى صالح أن يأمر قومه بأن لا يتعرضوا للناقة بسوء، فقال لهم صالح: ﴿ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٧٣).

واستمر الحال على هذا وقتًا طويلاً، والناقة تشرب ماء البئر يومًا، ويشربون هم يومًا، وفي اليوم الذي تشرب ولا يشربون كانوا يحلبونها فتعطيهم لبنًا يكفيهم جميعًا، لكن الشيطان أغواهم، فزين لهم طريق الشر، وتجاهلوا تحذير صالح لهم فاتفقوا على قتل الناقة، وكان عدد الذين أجمعوا على قتل الناقة تسعة أفراد، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (النمل:٤٨) ثم اتفقوا مع باقي القوم على تنفيذ مؤامرتهم، وقد تولى القيام بهذا الأمر أشقاهم وأكثرهم فسادًا، وقيل اسمه قدار بن سالف..

وفي الصباح، تجمع قوم صالح في مكان فسيح ينتظرون مرور الناقة لتنفيذ مؤامرتهم، وبعد لحظات مرت الناقة العظيمة فتقدم أحدهم منها، وضربها بسهم حاد أصابها في ساقها، فوقعت على الأرض، فضربها قدار بن سالف بالسيف حتى ماتت،



وعلم صالح بما فعل قومه الذين أصروا على السخرية منه والاستهزاء به، وأوحى الله إليه أن العذاب سوف ينزل بقومه بعد ثلاثة أيام، فقال صالح -عليه السلام- لهم: **﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ﴾** (هود:٦٥) ولكن القوم كذبوه واستمروا في سخريتهم منه والاستهزاء به، ولما دخل الليل اجتمعت الفئة الكافرة من قوم صالح، وأخذوا يتشاورون في قتل صالح، حتى يتخلصوا منه مثلما تخلصوا من الناقة، ولكن الله -عز وجل- عَجَّلَ العذاب لهؤلاء المفسدين التسعة، فأرسل عليهم حجارة أصابتهم وأهلكتهم..

ومرت الأيام الثلاثة، وخرج الكافرون في صباح اليوم الثالث ينتظرون ما سيحل عليهم من العذاب والنكال، وفي لحظات جاءتهم صيحة شديدة من السماء، وهزة عنيفة من أسفلهم، فزهقت أرواحهم، وأصبحوا في دارهم هالكين مصروعين.. قال تعالى: **﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** [٥٢] **وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾** (النمل:٥٢-٥٣) وهكذا أهلك الله -عز وجل- قوم صالح بسبب كفرهم وعنادهم وقتلهم لناقة الله، والاستهزاء بنبيهم صالح -عليه السلام- وعدم إيمانهم به، وبعد أن أهلك الله الكافرين من ثمود، وقف صالح -عليه السلام- ومن معه من المؤمنين ينظرون إليهم، فقال صالح -عليه السلام- : **﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** (الأعراف: ٧٩).

ولقد مرَّ النبي -ﷺ- على ديار ثمود (المعروفة الآن بمدائن صالح) وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة، فأمر أصحابه أن يمروا عليها خاشعين خائفين، كراهة أن يصيبهم ما أصاب أهلها، وأمرهم بعدم دخول القرية الظالمة وعدم الشرب من مائها. [متفق عليه].

****

إبراهيم (عليه السلام)

كان آزر يعيش في أرض بابل بالعراق، يصنع الأصنام ويبيعها للناس ليعبدوها وكان له ولد صغير اسمه (إبراهيم) وهبه الله الحكمة وآتاه الرشد منذ الصغر، وذات يوم دخل إبراهيم على أبيه آزر، فرآه يصنع التماثيل، فتعجب إبراهيم من أمر هذه التماثيل، وقال في نفسه: لماذا يعبدها الناس وهي لا تسمع ولا تنطق، ولا تضر ولا تنفع؟! وكيف تكون آلهة، والناس هم الذين يصنعونها ؟! وصارت هذه الأسئلة تراود الفتى الصغير دون إجابة.

ولما كبر إبراهيم وشبَّ أخذ يفكر في هذا الأمر، ويبحث عن الإله الحق الذي يستحق العبادة، فذهب إلى الصحراء الواسعة، وجلس ينظر إلى السماء، فرأى الكواكب والنجوم، واستنكر أن تكون هي ربه الذي يبحث عنه، لأنها مخلوقة مثله تعبد خالقها، فتظهر بإذنه وتغيب بإذنه، وظل إبراهيم في الصحراء ينظر إلى السماء يفكر ويتدبر عسى أن يهتدي إلى ربه وخالقه، فهداه الله -سبحانه- إلى معرفته، وجعله نبيًّا مرسلاً إلى قومه، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الله رب العالمين.

وأنزل الله -سبحانه- على إبراهيم صحفًا فيها آداب ومواعظ وأحكام لهداية قومه، وتعليمهم أصول دينهم، وتوصيتهم بوجوب طاعة الله، وإخلاص العبادة له وحده، والبعد عن كل ما يتنافى مع مكارم الأخلاق، وعاد إبراهيم إلى بيته، وقلبه مطمئن، ولما دخل البيت وجد أباه، فتقدم منه إبراهيم وأخذ ينصحه ويقول له: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً [٤٢] يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً [٤٣] يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً [٤٤] يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ [مريم:٤٢-٤٥] فردَّ عليه أبوه غاضبًا، وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ (مريم:٤٦).

لكن إبراهيم لم يقابل تلك القسوة بمثلها، بل صبر على جفاء أبيه، وقابله بالبر

والرحمة، وقال له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً[٤٧] وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ (مريم:٤٧-٤٨) وخرج إبراهيم من عند أبيه متوجهًا إلى المعبد، حتى يدعو قومه إلى عبادة الله، ولما دخل عليهم وجدهم عاكفين على أصنام كثيرة، يعبدونها ويتضرعون إليها، ويطلبون منها قضاء حوائجهم، فتقدم منهم إبراهيم، وقال لهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء:٥٢) فرد عليه القوم وقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:٥٣).

فوضح لهم إبراهيم أن عبادة هذه الأصنام ضلال وكفر، وأن الله -سبحانه- الذي خلق السماوات والأرض هو المستحق للعبادة وحده فغضب قومه منه، واستكبروا وأصروا على كفرهم وعنادهم، فلمَّا وجد إبراهيم إصرارهم على عبادة الأصنام، خرج وهو يفكر في نفسه أن يحطم هذه الأصنام، وكان اليوم التالي يوم عيد، فأقام القوم احتفالا كبيرًا خارج المدينة، وذهب إليه جميع الناس، وخرج إبراهيم وحده إلى شوارع المدينة فلم يجد فيها أحدًا، فانتهز هذه الفرصة وأحضر فأسًا، ثم ذهب إلى المعبد الذي فيه الأصنام دون أن يراه أحد، فوجد أصنامًا كثيرة، ورأى أمامها طعامًا كثيرًا وضعه قومه قربانًا لها وتقربًا إليها، لكنها لم تأكل.

فأقبل إليها إبراهيم، وتقدم منها، ثم قال لها مستهزئًا: ألا تأكلون؟! وانتظر قليلا لعلهم يردون عليه، لكن دون جدوى، فعاد يسأل ويقول: ما لكم لا تنطقون؟! ثم أخذ يكسر الأصنام واحدًا تلو الآخر، حتى صارت كلها حطامًا إلا صنمًا كبيرًا تركه إبراهيم ولم يحطمه، وعلق في رقبته الفأس، ثم خرج من المعبد، ولما عاد القوم من الاحتفال مرُّوا على المعبد، ودخلوا فيه ليشكروا الآلهة على عيدهم وفوجئوا بأصنامهم محطمة ما عدا صنمًا واحدًا في رأسه فأس معلق، فتساءل القوم: من فعل هذا بآلهتنا؟ فقال بعض القوم: سمعنا فتى بالأمس اسمه إبراهيم كان يسخر منها، ويتوعدها بالكيد والتحطيم، وأجمعوا أمرهم على أن يحضروا إبراهيم ويسألوه، ويحققوا معه فيما حدث.

وفي لحظات ذهب بعض القوم وأتوا بإبراهيم إلى المعبد، ولما وقف أمامهم سألوه: أأنت

فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟! فرد إبراهيم: بل فعله كبيرهم هذا، ثم أشار بإصبعه إلى الصنم الكبير المعلق في رقبته الفأس، ثم قال: فسألوهم إن كانوا ينطقون، فرد عليه بعض الناس وقالوا له: يا إبراهيم أنت تعلم أن هذه الأصنام لا تنطق ولا تسمع، فكيف تأمرنا بسؤالها؟

فانتهز إبراهيم هذه الفرصة وقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ[٦٦] أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء:٦٦-٦٧) فسكتوا جميعًا ولم يتكلموا، ونكسوا رءوسهم من الخجل والخزي، ومع ذلك أرادوا الانتقام منه، لأنه حطم أصنامهم، وأهان آلهتهم، فقال نفر من الناس: ما جزاء إبراهيم، وما عقابه الذي يستحقه؟ فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:٦٨).

ثم ذهب جنود المعبد بإبراهيم إلى الصحراء، وجمعوا الحطب والخشب من كل مكان، وأشعلوا نارًا عظيمة، وجاءوا بآلة اسمها المنجنيق، ليقذفوا إبراهيم منها في النار، ولما جاء موعد تنفيذ الحكم على إبراهيم، اجتمع الناس من كل مكان ليشهدوا تعذيبه، وتصاعد من النار لهب شديد، فوقف الناس بعيدًا يشاهدون النار، ومع ذلك لم يستطيعوا تحمل حرارته، وجاءوا بإبراهيم مقيدًا بالحبال ووضعوه في المنجنيق، ثم قذفوه في النار، فوقع في وسطها، فقال إبراهيم: حسبي اللَّه ونعم الوكيل.

فأمر الله النار ألا تحرق إبراهيم ولا تؤذيه، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩) فأصبحت النار بردًا وسلامًا عليه، ولم تحرق منه شيئًا سوي القيود التي قيدوه بها، وظلت النار مشتعلة عدة أيام، وبعد أن انطفأت خرج منها إبراهيم سالمًا، لم تؤذه، وتحدث الناس عن تلك المعجزة وعن نجاة إبراهيم من النار، وأراد النمرود ملك البلاد أن يناقش إبراهيم في أمر دعوته، فلما حضر إبراهيم أمام الملك سأله: من ربك؟ فقال إبراهيم مجيبًا: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨) فقال الملك: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨) وأمر الملك الجنود أن يحضروا رجلين من المسجونين، ثم أمر بقتل رجل وترك الآخر، ثم نظر إلى إبراهيم وقال له: ها أنا ذا أحي وأميت، قتلت رجلا، وتركت آخر!!

فلم يرد إبراهيم على غباء هذا الرجل، ولم يستمر في جداله في هذا الأمر، بل سأله

سؤالاً آخر أعجزه ولم يستطع معه جدالاً، قال له إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ (البقرة:٢٥٨) فبهت النمرود، وسكت عن الكلام اعترافًا بعجزه، وقرر إبراهيم الهجرة من هذه المدينة لأنه لم يؤمن به سوى زوجته سارة وابن أخيه لوط -عليه السلام- وهاجر إبراهيم ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط، وأخذ ينتقل من مكان إلى مكان آخر، حتى استقر به الحال في فلسطين، فظل بها فترة يعبد الله ويدعو الناس إلى عبادة الله، وإلى طريقه المستقيم.

ومرت السنون، ونزل قحط بالبلاد، فاضطر إبراهيم إلى الهجرة بمن معه إلى مصر، وكان يحكم مصر آنذاك ملك جبار يحب النساء، وكان له أعوان يساعدونه على ذلك، فيقفون على أطراف البلاد، ليخبروه بالجميلات اللاتي يأتين إلى مصر، فلما رأوا سارة، وكانت بارعة الجمال، أبلغوا عنها الملك وأخبروه أن معها رجلاً، فأصدر الملك أوامره بإحضار الرجل، وفي لحظات جاء الجنود بإبراهيم إلى الملك، ولما رآه سأله عن المرأة التي معه، فقال إبراهيم: إنها أختي. فقال الملك: ائتني بها.

فذهب إبراهيم إلى سارة، وأبلغها بما حدث بينه وبين الملك، وبما ذكره له بأنها أخته، فذهبت سارة إلى القصر، ولما رآها الملك انبهر من جمالها، وقام إليها، فقالت له: أريد أن أتوضأ وأصلي، فأذن لها، فتوضأت سارة وصلَّت، ثم قالت: (اللهمَ إن كنت تعلم أني آمنتُ بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط على هذا الكافر) [أحمد] فاستجاب الله لها، وعصمها وحفظها، فكلما أراد الملك أن يمسك بها قبضت يده، فسألها أن تدعو الله أن تُبسَط يده، ولن يمسها بسوء، وتكرر هذا الأمر ثلاث مرات.

فلما علم أنه لن يقدر عليها نادى بعض خدمه، وقال لهم: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، ثم أمر الخدم أن يعطوها هاجر، لتكون خادمة لها.

فعادت سارة إلى زوجها دون أن يمسها الملك، فوجدته قائمًا يصلي فلما انتهى نظر إليها، وسألها عما حدث؟ فقالت: إن الله ردَّ كيده عني وأعطاني جارية تسمى هاجر لتخدمني، وبعد فترة رجع إبراهيم إلى فلسطين مرة أخرى وأثناء الطريق استأذنه ابن أخيه

لوط في الذهاب إلى قرية سدوم ليدعو أهلها إلى عبادة الله، فأعطاه إبراهيم بعض الأنعام والأموال، وواصل هو وأهله السير إلى فلسطين، حتى وصلوا إليها واستقروا بها، وظل إبراهيم -عليه السلام- في فلسطين فترة طويلة.

وأحب الله إبراهيم -عليه السلام- واتخذه خليلاً من بين خلقه، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء:١٢٥) وذات يوم، أراد إبراهيم أن يرى كيف يحيي الله الموتى، فخرج إلى الصحراء يناجي ربه، ويطلب منه أن يريه ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٠).

ففعل إبراهيم ما أمره ربه، وذبح أربعة من الطيور ووضع أجزاءها على الجبال، ثم عاد إلى مكانه مرة أخرى، ووقف متجهًا ناحية الجبال، ثم نادى عليهن، فإذا بالحياة تعود لهذه الطيور، وتجيء إلى إبراهيم بإذن ربها، وكانت سارة زوجة إبراهيم عقيمًا لا تلد، وكانت تعلم رغبة إبراهيم وتشوقه لذرية طيبة، فوهبت له خادمتها هاجر ليتزوجها، لعل الله أن يرزقه منها ذرية صالحة، فتزوج إبراهيم هاجر، فأنجبت له إسماعيل فسعد به إبراهيم سعادة كبيرة لأنه جاء له بعد شوق شديد وانتظار طويل.

وأمر الله -عز وجل- إبراهيم أن يأخذ زوجته هاجر وولدها إسماعيل ويهاجر بهما إلى مكة، فأخذهما إبراهيم إلى هناك، وتوجه إلى الله داعيًا ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧) ثم تركهما إبراهيم، وعاد إلى زوجته سارة، وذات يوم جاءت إليه ملائكة الله في صورة بشر، فقام إبراهيم سريعًا فذبح لهم عجلاً سمينًا، وشواه ثم وضعه أمامهم ليأكلوا فوجدهم لا يأكلون، لأن الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وهنا أخبرت الملائكة إبراهيم بأنهم ليسوا بشرًا، وإنما هم ملائكة جاءوا ليوقعوا العذاب على قرية سدوم، لأنهم لم يتبعوا نبيهم لوطًا، وبشرت الملائكة إبراهيم

بولده إسحاق من سارة، وكانت عجوزًا، فتعجبت حينما سمعت الخبر، فهي امرأة عجوز عقيم وزوجها رجل شيخ كبير، فأخبرتها الملائكة أن هذا هو أمر الله، فقالت الملائكة: ﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود:٧٣).

وذات مرة رأى إبراهيم -عليه السلام- أنه يذبح ابنه في المنام، فأخبر ابنه إسماعيل بذلك، وكان هذا امتحان من الله لإبراهيم وإسماعيل، فاستجاب إسماعيل لرؤيا أبيه طاعة لله، واستعد كل منهما لتنفيذ أمر الله، ووضع إبراهيم ابنه إسماعيل على وجهه، وأمسك بالسكين ليذبحه، فكان الفرج من الله، فقد نزل جبريل -عليه السلام- بكبش فداء لإسماعيل، فكانت سنة الذبح والنحر في العيد، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ١٠٧) وكان نبي الله إبراهيم يسافر إلى مكة من حين لآخر ليطمئن على هاجر وابنها إسماعيل.

وفي إحدى الزيارات، طلب إبراهيم من ابنه أن يساعده في رفع قواعد البيت الحرام الذي أمره ربه ببنائه، فوافق إسماعيل، وأخذا ينقلان الحجارة اللازمة لذلك حتى انتهيا من البناء، وعندها أخذا يدعوان ربهما أن يتقبل منهما فقالا: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١٢٧] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٢٧-١٢٨) فاستجاب الله لإبراهيم وإسماعيل، وبارك في الكعبة، وجعلها قبلة للمسلمين جميعًا في كل زمان ومكان.

قد كان لإبراهيم -عليه السلام- رسالة ودين قويم وشريعة سمحة، أمرنا الله بإتباعها، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٥٩) أي اتبعوا الدين الحنيف القويم الثابت الذي لا يتغير، ومرض إبراهيم -عليه السلام- ثم مات، بعد أن أدى رسالة الله وبلغ ما عليه، وفي رحلة الإسراء والمعراج قابل النبي -ﷺ- خليل الله إبراهيم -عليه السلام- في السماء السابعة بجوار البيت المعمور الذي يدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة يتعبدون فيه، ويطوفون، ثم يخرجون ولا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

وذلك كما ذكر في حديث المعراج الذي يقول فيه النبي -ﷺ- (... ثم صعد بي جبريل إلى السماء السابعة، فاستفتح جبرائيل، قيل: من هذا؟ قال: جبرائيل: قيل: ومن معك؟ قال محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلم عليه، فسلمتُ عليه فرد السلام، ثم قال مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح ...) [البخاري].

وقد سئل رسول الله -ﷺ- عن خير البرية، فقال: (ذاك إبراهيم) [أحمد].. وهو أول من يكْسى يوم القيامة، قال النبي -ﷺ- : (... وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم) [متفق عليه]..

فالناس يحشرون يوم القيامة عراة، فيكسى إبراهيم عليه السلام تكريمًا له ثم الأنبياء، ثم الخلائق، وقد مدح الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم وأثنى عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [١٢٠] شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [١٢١] وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [١٢٢] ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٠-١٢٣).

وقد فضل الله إبراهيم -عليه السلام- في الدنيا والآخرة، فجعل النبوة فيه وفي ذريته إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت:٢٧).

وإبراهيم -عليه السلام- من أولي العزم من الرسل، ووصى الله نبيه محمدًا -ﷺ- أن يسير على ملته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:١٦١) وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٣) ومدح الله إبراهيم بالوفاء والقيام بما عهد إليه، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم:٣٧) ولأنه أفضل الأنبياء والرسل بعد محمد -ﷺ- أمرنا الرسول -ﷺ- أن نصلي عليه في صلاتنا في التشهد أثناء الصلاة.

***

لوط عليه السلام

هاجر لوط مع عمه إبراهيم -عليه السلام- إلى مصر، ومكثا فيها مدة من الزمن ثم عادا إلى فلسطين، وفي الطريق، استأذن لوط عمه إبراهيم، ليذهب إلى أرض سدوم (بجوار البحر الميت في بلاد الأردن الآن) حيث اختار الله لوطًا ليكون نبيًا إلى أهل هذه الأرض، فأذن له إبراهيم وذهب لوط إلى سدوم وتزوج هناك.

وكانت أخلاق أهل تلك البلدة سيئة، فكانوا لا يتعففون عن فعل المعصية، ولا يستحيون من المنكر، ويخونون الرفيق، ويقطعون الطريق، وفوق هذا كانوا يفعلون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين؛ فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وأخذ لوط -عليه السلام- يدعو أهل سدوم إلى الإيمان وترك الفاحشة، فقال لهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ [١٦١] إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [١٦٢] فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ [١٦٣] وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ [١٦٤] أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ [١٦٥] وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء: ١٦١-١٦٦).

لكن قوم لوط لم يستجيبوا له، وتكبروا عليه، وسخروا منه، فلم ييأس لوط وظل صابرًا على قومه يدعوهم في حكمة وأدب إلى عبادة الله وحده، وينهاهم ويحذرهم أشد التحذير من إتيان المحرمات وفعل الفواحش والمنكرات، ومع هذا لم يؤمن به أحد واستمر الناس في ضلالهم وطغيانهم وفجورهم، وقالوا له بقلوب قاسية: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (العنكبوت:٢٩) وهددوه بطرده من القرية لأنه كان غريبًا في قومه، فغضب لوط من قومه وابتعد عنهم هو ومن آمن به من أهل بيته إلا زوجته، فقد كفرت وانحازت إلى قومها وشاركتهم في مضايقته والاستهزاء به، وضرب الله بها مثلاً في الكفر، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم:١٠) وخيانة امرأة لوط هي كفرها وعدم إيمانها بالله.

وأرسل الله ثلاثة من الملائكة على صورة ثلاثة رجال هيئتهم حسنة، فمروا على إبراهيم ، فظن إبراهيم أنهم بشر فقام على الفور وذبح لهم عجلاً سمينًا لكنهم لم يأكلوا منه، وبشرت الملائكة إبراهيم بأن الله -سبحانه- سوف يرزقه بولد من زوجته سارة هو إسحاق، ثم أخبرته الملائكة أنهم ذاهبون إلى قرية سدوم لتعذيب أهلها وعقابهم على كفرهم ومعاصيهم، فأخبرهم إبراهيم بوجود لوط في هذه القرية، فطمأنته الملائكة بأن الله سينجيه وأهله إلا زوجته لأنها كفرت بالله.

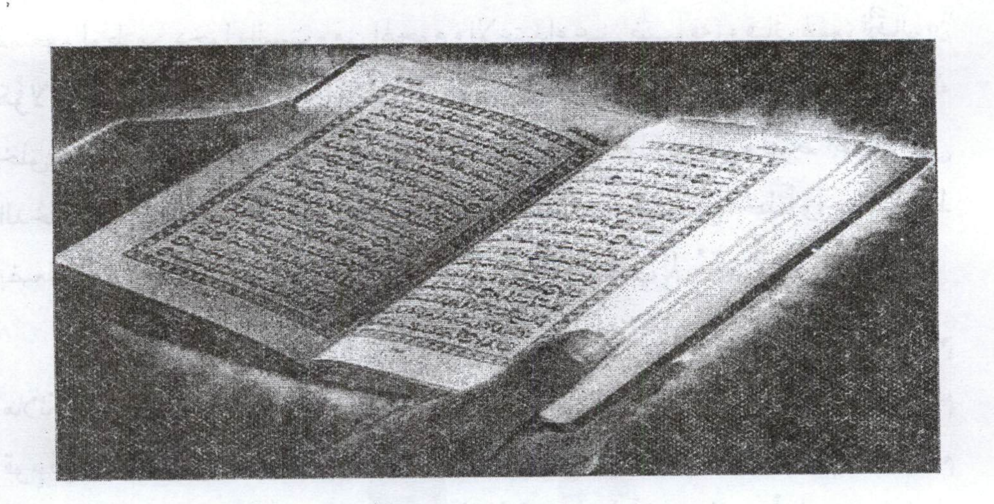
وخرجت الملائكة من عند إبراهيم وتوجهوا إلى قرية سدوم، فوصلوا إلى بيت لوط وكانوا في صورة شبان حسان، فلما رآهم لوط خاف عليهم، ولم يعلم أحد بقدومهم إلا آل لوط، فخرجت امرأته وأخبرت قومها وقالت: إن في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاء القوم يسرعون إلى بيت لوط يبغون الفاحشة مع هؤلاء الضيوف، واجتمع قوم لوط وازدحموا عند باب بيته وهم ينادون بصوت عالٍ يطلبوا من لوط أن يخرج لهم هؤلاء الضيوف، وكل منهم يمني نفسه بالمتعة والشهوة الحرام مع هؤلاء الرجال، فمنعهم لوط من دخول البيت ومن الهجوم والاعتداء على ضيوفه، وقال لهم: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلاء ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ [٦٨] وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ﴾ (الحجر:٦٨-٦٩) وأخذ يذكرهم بأن الله خلق النساء لقضاء شهوة الرجال فهن أزكى لهم وأطيب، ولكن قوم لوط أصروا على الدخول، ولم يجد لوط من بينهم رجلاً عاقلاً يبين لهم ما هم فيه من الخطأ وأحس لوط بضعفه أمام هؤلاء القوم، فقال: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود:٨٠).

وعندئذ كشف الضيوف عن حقيقتهم، وأخبروا لوطًا بأنهم ليسوا بشرًا وإنما هم ملائكة من السماء جاءوا لتعذيب هؤلاء القوم الفاسقين، وما هي إلا لحظات حتى اقتحم قوم لوط البيت على الملائكة فأشار أحد الملائكة، بيده ناحيتهم ففقد القوم أبصارهم وراحوا يتخبطون بين الجدران، ثم طلبت الملائكة من لوط أن يرحل مع أهله عندما يقبل الليل لأن العذاب سينزل على قومه في الصباح، ونصحوه ألا يلتفت هو ولا أحد من أهله خلفهم عندما ينزل العذاب حتى لا يصيبهم.

وفي الليل خرج لوط وابنتاه وتركوا القرية، وما إن غادروها حتى انشق الصباح فأرسل الله العذاب الشديد على قرية سدوم، فاهتزت القرية هزة عنيفة وتزلزلت الأرض، واقتلع مَلَكٌ بطرف جناحه القرية بما فيها وارتفع بها حتى سمع أهل السماء نباح كلابها ثم انقلبت القرية رأسًا على عقب، وجعل الله عاليها سافلها وأمطر عليهم من السماء حجارة ملتهبة تحرقهم، وأحاط بهم دخان خانق يشوي وجوههم وأجسامهم.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ[٨٢] مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود:٨٢-٨٣) ونجَّى الله لوطا وابنتيه برحمة منه سبحانه، لأنهم حفظوا العهد، وشكروا النعمة وعبدوا الله الواحد الأحد وكانوا خير مثال للعفة والطهارة، وأصبحت قرية سدوم عبرة وعظة لكل الأجيال القادمة، قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (الذاريات:٣٧).





إسماعيل عليه السلام

كان إبراهيم -عليه السلام- يحب أن تكون له ذرية صالحة تعبد الله -عز وجل- وتساعده في السعي على مصالحه، فعلمت السيدة سارة ما يريده زوجها، وكانت عاقرًا لا تلد فوهبت له خادمتها هاجر ليتزوجها؛ لعلها تنجب له الولد، فلما تزوجها إبراهيم -عليه السلام- حملت منه، وأنجبت له إسماعيل، وبعد مرور فترة من ولادة إسماعيل أمر الله -عز وجل- إبراهيم أن يذهب بزوجته هاجر وولده إلى مكة، فاستجاب إبراهيم لأمر ربه، وسار بهما حتى وصلوا إلى جبال مكة عند موضع بناء الكعبة، وظل معهما فترة قصيرة، ثم تركهما في هذا المكان وأراد العودة إلى الشام، فلما رأته زوجته هاجر عائدًا أسرعت خلفه، وتعلقت بثيابه، وقالت له: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فلم يرد عليها إبراهيم -عليه السلام- وظل صامتًا، فألحت عليه زوجته هاجر، وأخذت تكرر السؤال نفسه، لكن دون فائدة، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ فقال إبراهيم: نعم، فقالت هاجر: إذن لن يضيعنا، ثم رجعت.

وسار إبراهيم -عليه السلام- وترك زوجته وولده، وليس معهما من الطعام والماء إلا القليل، ولما ابتعد عنها إبراهيم، رفع يده داعيًا ربه فقال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧) ثم واصل السير إلى الشام، وظلت هاجر وحدها، ترضع ابنها إسماعيل، وتشرب من الماء الذي تركه لها إبراهيم حتى نفد ما في السقاء، فعطشت، وعطش ابنها فتركته وانطلقت تبحث عن الماء، بعدما بكى الطفل بشدة، وأخذ يتلوى، ويتمرغ أمامها من شدة العطش.

وأخذت هاجر تمشي حتى وصلت إلى جبل الصفا، فصعدت إليه ثم نظرت إلى الوادي يمينًا ويسارًا؛ لعلها ترى بئرًا أو قافلة مارة من الطريق فتسألهم الطعام أو الماء، فلم تجد شيئًا، فهبطت من الصفا، وسارت في اتجاه جبل المروة فصعدته وأخذت تنظر بعيدًا

لترى مُنقِذًا ينقذها هي وابنها مما هما فيه، إلا أنها لم تجد شيئًا كذلك، فنزلت من جبل المروة صاعدة جبل الصفا مرة أخرى لعلها تجد النجاة وظلت هكذا تنتقل من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا سبع مرات.

وقد أصبح هذا السعي شعيرة من شعائر الحج، وذلك تخليدًا لهذه الذكرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:١٥٨) وبعد أن تعبت هاجر، وأحست بالإجهاد والمشقة، عادت إلى ابنها دون أن يكون معها قطرة واحدة من الماء، وهنا أدركتها رحمة الله –سبحانه– فنزل الملك جبريل –عليه السلام– وضرب الأرض، فتفجرت وتدفقت منها بئر زمزم وتفجر منها ماء عذب غزير، فراحت هاجر تغرف بيدها وتشرب وتسقى ابنها، وتملأ سقاءها، وشكرت الله –عز وجل– على نعمته، وعلى بئر زمزم التي فجرها لها.

ومرت أيام قليلة، وجاءت قافلة من قبيلة جرهم –وهي قبيلة عربية يمنية– فرأت طيرًا يحوم فوق مكان هاجر وابنها، فعلموا أن في ذلك المكان ماء، فأقبلوا نحو المكان الذي يطير فوقه الطير، فوجدوا بئر زمزم فتعجبوا من وجودها في هذه المكان، ووجدوا أم إسماعيل تجلس بجواره، فذهبوا إليها، وعرفوا قصتها فاستأذنوها في الإقامة بجوار هذه البئر، فأذنت لهم، وعاشت معهم هي وابنها وتعلم منهم إسماعيل اللغة العربية، وأخذت هاجر تربي ابنها إسماعيل تربية حسنة وتغرس فيه الخصال الطيبة والفضائل الحميدة، حتى كبر قليلاً، وصار يسعى في مصالحه لمساعدة أمه.

وكان إبراهيم –عليه السلام– يزور هاجر وولده إسماعيل من حين لآخر لكي يطمئن عليهما، وذات يوم رأى إبراهيم في منامه أنه يذبح ابنه إسماعيل الذي جاء بعد شوق طويل، فلما قام من نومه، علم أن ما رآه ما هو إلا أمر من الله؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، فذهب إبراهيم إلى ابنه، وقال له: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ (الصافات:١٠٢) فقال إسماعيل: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات:١٠٢).

وأخذ إبراهيم ابنه إسماعيل وذهب به إلى مِنَى ثم ألقاه على وجهه كي لا يرى وجهه عند الذبح، فيتأثر بعاطفة الأبوة، واستسلم إسماعيل لأمر الله ووضع إبراهيم السكين على رقبة ابنه إسماعيل ليذبحه، وقبل أن يمر السكين سمع إبراهيم نداء الله تعالى يقول له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ[١٠٤] قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ[١٠٥] إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ﴾ (الصافات:١٠٤-١٠٦) وبعد لحظات من النداء الإلهي رأى إبراهيم الملك جبريل -عليه السلام- ومعه كبش عظيم، فأخذه إبراهيم وذبحه بدلاً من ابنه إسماعيل.

لقد أراد الله -عز وجل- أن يختبر إبراهيم في التضحية بابنه إسماعيل، فلما وجده قد امتثل لأمره دون كسل واعتراض كشف الله هذا البلاء، وفدى إسماعيل بكبش عظيم، وقد أصبح يوم فداء إسماعيل وإنقاذه من الذبح عيدًا للمسلمين يسمي بعيد الأضحى، يذبح فيه المسلمون الذبائح تقربًا إلى الله وتخليدًا لهذه الذكري الطيبة، وعاد إبراهيم بولده إلى البيت، ففرحت الأم بنجاة ولدها فرحًا شديدًا، وكبر إسماعيل حتى أصبح شابًا قويًا، وتزوج امرأة من إحدى القبائل التي استقرت حول بئر زمزم.

وذات يوم زار إبراهيم -عليه السلام- ابنه إسماعيل، فلم يجده في بيته، ووجد زوجته وكانت لا تعرفه، فسألها إبراهيم عن زوجها إسماعيل، فقالت: خرج يبتغي لنا رزقًا، فسألها عن عيشهم، فقالت: إننا نعيش في ضيق وشدة، فقال إبراهيم: إذا جاء زوجك مريه أن يغير عتبة بابه، فلما عاد إسماعيل سأل زوجته: هل زارنا أحد اليوم؟ قالت له: نعم، زارنا شيخ صفته كذا وكذا، فقال إسماعيل: هل قال لك شيئًا؟قالت: سألني عنك وعن حالتنا وعيشتنا، فقال لها: وماذا قلت له؟ قالت: قلت له: إننا نعيش في ضيق وشدة، فقال إسماعيل: وهل أوصاك بشيء؟ قالت: قال لي: قولي لزوجك عندما يعود أن يغير عتبة بابه، فقال إسماعيل: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، فألحقي بأهلك فطلقها إسماعيل، وتزوج بغيرها.

ومرت فترة من الزمن، ثم عاد إبراهيم لزيارة ابنه إسماعيل، ولم يجده أيضًا، ووجد زوجته، وكانت هي أيضا لا تعرفه، فسألها أين زوجك إسماعيل؟ قالت له: خرج يبتغي لنا

رزقًا، فقال إبراهيم: وكيف أنتم؟ قالت: نحن بخير وسعة، ففرح إبراهيم بهذه الزوجة، واطمأن لحالها، فقال لها: إذا جاء زوجك فاقرئي له مني السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل أخبرته زوجته بما حدث، وأثنت على إبراهيم، فقال إسماعيل: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك. [البخاري].

وعاد إبراهيم إلى فلسطين، وظل بها مدة طويلة يعبد الله -عز وجل- ثم ذهب لزيارة إسماعيل، فوجده يبري نبلاً له قرب بئر زمزم، فلما رآه إسماعيل قام إليه واحتضنه واستقبله أحسن استقبال، ثم قال إبراهيم لابنه: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ. فقال إسماعيل: اصنع ما أمرك به ربك، فقال إبراهيم: وتعينني عليه؟ قال إسماعيل: وأعينك عليه، فقال إبراهيم: إن الله أمرني أن أبني هنا بيتًا، كي يعبده الناس فيه، فوافق إسماعيل أباه، وبدأ ينقل معه الحجارة اللازمة لبناء هذا البيت، وكان إبراهيم يبني، وإسماعيل يعينه، حتى إذا ما ارتفع البناء واكتمل جاء جبريل بحجر من الجنة، وأعطاه لإبراهيم، ليضعه في الكعبة، وهو ما يسمى بالحجر الأسود.

وبعد أن انتهى إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- من بناء الكعبة وقفا يدعوان ربهما: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ[١٢٧] رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٢٧-١٢٨) وقد أثنى الله على نبيه إسماعيل -عليه السلام- ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، وأنه كان يأمر أهله بأدائها، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً[٥٤] وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً﴾ (مريم:٥٤-٥٥).

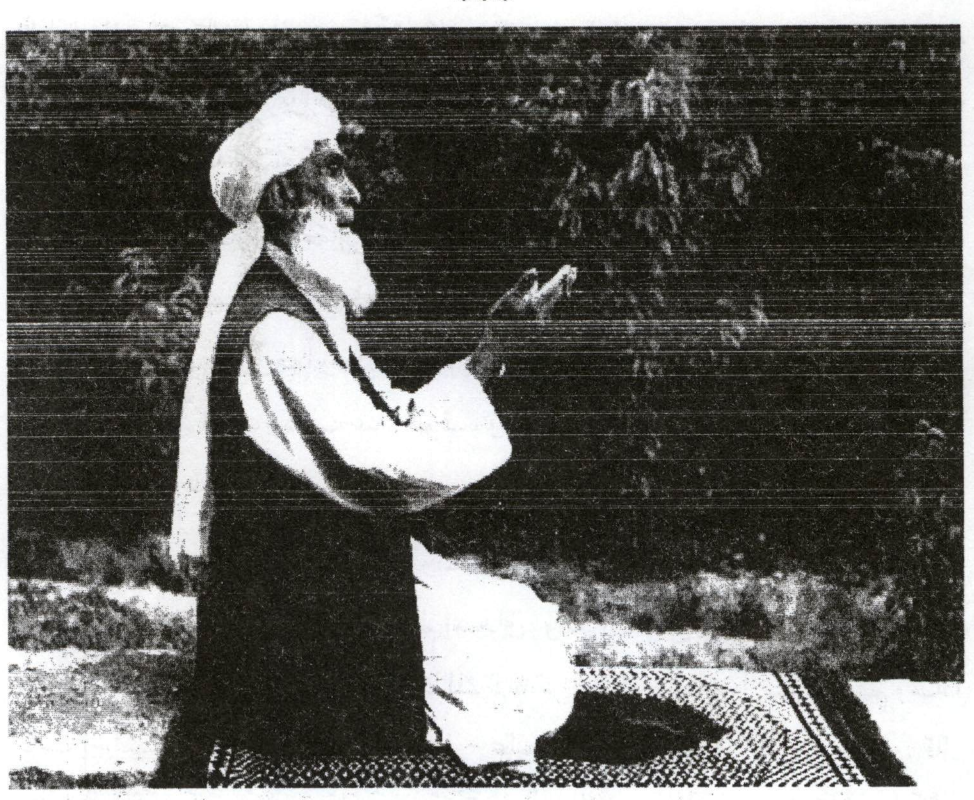
وكان إسماعيل رسولاً إلى القبائل التي سكنت واستقرت حول بئر زمزم، وأوحى الله إليه، قال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦) وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ

وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ﴾ (النساء:١٦٣)

وكان إسماعيل -عليه السلام- أول من رمى بسهم، فقد كان النبي -ﷺ- يشجع الشباب على الرمي بقوله: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميًا) [البخاري].

وإسماعيل -عليه السلام- هو جد النبي -ﷺ- وأبو العرب، قال ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) [مسلم].





إسحاق عليه السلام

بعد أن رزق الله إبراهيم -عليه السلام- بإسماعيل من زوجته هاجر، كان إبراهيم يدعو الله أن يرزقه بولد من زوجته سارة التي تحملت معه كل ألوان العذاب في سبيل الله، فاستجاب الله له، وأرسل إليه بعض الملائكة على هيئة رجال، ليبشروه بولد له من زوجته سارة، وأخبروه بذهابهم إلى قوم لوط للانتقام منهم، ولما جاءت الملائكة إلى إبراهيم استقبلهم أحسن استقبال، وأجلسهم في المكان المخصص للضيافة، ثم أسرع لإعداد الطعام لهم، فقد كان إبراهيم رجلاً كريمًا جوادًا، وفي لحظات جاء بعجل سمين، وقربه إليهم، فلم يأكلوا أو يشربوا أي شيء، فخاف إبراهيم -عليه السلام- منهم، وظهر الخوف على وجهه، فطمأنته الملائكة، وأخبروه أنهم ملائكة، وبشروه بغلام عليم.

كل هذا، وسارة زوجة إبراهيم تتابع الموقف، وتسمع كلامهم، وذلك من خلف الجدار، فأقبلت إليهم، وهي في ذهول مما تسمعه، وتعجبت من بشارتهم، فكيف تلد وهي امرأة عجوز عقيم، وزوجها رجل كبير، فأخبرتها الملائكة بأن هذا أمر الله القادر على كل شيء، فاطمأن إبراهيم، وذهب عنه الخوف، وسكنت في قلبه البشرى التي حملتها الملائكة له؛ فخر ساجدًا لله شاكر له.

وبعد فترة، ظهر الحدث المنتظر والمعجزة الإلهية أمام عين إبراهيم وزوجته؛ حيث ولدت سارة غلامًا جميلاً، فسماه إبراهيم إسحاق، والقرآن الكريم لم يقص علينا من قصة إسحاق -عليه السلام- إلا بشارته، وكذلك لم يذكر لنا القوم الذي أرسل إليهم وماذا كانت إجابتهم له، وقد أثنى الله -عز وجل- عليه في كتابه الكريم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ[٤٥] إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ[٤٦] وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص:٤٥-٤٧).

كما أثنى رسول الله -ﷺ- على إسحاق، فقال: (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن

الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام) [البخاري] .

ورزق الله إسحاق ولدًا اسمه يعقوب، ومرض إسحاق ثم مات بعد أن أدَّى الأمانة التي تحملها.

***



يعقوب عليه السلام

نبي من أنبياء الله -عز وجل-، اصطفاه الله، فهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم -عليهم السلام-، بشرت الملائكة به إبراهيم -عليه السلام- زوجته سارة، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ (هود:٧١).

ولد يعقوب -عليه السلام- محاطًا بعناية الله ورحمته، سائرًا على منهج آبائه، وكان ليعقوب اثنا عشر ولدًا سمّاهم القرآن الكريم بالأسباط، وكان أجلهم قدرًا، وأنقاهم قلبًا، وأسلمهم صدرًا، وأزكاهم نفسًا، وأصغرهم سنًا، يوسف -عليه السلام-، لذا كان يعقوب -عليه السلام- يحوطه بمزيد من العناية والحنان وهذا شيء طبيعي، فالأب يحنو على الصغير حتى يكبر، وعلى المريض حتى يبرأ.

وكان يعقوب -عليه السلام- مثالاً يحتذى للأب الذي يقوم بتربية أولاده على الفضيلة، فيقوم بأمرهم، ويسدي لهم النصح، ويحل مشاكلهم، إلا أن الشيطان زين للأبناء قتل أخيهم يوسف لما رأوا من حب أبيهم له، لكنهم بعد ذلك رجعوا عن رأيهم من القتل إلى الإلقاء في بئر بعيدة، لتأخذه إحدى القوافل المارة، وحزن يعقوب على فراق يوسف حزنًا شديدًا، وأصابه العمى من شدة الحزن، ثم ردَّ الله إليه بصره، وجمع بينه وبين ولده.

وبعد فترة من الزمن مرض يعقوب -عليه السلام- مرض الموت، فجمع أبناءه وأخذ يوصيهم بالتمسك بالإيمان بالله الواحد وبعمل الصالحات، قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣).

***

يوسف عليه السلام

في ليلة من الليالي رأى يوسف -عليه السلام- وهو نائم رؤيا عجيبة، فقد رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر يسجدون له فلما استيقظ، ذهب إلى أبيه يعقوب -عليه السلام- في هذه الرؤيا. فعرف أن ابنه سيكون له شأن عظيم، فحذره من أن يخبر إخوته برؤياه، فيفسد الشيطان قلوبهم، ويجعلهم يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، فلم يقص رؤيته على أحد.

وكان يعقوب يحب يوسف حبًّا كبيرًا، ويعطف عليه ويداعبه، مما جعل إخوته يحسدونه، ويحقدون عليه، فاجتمعوا جميعا ليدبروا له مؤامرة تبعده عن أبيه.

فاقترح أحدهم أن يقتلوا يوسف أو يلقوه في أرض بعيدة، فيخلو لهم أبوهم، وبعد ذلك يتوبون إلى الله، ولكن واحدًا آخر منهم رفض قتل يوسف، واقترح عليهم أن يلقوه في بئر بعيدة، فيعثر عليه بعض السائرين في الطريق، ويأخذونه ويبيعونه.

ولقيت هذه الفكرة استحسانًا وقبولاً، واستقر رأيهم على نفيه وإبعاده، وأخذوا يتشاورون في تدبير الحيلة التي يمكن من خلالها أخذ يوسف وتنفيذ ما اتفقوا عليه، ففكروا قليلا، ثم ذهبوا إلى أبيهم وقالوا له: **﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾** (يوسف: ١١).

فأجابهم يعقوب -عليه السلام- أنه لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، وقال لهم: **﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾** (يوسف: ١٣) فقالوا: **﴿لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾** (يوسف:١٤) وفي الصباح، خرج الأبناء جميعًا ومعهم يوسف -عليه السلام- إلى الصحراء، ليرعوا أغنامهم، وما إن ابتعدوا به عن أبيهم حتى تهيأت لهم الفرصة لتنفيذ اتفاقهم، فساروا حتى وصلوا إلى البئر، وخلعوا ملابسه ثم ألقوه فيها، وشعر يوسف بالخوف، والفزع، لكن الله كان معه، حيث أوحى إليه ألا تخاف ولا تجزع فإنك ناج مما دبروا لك.

وبعد أن نفذ إخوة يوسف مؤامرتهم، جلسوا يفكرون فيما سيقولون لأبيهم عندما

يسألهم، فاتفقوا على أن يقولوا لأبيهم إن الذئب قد أكله، واخلعوا يوسف قميصه، وذبحوا شاة، ولطخوا بدمها قميص يوسف.

وفي الليل، عادوا إلى أبيهم، ولما دخلوا عليه بكوا بشدة، فنظر يعقوب إليهم ولم يجد فيهم يوسف معهم، لكنهم أخبروه أنهم ذهبوا ليتسابقوا، وتركوا يوسف ليحرس متاعهم، فجاء الذئب وأكله، ثم أخرجوا قميصه ملطخًا بالدماء، ليكون دليلا لهم على صدقهم.

فرأى يعقوب -عليه السلام- القميص سليمًا، حيث نسوا أن يمزقوه، فقال لهم: عجبًا لهذا الذئب كان رحيمًا بيوسف أكله دون أن يقطع ملابسه. ثم قال لهم مبينًا كذبهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨).

أما يوسف فكان لا يزال حبيسًا في البئر ينتظر الفرج والنجاة، وبينما هو كذلك، مرت عليه قافلة متجهة إلى مصر، فأرادوا أن يتزودوا من الماء، فأرسلوا أحدهم إلى البئر ليأتيهم بالماء، فلما ألقى دلوه تعلق به يوسف، فنظر في البئر فوجد غلامًا جميلاً يمسك به، ففرح الرجل ونادى رجال القافلة، فأخرجوا يوسف، وأخذوه معهم إلى مصر ليبيعوه.

وكان عزيز مصر في هذا اليوم يتجول في السوق، ليشتري غلامًا له؛ لأنه لم يكن له أولاد، فوجد هؤلاء الناس يعرضون يوسف للبيع، فذهب إليهم، واشتراه منهم بعدة دراهم قليلة.

ورجع عزيز مصر إلى زوجته، وهو سعيد بالطفل الذي اشتراه، وطلب من زوجته أن تكرم هذا الغلام، وتحسن معاملته، فربما نفعهما أو اتخذاه ولدًا لهما، وهكذا مكن الله ليوسف في الأرض فأصبح محاطًا بعطف العزيز ورعايته.

ومرت السنون، وكبر يوسف، وأصبح شابًا قويًا، رائع الحسن، وكانت امرأة العزيز تراقب يوسف يومًا بعد يوم، وازداد إعجابها به لحظة بعد أخرى، فبدأت تظهر له هذا الحب بطريق الإشارة والتعريض، لكن يوسف -عليه السلام- كان يعرض عنها، ويتغافل عن أفعالها، فأخذت المرأة تفكر كيف تغري يوسف بها.

وذات يوم، انتهزت فرصة غياب زوجها عن القصر، فتعطرت وتزينت، ولبست أحسن الثياب، وغلقت الأبواب ودعت يوسف حتى أدخلته حجرتها، وطلبت منه أن يفعل معها الفاحشة.

لكن يوسف بعفته وطهارته امتنع عما أرادت، ورد عليها ردًا بليغًا حيث قال: ﴿مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (يوسف:٢٣).

ثم أسرع يوسف -عليه السلام- ناحية الباب يريد الخروج من المكان، لكن امرأة العزيز لم تدع الفرصة تفوتها، فجرت خلفه، لتمنعه من الخروج، وأمسكت بقميصه فتمزق.

وفجأة، حضر زوجها العزيز، وتأزم الموقف، وزاد الحرج، لكن امرأة العزيز تخلصت من حرج موقفها أمام زوجها، فاتهمت يوسف بالخيانة ومحاولة الاعتداء عليها، وقالت لزوجها: ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف:٢٥).

وأمام هذا الاتهام، كان على يوسف أن يدافع عن نفسه، فقال: ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ (يوسف: ٢٦).

فاحتكم الزوج إلى رجل من أهل المرأة، فقال الرجل من غير تردد انظروا: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ [٢٦] وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾ (يوسف: ٢٦-٢٧).

فالتفت الزوج إلى امرأته، وقال لها: ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٨)، ثم طلب العزيز من يوسف أن يهمل هذا الموضوع، ولا يتحدث به أمام أحد، ثم طلب من زوجته أن تستغفر من ذنبها وخطيئتها.

واتفق الجميع على أن يظل هذا الفعل سرًّا لا يعرفه أحد، ومع ذلك فقد شاع خبر مراودة امرأة العزيز ليوسف، وطلبها للفاحشة، وانتشر في القصر وتحدث نساء المدينة بما فعلته امرأة العزيز مع فتاها، وعلمت امرأة العزيز بما قالته النسوة عنها، فغضبت غضبًا

شديدًا، وأرادت أن تظهر لهن عذرها، وأن جمال يوسف وحسن صورته هما اللذان جعلاها تفعل ذلك، فأرسلت إليهن، وهيأت لهن مقاعد مريحة، وأعطت كل واحدة منهن سكينا، ثم قالت ليوسف: اخرج عليهن.

فخرج يوسف متمثلاً لأمر سيدته، فلما رآه النسوة انبهرن بجماله وحسنه، وقطعن أيديهن دون أن يشعرن بذلك، وظن جميع النسوة أن الغلام ما هو إلا ملك، ولا يمكن أن يكون بشرًا. فقالت امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ (يوسف:٣٢).

واقتنع النساء بما تفعله امرأة العزيز مع يوسف، فلما رأى ذلك منهن قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣).

وكادت تحدث فتنة في المدينة بسبب عشق النساء ليوسف، فرأى القائمون على الأمر في مصر أن يسجن يوسف إلى حين، فسجنوه، وظل يوسف -عليه السلام- في السجن فترة، ودخل معه السجن فتيان أحدهما خباز والآخر ساقي، ورأيا من أخلاق يوسف وأدبه وعبادته لربه ما جعلهما يعجبان به، فأقبلا عليه ذات يوم يقصان عليه ما رأيا في نومهما، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦) ففسر لهما يوسف رؤياهما، بأن أحدهما سيخرج من السجن، ويرجع إلى عمله كساق للملك، وأما الآخر وهو خباز الملك فسوف يصلب، وتأكل الطير من رأسه.

وقبل أن يخرج ساقي الملك من السجن طلب منه يوسف أن يذكر أمره عند الله، ويخبره أن في السجن بريئًا حبس ظلمًا، حتى يعفو عنه، ويخرج من السجن، ولكن الساقي نسي، فظل يوسف في السجن بضع سنين، وبمرور فترة من الزمن تحقق ما فسره لهما يوسف.

وفي يوم من الأيام، نام الملك فرأى في منامه سبع بقرات سمان يأكلهن سبع

نحيفات، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، فقام من نومه خائفا مفزوعًا مما رآه، فجمع رجاله وعلماء دولته، وقص عليهم ما رآه، وطلب منهم تفسيره، فأعجزهم ذلك، وأرادوا صرف الملك عنه حتى لا ينشغل به، فقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ (يوسف: ٤٤).

لكن هذه الرؤيا ظلت تلاحق الملك وتفزعه أثناء نومه، فانشغل الملك بها، وأصر على معرفة تفسيرها، وهنا تذكر الساقي أمر يوسف، وطلب أن يذهب إلى السجن ليقابل يوسف، وهناك طلب منه أن يفسر رؤيا الملك، ففسر يوسف البقرات السمان والسنبلات الخضر بسبع سنين يكثر فيها الخير وينجو الناس فيه من الهلاك.

ولم يكتف يوسف بتفسير الحلم، وإنما قدم لهم الحل السليم. وما يجب عليهم فعله تجاه هذه الأزمة، وهو أن يدخروا في سنوات الخير ما ينفعهم في سنوات القحط والحاجة من الحبوب بشرط أن يتركوها في سنابلها، حتى يأتي الله بالفرج.

ولما عرف الساقي تفسير الرؤيا، رجع إلى الملك ليخبره بما قاله له يوسف. ففرح الملك فرحًا شديدًا، وراح يسأل عن ذلك الذي فسر رؤياه، فقال الساقي: يوسف. فقال الملك على الفور: ائتوني به.

فذهب رسول الملك إلى يوسف وقال له: أجب الملك، فإنه يريد أن يراك، ولكن يوسف رفض أن يذهب إلى الملك قبل أن تظهر براءته، ويعرف الملك ما حدث له من نساء المدينة.

فأرسل الملك في طلب امرأة العزيز وباقي النسوة، وسألهن عن الأمر، فقلن معترفات بذنوبهن مقرَّات بخطئهن، ومعلنات عن توبتهن إلى الله: ما رأينا منه سوءًا، وأظهرت امرأة العزيز براءة يوسف أمام الناس جميعًا.

عندئذ أصدر الملك قراره بتبرئة يوسف مما اتهم به، وأمر بإخراجه من السجن وتكريمه، وتقريبه إليه. ثم خيره أن يأخذ من المناصب ما شاء فقال يوسف: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى

خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف:٥٥) فوافق الملك على أن يتقلد يوسف هذا المنصب لأمانته وعلمه.

وتحققت رؤيا الملك، وانتهت سنوات الرخاء، وبدأت سنوات المجاعة، وجاء الناس من كل مكان في مصر والبلاد المجاورة ليأخذوا حاجتهم من خزائن الملك.

وفي يوم من الأيام، وأثناء توزيع الحبوب على الناس إذا بيوسف أمام رجال يعرفهم بلغتهم وأشكالهم وأسمائهم، وكانت مفاجأة لم يتوقعوها، إنهم إخوته، أبناء أبيه يعقوب -عليه السلام-، الذي ألقوه في البئر وهو صغير، لقد جاءوا محتاجين إلى الطعام، ووقفوا أمامه دون أن يعرفوه، فقد تغيرت ملامحه بعدما كبر، فأحسن يوسف إليهم، وأنسوا هم به، وأخبروه أن لهم أخا أصغر من أبيهم لم يحضر معهم، لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه.

فلما جهزهم يوسف بحاجات الرحلة، وقضى حاجتهم، وأعطاهم ما يريدون من الطعام، قال لهم: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ [٥٩] فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف:٥٩-٦٠).

فأظهروا أن الأمر ليس ميسورا وسوف يمانع، ليستبدلوا بها القمح والعلف في رحالهم بدلا من القمح فيضطروا إلى العودة إليه بأخيهم.

وعاد إخوة يوسف إلى أبيهم، وقالوا: ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (يوسف:٦٣)، فرفض يعقوب.

وذهب الإخوة إلى بضاعتهم ليخرجوها ففوجئوا ببضاعتهم الأولى التي دفعوها ثمنا، ولم يجدوا قمحا، فأخبروا والدهم أن بضاعتهم قد ردت إليهم، ثم أخذوا يحرجون أباهم بالتلويح له بمصلحة أهلهم في الحصول على الطعام، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم، ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم، فقد كان يوسف يعطي لكل فرد حمل بعير.

فقال لهم أبوهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف:٦٦)، ولم ينس أن يوصيهم في هذا



الموقف وينصحهم، فقال لهم: ﴿يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (يوسف:٦٧).

وسافر الإخوة إلى مصر، ودخلوها من حيث أمرهم أبوهم، ولما وقفوا أمام يوسف، دعا أخاه الصغير، وقربه إليه، واختلى به، وأخبره أنه يوسف أخوه.

ثم وزن البضاعة لإخوته، فلما استعدوا للرحيل والعودة إلى بلادهم، إذا بيوسف يريد أن يستبقي أخاه بجانبه، فأمر فتيانه بوضع السقاية (إناء كان يكيل به) في رحل أخيه الصغير، وعندما بدأت القافلة في الرحيل إذا بمناد ينادي ويشير إليهم: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ (يوسف:٧٠).

فأقبل الإخوة يتساءلون عن الذي فقد، فأخبره المنادي أنه فقد مكيال الملك، وقد جعل لمن يأتي به مكافأة قدرها حمل بعير.

وهنا لم يتحمل إخوة يوسف ذلك الاتهام، فدخلوا في حوار ساخن مع يوسف ومن معه، فهم ليسوا سارقين وأقسموا على ذلك. فقال الحراس: ﴿فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (يوسف:٧٤).

هنا ينكشف التدبير الذي ألهمه الله يوسف، فقد كان الحكم السائد في شريعة بني إسرائيل أن السارق يكون عبدًا للمسروق منه، ولما كان يوسف -عليه السلام- يعلم أن هذا هو جزاء السارق في شريعة بني إسرائيل، فقد قبل أن يحتكم إلى شريعتهم دون شريعة المصريين، ووافق إخوته على ذلك لثقتهم في أنفسهم. فأصدر يوسف الأوامر لعماله بتفتيش أوعية إخوته. فلم يجدوا شيئا، ثم فتشوا وعاء أخيه، فوجدوا فيه إناء الكيل.

وتذكر إخوة يوسف ما وعدوا به أباهم من عودة أخيهم الصغير إليه، فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٧٨).

فقال يوسف: ﴿مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَّظَالِمُونَ﴾ (يوسف:٧٩).

وهكذا مكن الله ليوسف أن يحتفظ بأخيه، أما الإخوة فقد احتاروا وجلسوا يفكرون فيما سيقولونه لأبيهم عندما يعودون، فقرر كبيرهم ألا يبرح مصر، وألا يواجه أباه إلا أن يأذن له أبوه، أو يقضي الله له بحكم، وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه صراحة بأن ابنه سرق، فأخذ بما سرق، وإن شك في ذلك؛ فليسأل القافلة التي كانوا معها أو أهل المدينة التي كانوا فيها.

فعادوا إلى أبيهم وحكوا له ما حدث، إلا أن أباهم لم يصدقهم، وقال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف:٨٣)، ثم تركهم، وأخذ يبكي على يوسف وأخيه، حتى فقد بصره، فاغتاظ أبناءه وقالوا: ﴿تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ (يوسف:٨٥).

فرد يعقوب -عليه السلام- عليهم أنه يشكو أمره لله، وليس لأحد من خلقه، وطلب منهم أن يذهبوا ليبحثوا عن يوسف وأخيه، فهو يشعر بقلب المؤمن أن يوسف مازال حيًّا، والمؤمن لا ييأس من رحمة الله أبدًا.

وتوجه الأبناء إلى مصر للمرة الثالثة يبحثون عن أخيهم، ويلتمسون بعض الطعام، وليس معهم إلا بضاعة رديئة.

ولما وصلوا مصر دخلوا على يوسف، فقالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف:٨٨). ففاجأهم يوسف بهذا السؤال: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ (يوسف:٨٩)، فتنبهوا إلى رنين هذا الصوت، وإلا هذه الملامح التي ربما يعرفونها، فقالوا: ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ (يوسف:٩٠). فأخبرهم يوسف بحقيقته، وبفضل الله عليه. فاعتذر له إخوته، وأقروا بخطئهم، فعفا يوسف عنهم، وسأل الله لهم المغفرة. ثم سألهم يوسف عن أبيه، فعلم منهم أنه قد فقد بصره بسبب حزنه عليه، فقال لهم: ﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف: ٩٣).

فأخذوا القميص وخرجوا من مصر متوجهين إلى فلسطين وقبل أن تصل العير قال

يعقوب لمن حوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف:٩٤)، فقالوا له: ﴿تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ (يوسف:٩٥) وبعد أيام عادا إخوة يوسف إلى أبيهم، وبشروه بحياة يوسف وسلامة أخيه، ثم أخرجوا قميص يوسف، ووضعوه على وجه يعقوب، فارتد إليه بصره.

وطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، فوعدهم يعقوب بأنه سيستغفر لهم الله وقت السحر؛ لأن هذا أدعى إليه استجابة الدعاء.

وغادر بنو إسرائيل أرضهم متوجهين إلى مصر، فلما دخلوها، استقبلهم يوسف بترحاب كبير، وأكرم أبويه، فأجلسهما على كرسيه، وهنا لم يتمالك يعقوب وامرأته وبنوه الأحد عشر أنفسهم حتى انحنوا تحية ليوسف وإكبار لوفائه، وتقديرا لعفوه وفضله، وتذكر يوسف رؤياه القديمة التي رآها وهو صغير، فالأحد عشر كوكبًا بعدد إخوته، والشمس والقمر هنا أبواه، فقال: ﴿يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف:١٠٠).

ثم توجه يوسف -عليه السلام- إلى الله -عز وجل- يشكره على نعمه، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١).

وقد سئل النبي ﷺ عن أكرم الناس. فقال: "أتقاهم". فقالوا: ليس عن هذا نسألك. فقال: "فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله" [متفق عليه].

****



أيوب عليه السلام

كان أيوب -عليه السلام- نبيا كريمًا يرجع نسبه إلى إبراهيم الخليل -عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأنعام:٨٤).

وكان أيوب كثير المال والأنعام والعبيد، وكان له زوجة طيبة وذرية صالحة؛ فأراد الله أن يختبره ويمتحنه، ففقد ماله، ومات أولاده، وضاع ما عنده من خيرات ونعم، وأصابه المرض، فصبر أيوب على ذلك كله، وظل يذكر الله -عز وجل- ويشكره.

ومرت الأيام، وكلما مر يوم اشتد البلاء على أيوب، إلا أنه كان يلقى البلاء الشديد بصبر أشد، ولما زاد عليه البلاء، انقطع عنه الأهل، وابتعد عنه الأصدقاء، فصبر ولم يسخط أو يعترض على قضاء الله.

وظل أيوب في مرضه مدة طويلة لا يشتكي، ولا يعترض على أمر الله، وظل صابرًا محتسبًا يحمد الله ويشكره، فأصبح نموذجا فريدًا في الصبر والتحمل.

وبعد طول صبر، توجه أيوب إلى ربه؛ ليكشف عنه ما به من الضر والسقم: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣)، فأوحى الله إلى أيوب أن يضرب الأرض بقدمه، فامتثل أيوب لأمر ربه، فانفجرت عين ماء باردة فاغتسل منها؛ فشفي بإذن الله، فلم يبق فيه جرح إلا وقد برئ منه، ثم شرب شربة فلم يبق في جوفه داء إلا خرج، وعاد سليمًا، ورجع كما كان شابًا جميلاً، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ (الأنبياء:٨٤).

ونظرت زوجة أيوب إليه، فوجدته في أحسن صورة، وقد أذهب الله عنه ما كان به من ألم وأذى وسقم ومرض، وأصبح صحيحًا معافى، وأغناه الله، ورد عليه ماله وولده، قال تعالى: ﴿ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ (الأنبياء:٨٤).

وقد جعل الله -عز وجل- أيوب -عليه السلام- أسوة وقدوة لكل مؤمن ابتلي في

جسده أو ماله أو ولده، حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه. قال النبي ﷺ: "بينما أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رِجْل جراد (جماعة من الجراد) من ذهب، فجعل يحثي (يأخذ بيديه) في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك" [البخاري].

***



ذو الكفل عليه السلام

أحد أنبياء الله، ورد ذكره في القرآن الكريم مرتين، فقد مدحه الله -عز وجل- وأثنى عليه لصبره وصلاحه، وصدقه، وأمانته وتحمله لكثير من المصاعب والآلام في سبيل تبليغ دعوته إلى قومه، ولم يقصَّ الله -عز وجل- لنا قصته، ولم يحدد زمن دعوته، أو القوم الذين أرسل إليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ[٨٥] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء:٨٥-٨٦) . وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ﴾ (ص:٤٨) .

وقد روي أن نبيًا من الأنبياء قال لمن معه: أيكم يكفل لي أن يصوم النهار ويقوم الليل ولا يغضب، ويكون معي في درجتي ويكون بعدي في مقامي؟ قال شاب من القوم: أنا. ثم أعاد فقال الشاب: أنا، ثم أعاد فقال الشاب: أنا، ثم أعاد فقال الشاب: أنا، فلما مات قام بعده في مقامه فأتاه إبليس بعدما قال ليغضبه يستعديه فقال الرجل: اذهب معه.

فجاء فأخبره أنه لم ير شيئًا، ثم أتاه فأرسل معه آخر فجاءه فأخبره أنه لم ير شيئًا، ثم أتاه فقام معه فأخذ بيده فانفلت منه فسمي (ذا الكفل) لأنه كفل أن لا يغضب.[ابن جرير وابن المنذر وأبي تمام].

***

يونس عليه السلام

في أرض الموصل بالعراق، كانت هناك بلدة تسمى "نينوي"، انحرف أهلها عن منهج الله، وعن طريقه المستقيم، وصاروا يعبدون الأصنام، ويجعلونها ندًّا لله وشريكًا له، فأراد الله أن يهديهم إلى عبادته، والى طريقه الحق، فأرسل إليهم يونس -عليه السلام-، ليدعوهم إلى الإيمان، وترك عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، لكنهم رفضوا الإيمان بالله، وتمسكوا بعبادة الأصنام، واستعمروا على كفرهم وضلالهم دون أن يؤمن منهم أحد، بل إنهم كذَّبوا يونس وتمردوا عليه، واستهزءوا به، وسخروا منه.

فغضب يونس من قومه، ويئس من استجابتهم له، فأوحى الله إليه أن يخبر قومه بأن الله سوف يعذبهم بسبب كفرهم.

فامتثل يونس لأمر ربه، وبلغ قومه، ووعدهم بنزول العذاب والعقاب من الله تعالى، ثم خرج من بينهم، وعلم القوم أن يونس قد ترك القرية، فتحققوا حينئذ من أن العذاب سيأتيهم لا محالة، وأن يونس نبي لا يكذب، فسارعوا، وتابوا إلى الله سبحانه، ورجعوا إليه وندموا على ما فعلوه مع نبيهم، وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات خوفًا من العذاب الذي سيقع عليهم، فلما رأى الله -سبحانه- صدق توبتهم ورجوعهم إليه، كشف عنهم العذاب، وأبعد عنهم العقاب بحوله وقوته ورحمته.

قال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ (يونس:٩٨) .

وبعد خروج يونس من قريته، ذهب إلى شاطئ البحر، وركب سفينة، وفي وسط البحر هاجت الأمواج واشتدت الرياح، فمالت السفينة وكادت تغرق.

وكانت السفينة محملة بالبضائع الثقيلة، فألقى الناس بعضًا منها في البحر، لتخفيف الحمولة، ورغم ذلك لم تهدأ السفينة، بل ظلت مضطربة تتمايل بهم يمينًا ويسارًا فتشاوروا

فيما بينهم على تخفيف الحمولة البشرية، فاتفقوا على عمل قرعة والذي تقع عليه؛ يرمي نفسه في البحر.

فوقعت القرعة على نبي الله يونس، لكن القوم رفضوا أن يرمي يونس نفسه في البحر، وأعيدت القرعة مرة أخرى، فوقعت على يونس، فأعادوا مرة ثالثة فوقعت القرعة عليه أيضًا، فقام يونس -عليه السلام- وألقى بنفسه في البحر، وكان في انتظاره حوت كبير أرسله الله له، وأوحى إليه أن يبتلع يونس دون أن يخدش له لحمًا، أو يكسر له عظمًا؛ ففعل، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [١٣٩] إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [١٤٠] فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ [١٤١] فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ (الصافات:١٣٩-١٤٢).

وظل يونس في بطن الحوت بعض الوقت، يسبح الله -عز وجل-، ويدعوه أن ينجيه من هذا الكرب، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ [٨٧] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٧-٨٨) .

وأمر الله الحوت أن يقذفه على الساحل، ثم أنبت عليه شجرة ذات أوراق عريضة تظلله وتستره وتقيه حرارة الشمس، قال تعالى: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ [١٤٥] وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾ (الصافات:١٤٥-١٤٦).

وأمر الله يونس أن يذهب إلى قومه؛ ليخبرهم بأن الله تاب عليهم، ورضى عنهم، فامتثل يونس لأمر ربه، وذهب إلى قومه، وأخبرهم بما أوحى إليه، فآمنوا به فبارك الله لهم في أموالهم وأولادهم. قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ [١٤٧] فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ (الصافات:١٤٧-١٤٨).

وقد أثنى الله -عز وجل- على يونس في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام:٨٦) .

كما أثنى النبي ﷺ على يونس-عليه السلام-فقال: "لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى"[متفق عليه].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الذي تصيبه مصيبة أو شر ثم يدعو بدعاء يونس-عليه السلام-، يفرِّج الله عنه، فقال ﷺ: "دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له" [الترمذي].

***

شعيب عليه السلام

على أرض مدين، وهي منطقة بالأردن الآن، كان يعيش قوم كفار يقطعون الطريق، ويسلبون أموال الناس الذين يمرون عليهم، ويعبدون شجرة كثيفة تسمى الأيكة.

وكانوا يسيئون معاملة الناس، ويغشُّون في البيع والشراء والمكيال والميزان، ويأخذون ما يزيد عن حقهم.

فأرسل الله إليهم رجلاً منهم هو رسول الله شعيب-عليه السلام-، فدعاهم إلى عبادة الله وعدم الشرك به، ونهاهم عن إتيان الأفعال الخبيثة، من نقص الناس أشياءهم، وسلب أموال القوافل التي تمر بديارهم.

فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:٨٥).

وظل شعيب يدعو قومه ويبين لهم الحق، فآمن به عدد قليل من قومه وكفر أكثرهم، لكن شعيباً لم ييأس من عدم استجابتهم، بل أخذ يدعوهم، ويذكر لهم نعم الله التي لا تحصى، وينهاهم عن الغش في البيع والشراء.

لكن قومه لم يتقبلوا كلامه، ولم يؤمنوا به، بل قالوا له على سبيل الاستهزاء والتهكم: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (هود:٨٧) .

فرد عليهم شعيب بعبارة لطيفة، يدعوهم فيها إلى الحق ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨).

وهكذا كان نبي الله شعيب قوي الحجة في دعوته إلى قومه، وقد سماه المفسرون

خطيب الأنبياء لبراعته، ثم قال لهم ليخوفهم من عذاب الله: ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ (هود:٨٩).

فأخذوا يهددونه ويتوعدونه بالقتل لولا أهله وعشيرته، وقالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ (هود:٩١). فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (هود:٩٢).

ثم أخذ يهددهم ويخوفهم من عذاب الله إن استمروا على طريق الضلال والعصيان، وعند ذلك خيره قومه بين أمرين: إما العودة إلى دين الآباء والأجداد، أو الخروج من البلاد مع الذي آمنوا معه، ولكن شعيبًا والذين آمنوا معه يثبتون على إيمانهم، ويفوضون أمرهم لله.

فما كان من قومه ألا أن اتهموه بالسحر والكذب، وسخروا من توعده إياهم العذاب، ويستعجلون هذا العذاب إن كان حقًّا. فدعا شعيب ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف:٨٩)، (أي احكم بيننا وبين قومنا بالعدل وأنت خير الحاكمين).

فطلب الله سبحانه من شعيب أن يخرج هو ومن آمن معه؛ لأن العذاب سينزل بهؤلاء المكذبين، ثم سلط الله على الكفار حرًّا شديدًا جفت منه الزروع والضروع والآبار، فخرج الناس يلتمسون النجاة، فإذا بسحابة سوداء، فظنوا أن فيها المطر والرحمة، فتجمعوا تحتها حتى أظلتهم، لكنها أنزلت عليهم حممًا حارقة، ونيرانا ملتهبة أحرقتهم جميعًا، واهتزت الأرض، وأخذتهم صيحة أزهقت أرواحهم، وحولتهم إلى جثث هامدة لا حراك فيها ولا حياة.

ونجي الله شعيبًا والذين آمنوا معه من العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ[٩٤] كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ (هود:٩٤-٩٥).

موسى وهارون عليهما السلام

في الزمن الماضي كان يعيش في مصر ملك جبار طاغية، يعرف بفرعون، استعبد قومه وطغى عليهم، وقسم رعيته إلى عدة أقسام، استضعف طائفة منهم، وأخذ في ظلمهم واستخدامهم في أخس الأعمال شرفًا ومكانة، وهؤلاء هم بنو إسرائيل الذين يرجع نسبهم إلى نبي الله يعقوب-عليه السلام- وقد دخلوا مصر عندما كان سيدنا يوسف -عليه السلام- وزيراً عليها.

وحدث أن فرعون كان نائمًا، فرأى في منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس، فأحرقت مصر جميعها إلا بيوت بني إسرائيل، فلما استيقظ، خاف وفزع من هذه الرؤيا، فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن تلك الرؤية فأخبروه بأن غلامًا سيولد في بني إسرائيل، يكون سببا لهلاك أهل مصر، ففزع فرعون من هذه الرؤيا العجيبة، وأمر بقتل كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل، خوفا من أن يولد هذا الغلام.

ومرت السنوات، ورأى أهل مصر أن بني إسرائيل قل عددهم بسبب قتل الذكور الصغار، فخافوا أن يموت الكبار مع قتل الصغار، فلا يجدون من يعمل في أراضيهم، فذهبوا إلى فرعون وأخبروه بذلك، ففكر فرعون، ثم أمر بقتل الذكور عامًا، وتركهم عامًا آخر.

فولد هارون في العام الذي لا يُقتل فيه الأطفال. أما موسى فقد ولد في عام القتل، فخافت أمه عليه، واحتار تفكيرها في المكان الذي تضعه فيه بعيدًا عن أعين جنود فرعون الذين يتربصون بكل مولود من بني إسرائيل لقتله، فأوحى الله إليها أن ترضعه وتضعه في صندوق، ثم ترمي هذا الصندوق في النيل إذا جاء الجنود، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٧).

فجهزت صندوقًا صغيرًا، وأرضعت ابنها، ثم وضعته في الصندوق، وألقته في النيل

عندما جاء جنود فرعون، وأمرت أخته بمتابعته، والسير بجواره على البر لتراقبه، وتتعرف على المكان الذي استقر فيه الصندوق.

وظل الصندوق طافيًا على وجه النهر وهو يتمايل يمينًا ويساراً، تتناقله الأمواج من جهة إلى أخرى، ثم استقرت به تلك الأمواج ناحية قصر فرعون الموجود على النيل، ولما رأت أخته ذلك أسرعت إلى أمها لتخبرها بما حدث. وكانت السيدة آسية زوجة فرعون تمشي في حديقة القصر كعادتها، ويسير من خلفها جواريها، فرأت الصندوق على شاطئ النهر من ناحية القصر، فأمرت جواريها أن يأتين به، ثم فتحنه أمامها، ونظرت آسية في الصندوق، فوقع نظرها على طفل صغير، فألقى الله في قلبها محبة هذا الطفل الصغير.

وكانت آسية عقيمًا لا تلد، فأخذته وضمته إلى صدرها ثم قبلته، وعزمت على حمايته من القتل والذبح، وذهبت به إلى زوجها، وقالت له في حنان ورحمة: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص:٩). فلما رأى فرعون تمسك زوجته بهذا الطفل، وافق على طلبها ولم يأمر بقتله، واتخذه ولدًا.

ومرت ساعات قليلة وزوجة فرعون تحمل الطفل فرحة مسرورة به، تضمه إلى صدرها وتقبله، وفجأة بكى موسى بشدة، فأدركت السيدة آسية أنه قد حان وقت رضاعته فأمرت بإحضار مرضعة لترضعه، وتهتم بأمره، فجاء إلى القصر عدد كثير من المرضعات، لكن الطفل امتنع عن أن يرضع منهن، مما جعل أهل القصر ينشغلون بهذا الأمر، واشتهر هذا الأمر بين الناس، فعرفت أخته بذلك، فذهبت إلى القصر، وقابلت السيدة آسية زوجة فرعون، وأخبرتها أنها تعلم مرضعة تصلح لهذا الطفل. ففرحت امرأة فرعون، وطلبت منها أن تسرع، وتأتي بتلك المرضعة، فذهبت إلى أمها فوجدتها حزينة على ابنها حزنًا كبيرًا، فأخبرتها بما حدث بينها وبين زوجة فرعون، فهدأت نفس أم موسى وارتاح بالها.

ذهبت أم موسى مع ابنتها إلى قصر فرعون، ولما دخلته أتوها بالرضيع، وبمجرد أن قدمت له ثديها أقبل عليه الطفل وشرب وارتوى، وأخذت الأم ابنها إلى بيته الذي ولد

فيه، فعاش موسى فترة رضاعته مع أبيه وأمه وإخوته، ولما عاد إلى قصر فرعون اهتموا بتربيته تربية حسنة، فنشأ وتربى كأبناء الملوك والأمراء قويًا جريئًا متعلماً.

كبر موسى، وصار رجلاً قويًا شجاعًا، وذات يوم، كان يسير في المدينة فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من قومه بني إسرائيل، والآخر قبطي من أهل مصر، فاستغاث الإسرائيلي بموسى، فأقبل موسى، وأراد منع المصري من الاعتداء، فدفعه بيده فسقط على الأرض ميتًا، فوجد موسى نفسه في موقف عصيب، لأنه لم يقصد قتل هذا الرجل، بل كان يريد الدفاع عن مظلوم فقط، وحزن موسى، وتاب إلى الله ورجع إليه، وأخذ يدعوه سبحانه أن يغفر له هذا الذنب.

ولكن سرعان ما انتشر الأمر في المدينة، وأخذ الناس يبحثون عن القاتل، ليعاقبوه، فلم يعثروا عليه، ومرت الأيام، وبينما موسى كعادته يسير في المدينة؛ فوجد الرجل الإسرائيلي نفسه يتشاجر مع مصري آخر، واستغاث مرة ثانية بموسى فغضب موسى من هذا الأمر، ثم تقدم ليفض هذا النزاع، فظن الإسرائيلي أن موسى سيقبل عليه؛ ليضربه لأنه غضبان منه، فقال له: ﴿يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ﴾(القصص:١٩).

وعلم المصريون أن موسى هو القاتل، فأخذوا يفكرون في الانتقام منه، وجاء إليه من ينصحه بأن يبتعد عن المدينة. فخرج موسى من المدينة وهو خائف، يتلفت يمينًا ويساراً يترقب أهلها، ويدعو الله أن ينجيه من القوم الظالمين.

خرج موسى وليس في ذهنه مكان معين يتوجه إليه، ثم هداه تفكيره إلى أن يذهب إلى أرض مدين، فتوكل على الله، وواصل السير إليها.

فلما وصل إلى مدين، توجه ناحية شجرة بجوار بئر، وجلس تحتها فوجد فتاتين، ومعهما أغنامهما تقفان بعيدًا عن الازدحام حتى ينتهي الناس، فتقدم موسى منهما، وسألهما عن سبب وقوفهما بعيدًا، فأخبرتاه أنهما لا يسقيان حتى ينتهي الناس من سقي أغنامهم، ويخف الزحام، وقد خرجا يسقيان لأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع أن يتحمل مشقة هذا العمل، فتقدم موسى وسقى لهما أغنامهما، ثم عاد مرة أخرى إلى ظل الشجرة ليأخذ المزيد

من الراحة بعد عناء السفر. وأخذ يدعو ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (القصص:٢٤).

ولما عادت الفتاتان إلى أبيهما، قصتا عليه ما حدث، فأعجب الأب بهذا الرجل الغريب وشهامته ومروءته، وأمر إحدى ابنتيه أن تخرج إليه، وتدعوه للحضور حتى يكافئه، فجاءت إليه إحدى الفتاتين لتخبره بدعوة الأب، فلبى موسى الدعوة، وذهب إلى إحدى الفتاتين لتخبره بدعوة الأب، فلبى موسى الدعوة، وذهب إلى هذا الرجل الصالح، فسأله الرجل عن اسمه وقصته، فقص عليه موسى ما حدث، فطمأنه الشيخ، وطلبت إحدى الفتاتين من أبيها أن يستأجر موسى ليعينهما فهو رجل قوي أمين.

وقد عرض الشيخ على موسى -عليه السلام- أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يعمل عنده أجيرا لمدة ثماني سنوات، أو عشرًا إذا شاء.

فوافق موسى على هذا الأمر، وتزوج إحدى البنتين، واستمر يرعى الغنم عند ذلك الشيخ عشر سنين، ثم أراد موسى الرحيل والعودة بأهله إلى مصر، فوافق الشيخ الصالح على ذلك، وأكرمه وزوده بما يعينه في طريق عودته إلى مصر.

سار موسى بأهله تجاه مصر، حتى حل عليهم الظلام، فجلسوا يستريحون من أثر هذا السفر، حتى يكملوا المسير بعد ذلك في الصباح، وكان الجو شديد البرودة، فأخذ موسى يبحث عن شيء يستدفئون عليه، فرأى ناراً من بعيد، فطلب من أهله الانتظار؛ حتى يذهب إلى مكان النار، ويأتي منها بشيء يستدفئون به.

توجه موسى وفي يده عصاه ناحية النار التي شاهدها، ولما وصل إليها نداء يقول: ﴿يَا مُوسَى[١١] إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى[١٢] وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى[١٣] إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي[١٤] إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى[١٥] فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾(طه:١١-١٦).

ثم سأله الله -عز وجل- عما يحمله في يمينه. فقال موسى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾(طه:١٨).

فأمره الله -عز وجل- أن يلقي هذه العصا، فألقاها فانقلبت العصا وتحولت إلى ثعبان كبير يتحرك ويسير بسرعة، فولى موسى من الخوف هاربًا، فأمره الله -عز وجل- أن يعود ولا يخاف، وسوف تعود عصا كما كانت أول مرة، فمد موسى يده إلى تلك الحية ليأخذها، فإذا بها عصا كما كانت.

وكان موسى أسمر اللون، فأمره الله -عز وجل- أن يدخل يده في ثيابه ثم يخرجها، فخرجت بيضاء ناصعة البياض، فكانت هاتان معجزتين من الله لنبيه موسى، لتثبيته في رسالته المقبلة إلى فرعون وملئه، ثم أمره الله -عز وجل- بالذهاب إلى فرعون لهدايته وتبليغه الدعوة، فاستجاب موسى لأمر ربه، ولكنه قبل أن يذهب أخذ يدعو ربه بأن يوفقه لما هو ذاهب إليه، ويسأله العون والمدد، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي [٢٥] وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [٢٦] وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي [٢٧] يَفْقَهُوا قَوْلِي [٢٨] وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي [٢٩] هَارُونَ أَخِي [٣٠] اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي [٣١] وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي [٣٢] كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً [٣٣] وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً [٣٤] إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾(طه:٢٥-٣٥).

فاستجاب الله -عز وجل- دعاءه، فتذكر موسى أنه قتل رجلاً من المصريين، فخاف أن يقتلوه، فطمأنه الله -سبحانه- بأنهم لن يصيبوه بأذى، فاطمأن موسى.

وعاد موسى إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حدث بينه وبين الله -عز وجل-، ليشاركه في توصيل الرسالة إلى فرعون وقومه، ويساعده في إخراج بني إسرائيل من مصر، ففرح هارون بذلك، وأخذ يدعو مع موسى ويشاركه في نشر الدعوة.
وكان فرعون شديد البطش والظلم ببني إسرائيل فتوجه هارون وموسى -عليهما الصلاة والسلام- إلى ربهما يدعوانه بأن ينقذهما من طغيان فرعون. فقال لهما الله تعالى مطمئنًا ومثبتًا: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى [٤٦] فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا

بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى [٤٧] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (طه:٤٦-٤٨).

فلما ذهب موسى مع أخيه هارون إلى فرعون قاما بدعوته إلى الله، وإخراج بني إسرائيل معهم، لكن فرعون راح يستهزئ بهما، ويسخر منهما، ومما جاءا به، وذكر موسى بأنه هو الذي رباه في قصره وظل يرعاه حتى قتل المصري وفرَّ هاربًا، فأخبره موسى أن الله قد هداه وجعله نبيًّا، لكي يدعوه إلى عبادة الله وطاعته، ولكن فرعون لم يستجب له، فعرض عليه موسى أن يأتي له بدليل يبين له صدق رسالته. فطلب فرعون منه الدليل إن كان صادقًا، فألقى موسى عصاه فتحولت إلى حية كبيرة، فخاف الناس وفزعوا من هذا الثعبان، فمد موسى يده إليها وأخذها فعادت عصا كما كانت. ثم أدخل يده في جيب قميصه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء ناصعة البياض.

ولكن فرعون يعلن في قومه أن موسى ساحر، فأشار عليه القوم أن يجمع السحرة من كل مكان لمواجهة موسى وسحره، على أن يكون هذا الاجتماع يوم الزينة، وكان هذا اليوم يوم عيد فرعون وقومه، حيث يجتمع الناس جميعًا، في مكان فسيح أمام قصر فرعون للاحتفال.

وسارع فرعون في إعلان الموعد لجميع الناس، ليشهدوا هذا اليوم، وكتب إلى كل السحرة ليعدوا العدة لذلك اليوم.. وجاء اليوم المنتظر، وتسابق الناس إلى ساحة المناظرة، ليروا من المنتصر؛ موسى أم السحرة؟

وقبل أن يخرج فرعون إلى موسى اجتمع مع السحرة، وأخذ يرغبهم ويعدهم ويمنيهم بآمال عظيمة إذ ما انتصروا على موسى وأخيه وتفوقوا عليهما، وكان السحرة يطمعون فيما عند فرعون من أجر ومكانة.

وبعد لحظات خرج فرعون ومن خلفه السحرة إلى ساحة المناظرة، ثم جلس في المكان الذي أُعد له هو وحاشيته، ووقف السحرة أمام موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-.

بعد ذلك رفع فرعون يده إيذانا ببدء المناظرة. وعرض السحرة على موسى أحد

أمرين؛ إما أن يلقي عصاه أولاً أو يلقوا عصيهم أولاً. فترك لهم موسى البداية.

فألقى السحرة حبالهم وعصيهم، فسحروا أعين الناس، وتحولت جميع الحبال والعصيان إلى حيات تسعى وتتحرك أمام أعين الحاضرين، فخاف الناس من هول ما يرونه أمامهم، حتى موسى وهارون-عليهما السلام-أصابهما الخوف، فأوحى الله لموسى ألا يخف ويلقي عصاه، فاطمأن موسى وأخوه لأمر الله، ثم ألقى عصاه فتحولت إلى حية عظيمة تبتلع حبال السحرة وعصيهم. فلما رأى السحرة ذلك علموا أنها معجزة من معجزات الله وليست سحرًا، فشرح الله صدورهم للإيمان بالله وتصديق ما جاء به موسى فسجدوا لله الواحد الأحد، معلنين إيمانهم برب موسى وهارون.

وهنا اشتد غيظ فرعون وأخذ يهدد السحرة، ويقول لهم: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ (طه:٧١).

لكن السحرة لم يخافوا ولم يفزعوا من كلامه وتهديداته، بعد أن أدخل الله في قلوبهم نور الحق والإيمان، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [٧٢] إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [٧٣] إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى [٧٤] وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى [٧٥] جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾ (طه:٧٢-٧٦).

فغضب فرعون غضبا شديدا، وأخذ المضللون من قومه يحرضونه على موسى وبني إسرائيل، فأصدر فرعون أوامره لجنوده أن يقتلوا أبناء الذين آمنوا من بني إسرائيل، ويتركوا النساء، واستطاع فرعون بهذه التهديدات أن يرهب الضعاف والذين في قلوبهم مرض من قوم موسى، فلم يؤمنوا به خوفًا من فرعون وبطشه، وحتى أولئك الذين آمنوا لم يسلموا تمامًا من الخوف والرهبة من فرعون.

فلما رأى موسى ما أصاب قومه من خوف وهلع، توجه إلى الله بدعاء أن ينجيه والمؤمنين من كيد فرعون.

وأخذ فرعون يفكر في حيلة للخلاص من موسى، وذات يوم جمع أعوانه وعشيرته وأعلن لهم ما توصل إليه، وهو أن يقتل موسى.

وبعد أن انتهى من كلامه إذا برجل من قومه وعشيرته قد آمن بموسى سرًّا يقول له: **﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾** (غافر:٢٨)، ثم أخذ يدعو المصريين للإيمان بالله ويحذرهم من العذاب. فأعرض فرعون عنه ولم يستمع إلى نصيحته.

ومرت الأيام، وأخذ فرعون وأعوانه في تعذيب بني إسرائيل وتسخيرهم في العمل، ولم يسمع لما طلبه منه موسى في أن يتركه وقومه يخرجون من مصر إلى الشام فسلط الله عليهم أعوام جدب وفقر حيث قل ماء النيل، ونقصت الثمار، وجاع الناس، وعجزوا أمام بلاء الله-عز وجل-، وأنزل الله بهم أنواعًا أخرى من العذاب إضافة إلى ما هم فيه كالطوفان الذي أغرق زروعهم وديارهم، والجراد الذي أكل ما بقي من زروعهم وأشجارهم وسلط عليهم السوس، فأكل ما اختزنوه في صوامعهم من الحبوب والدقيق، وأرسل إليهم الضفادع، فأقلقت راحتهم، وحوَّل مياههم التي تأتي من النيل والآبار والعيون دمًا.

كل هذه البلايا أصابت فرعون وقومه، أما موسى ومن آمن معه فلم يحدث لهم أي شيء، فكان هذا دليلاً وبرهانًا على صدق ما جاء به موسى وأخيه هارون.

ومرت الأيام، واستمرت تلك البلايا، بل إنها كانت تزداد يومًا بعد يوم، فذهب المصريون إلى فرعون يشيرون عليه أن يطلق سراح بني إسرائيل مقابل أن يدعو موسى ربه أن يكشف ذلك الضر عنهم، ويشفع لهم عند ربه هذا العذاب والضيق.

فدعا موسى ربه، حتى استجاب له، وكشف ما أصاب فرعون وقومه من عذاب وبلاء.

وزاد فرعون في عناده وكفره بالله، ولما رأى موسى إصرار فرعون على كفره وجحوده، وتماديه في غيِّه وتكذيبه بكل الآيات التي جاء بها، رفع يديه إلى السماء متوجهًا إلى الله متضرعًا ومتوسلاً إليه سبحانه أن يخلص بني إسرائيل من يدي فرعون وجنوده، وأن يعذب الكفرة بالعذاب المهين.

واستجاب الله -سبحانه وتعالى- دعاء نبيه ورسوله موسى، وجاء الأمر الإلهي إلى موسى أن يخرج مع بني إسرائيل من مصر ليلاً، ولا يخاف من العاقبة، وأخبره أن فرعون سيتبعه، ولكن الله منجيه هو ومن آمن معه وسيغرق فرعون وجنوده.

فأخبر موسى بني إسرائيل بالخبر، وطلب منهم أن يتجهزوا للخروج معه إذا جنَّ الليل، فأسرع قوم موسى يتجهزون للرحيل من مصر، فهي الساعة التي طال انتظارهم بها.

وسار موسى وقومه في اتجاه البحر، وبعد ساعات طويلة كان موسى ومن معه قد قطعوا شوطًا طويلاً على أقدامهم، ووصل خبر خروج بني إسرائيل من مصر إلى فرعون فهاج هياجًا شديدًا، وأصدر أوامره أن يجتمع إليه في الحال جميع جنوده.

وفي لحظات اجتمع إلى فرعون عدد كبير من الجنود والفرسان، فأخذهم وخرج بهم يترقب أثر موسى وقومه حتى أدركهم عند شروق الشمس، وهنا تملك بني إسرائيل الرعب والفزع من هول الموقف الذي هم فيه، فالبحر أمامهم، وفرعون وجنوده من خلفهم، فراحوا يتخيلون ما سيوقعه فرعون بهم من ألوان العذاب والنكال، وظنوا أن فرعون سيدركهم لا محالة.

فأخذ موسى يطمئنهم ويذكرهم بأن الله سينصرهم وينجيهم، فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر، ففعل، فانشقَّ طريق يابس، فاندفع بنو إسرائيل فيه قبل أن يصل فرعون وجنوده إليهم، ولما وصل فرعون ومن معه إلى الشاطئ، كان بنو إسرائيل قد خرجوا إلى الشاطئ الآخر، ولما رأى فرعون أن الطريق الذي سلكه بنو إسرائيل مازال

موجودًا، اندفع هو الآخر بجنوده للحاق بهم، ولما وصل فرعون وجنوده إلى منتصف البحر، تحول الطريق إلى ماء، وغرقوا جميعاً. ولما أدرك فرعون أنه سيغرق أراد أن ينجو بحيلة فقال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(يونس:٩٠).

لكن هيهات لقد نفذ أمر الله، وغرق فرعون وعاين الموت، وأيقن أنه لا نجاة له منه، وفي هذا الوقت لا تنفع التوبة، ولا ينفع الندم، لقد بلغت الروح الحلقوم، وجاء إيمان فرعون متأخراً فقد حضر الموت، وفات أوان التوبة.

وبعد أن لفظ فرعون أنفاسه الأخيرة، حملت الأمواج جثته، وألقتها على شاطئ البحر ليراها المصريون، ويدركوا جميعًا أن الرجل الذي عبدوه وأطاعوه من دون الله، لم يستطع دفع الموت عن نفسه، وأصبح عبرة لكل متكبر جبار.

وبعد أن عبر بنو إسرائيل البحر، ساروا متوجهين إلى الأرض المقدسة، وفي الطريق رأوا قومًا يعبدون أصنامًا، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا مثل هؤلاء الكفار، فصبر موسى عليهم وبين لهم جهلهم، وبين لهم نعم الله عليهم التي لا تحصى، وأن الله فضلهم على خلقه، وأنه نجاهم من فرعون وجنوده، وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة.

وواصل موسى ومن معه المسير، وحرارة الشمس تلفح وجوههم، فذهب بنو إسرائيل إلى موسى يشكون له ذلك، فسخر الله لهم الغمام يقف معهم إذا وقفوا، ويسير معهم إذا ساروا، ليظلهم ويقيهم لهيب الشمس الحارقة. ولما عطشوا أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه التي يحملها معه الحجر، فرفع موسى عصاه وهوى بها على حجر في الجبل وإذا بمعجزة جديدة من معجزات موسى تحدث أمام عيون بني إسرائيل، حيث تتفجر بمجرد وقوع العصا على الحجر اثنتا عشرة عينًا، بعدد قبائل بني إسرائيل الذين كانوا معه، مما جعل موسى يخصص لكل قبيلة عينًا تشرب منها.

ولما جاعوا أدركتهم نعمة الله، حيث ساق لهم المن، وهو نوع من الحلوى، والسلوى وهو نوع من الطير يشبه السمان، فأخذوا يأكلون منه، ولكنهم سرعان ما سئموا هذا الطعام وملُّوا منه، فذهبوا إلى موسى يشكون له ذلك فقالوا: يا موسى ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَى

طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ (البقرة:٦١).

فتعجب موسى، ثم أخبرهم بأن ذلك يكون في الأرض، فليذهبوا إلى مكان يزرعون فيه ويعملون حتى يتحقق لهم ما يطلبون.

وعاش بنو إسرائيل في أمان واطمئنان، وأصبحوا في حاجة إلى قانون يحتكمون إليه، وشريعة تنظم حياتهم، فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بمفرده إلى مكان معين، ليعطيه الشريعة التي يتحاكم إليها بنو إسرائيل وتنظم حياتهم، فاستخلف موسى أخاه هارون على قومه، ووعظه وذكره بالله، وحذره من المضلين الذين يحاولون أن يفسدوا غيرهم.

ثم ذهب الجبل الذي تلقى فيه بربه عندما كان عائدًا من مدين إلى مصر، وعنده أنزلت عليه التوراة، ولما رأى موسى إكرام ربه له، وتفضله الزائد عليه، طلب من الله أن يمكنه من رؤيته سبحانه، ظنًا منه أن رؤية الله ممكنة في الدنيا، فرد الله على موسى مبينًا أن الإنسان بتكوينه هذا لا يقدر على رؤية الله-عز وجل-، وحتى يطمئن قلب موسى، فقد أخبره الله أنه سيتجلى للجبل، وما على موسى إلا أن ينظر إلى الجبل، ويلاحظ ما سيحدث، ونظر موسى إلى الجبل، فرآه قد اندك وتهدم.

ولقد صور لنا القرآن ذلك: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٤٣).

فأخذ موسى الألواح التي فيها التوراة، وكانت تتضمن المواعظ والأحكام التي بها تنتظم حياة بني إسرائيل وتستقيم.

وحدث في بني إسرائيل بعد أن تركهم موسى أن قام رجل منهم يعرف بالسامري، وجمع ما معهم من الحلي والذهب، وصنع لهم صنما مجوفًا على هيئة عجل إذا دخل فيه

الهواء من جانب خرج من الجانب الآخر محدثا صوتًا يشبه صوت العجل، وأخبرهم أن هذا هو إلههم وإله موسى، فصدقه بنو إسرائيل، وعبدوا العجل وتركوا عبادة الله الواحد الأحد، فتوجه إليهم نبي الله هارون ينصحهم ويعظهم، وأنهم قد فتنوا بهذا الأمر، لكنهم استمروا في جهلهم، ولم ينتفعوا بنصح هارون، بل اعترضوا عليه وكادوا أن يقتلوه، وأعلنوا له أنهم لن يتركوا عبادة هذا العجل، حتى يرجع إليهم موسى.

ولما عاد موسى ووجد قومه على تلك الحالة، غضب منهم غضبًا شديدًا، ومن شدة حزنه وغضبه مما فعله قومه ألقى الألواح التي فيها التوراة من يديه، وتوجه إلى أخيه هارون وأمسك برأسه وجذبه إليه بشدة، وقال له بصوت ظهر فيه الغضب: ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا [٩٢] أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ (طه:٩٢-٩٣).

فقال هارون: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ (طه:٩٤)، وأخبره أن القوم كادوا أن يقتلوه، فتركه موسى وتوجه إلى السامري؛ ذلك الرجل الذي صنع هذا العجل، وسأله عن الأمر، فأخبره السامري بما حدث، فأحرق موسى ذلك العجل حتى جعله ذرات صغيرة، ثم رمى بتلك الذرات في البحر.

هنا أحس بنو إسرائيل بسوء صنيعهم فندموا عليه، وأعلنوا توبتهم إلى الله، وسألوه الرحمة والمغفرة، فأوحى الله -عز وجل- إلى موسى أن هارون برئ منهم وأنه حاول معهم كثيرًا ليبتعدوا عن عبادة العجل، فاطمأن قلب موسى إلى أن أخاه لم يشارك في ذلك الإثم، فتوجه إلى الله تعالى مستغفرًا لنفسه ولأخيه، قائلاً: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف:١٥١) .

واختار موسى سبعين رجلاً من خيرة قومه، وذهب بهم إلى مكان حدده الله -عز وجل-، فلما وصلوا إلى ذلك المكان، فإذا بهم يطلبون أن يروا الله جهرة، فغضب موسى منهم غضبًا شديداً، وأنزل الله عليهم صاعقة دمرتهم، وأخذت أرواحهم. فأخذ موسى يدعو الله ويتضرع إليه أن يرحمهم.

وشاء الله -عز وجل- ألا يخزي نبيه موسى، فاستجاب له وأحيا أولئك الذين قتلتهم الصاعقة لعلهم يشكرون الله على نعمة إحيائهم من بعد موتهم، ورجع موسى بهم إلى قومه فأخذ التوراة وراح يقرؤها على بني إسرائيل ويشرح لهم ما فيها من مواعظ وأحكام، وأخذ عليهم المواثيق والعهود ليعلموا بما فيها من غير مخالفة، فلما وعدوه أن يلتزموا بما فيها أخذهم وسار في اتجاه الأرض المباركة وهي فلسطين، لكنهم راحوا يتنكرون للتوراة وما جاء فيها من أوامر وأحكام، فأراد الله أن ينتقم منهم، فرفع من الجبل صخرة كبيرة وحركها حتى صارت كأنها سحابة تظلهم، ففزعوا منها، وحسبوا أن الله سيلقيها عليهم، فتوجهوا إلى الله بالاستغاثة والدعاء، وتابوا إلى الله لينقذهم من الهلاك، فصرف الله عنهم تلك الصخرة رحمة منه وفضلاً.

ثم أوحى الله إلى موسى بأنه قد حان الوقت لاستقرار بني إسرائيل، ودخولهم الأرض المقدسة (فلسطين). ففرح موسى بذلك فرحًا شديدًا. ولكن بني إسرائيل جبناء خائفون، حيث إنهم أعلنوا ذلك لموسى فقالوا: ﴿ إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ (المائدة:٢٢).

وهنا قام رجلان مؤمنان منهم، فقالا لهم: ﴿ ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (المائدة:٢٣)، فما كان رد بني إسرائيل إلا أن قالوا: ﴿ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة:٢٤).

فاشتد غضب موسى على هؤلاء القوم الذين ينسون نعمة الله عليهم، فأخذ يدعو ربه أن يباعد بينه وبين هؤلاء الفاسقين.

فجاءه الجواب من الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة:٢٦) .

وهكذا حكم الله على بني إسرائيل أن يتيهوا في الأرض مدة أربعين سنة؛ نتيجة اعتراضهم على أوامر الله، وعدم امتثالهم لما أمرهم به موسى، وراح بنو إسرائيل يسيرون في

الصحراء بلا هدى واستمروا في التيه حتى دخلوا الأرض المقدسة بعد ذلك على يد يوشع بن نون بعد أن جمع شملهم.

موسى والخضر:

في يوم من الأيام خطب موسى -عليه السلام- في بني إسرائيل، ووعظهم موعظة بليغة، فاضت منها العيون، ورقت لها القلوب.. ثم انصرف عائدًا من حيث جاء، فتبعه رجل وسار خلفه حتى إذا اقترب منه، سأله قائلاً: يا رسول الله، هل في الأرض أعلم منك؟ قال: لا.

فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم لله -سبحانه- وأوحى إليه أن في مجمع البحرين عبدًا هو أعلم منك، فنهض موسى، وسأل ربه عن علامة يعرفه بها.

فأوحى الله إليه أن يأخذ معه في سفره حوتًا ميتًا، وفي المكان الذي ستعود الحياة فيه إلى الحوت فسيجد العبد الصالح، فأخذ موسى حوتًا ميتًا في وعاء، ثم انطلق لمقابلة العبد الصالح، واصطحب معه في هذه الرحلة يوشع بن نون، وكان غلامًا صغيرًا.

سار موسى مع غلامه سيرًا طويلاً حتى وصلا إلى صخرة كبيرة بجوار البحر، فجلسا يستريحان عندها من أثر السفر، فوضعا رأسيهما وناما، وبعد فترة استيقظ الفتى يوشع بن نون قبل أن يستيقظ موسى، فرأى شيئًا عجيبًا، رأى أن الحوت تحرك ودبت فيه الحياة، ثم سقط الحوت بجوار الشاطئ، وجاء موج البحر فحمله إلى الداخل، فلما استيقظ موسى نسي الفتى أن يخبره بما حدث وأخذا يسيران في طريقهما لمقابلة الرجل الصالح.

ومرت الساعات ومازال موسى وغلامه يسيران بجد ونشاط لمقابلة الرجل الصالح، حتى أحس موسى بالجوع، فطلب من فتاه أن يحضر الحوت منه، فأخبر موسى أنه نسيه هناك عند المكان الذي جلسا فيه ليستريحا من أثر التعب، وقد أحياه الله، ثم قفز وأخذ طريقه في البحر، فأخبره موسى أن هذا هو المكان الذي يريده.

ورجع موسى وغلامه إلى تلك الصخرة التي نسيا عندها الحوت، فوجدا رجلا

جالسًا مغطًى بثوب، اسمه الخضر، فأقبل عليه موسى وألقى عليه السلام، فكشف الخضر الغطاء عن وجهه وقال: وهل بأرضك من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال الخضر: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال الخضر: فما شأنك؟

قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدًا. فقال الخضر: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى إن لي علمًا لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علمًا لا ينبغي لي أن أعلمه. وفجأة جاء طائر صغير وشرب من البحر بمنقاره، فقال الخضر لموسى: والله ما علمي وما علمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر.[البخاري].

ثم أخبر الخضر موسى بأنه لا يتحمل ما سيراه من أمره، فوعده موسى بالصبر، وحسن الطاعة، فطلب منه الخضر ألا يسأله عن شيء حتى يذكره هو له.

فوافق موسى على ذلك، وانطلقا يسيران على شاطئ البحر، فمرت من أمامهما سفينة عظيمة، فكلم الخضر أصحابها، أن يركب هو وموسى معهم، فحملوهما، ولم يأخذا منهما أجراً، لأنهم كانوا يعرفون الخضر جيدًا.

ولما سارت السفينة فوجئ موسى بأن الخضر قد خلع لوحًا من السفينة، فاقترب من الخضر، وقال له: قوم حملونا بغير نول (أجر) عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها. فقال الخضر: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. فتذكر موسى ما اشترطه عليه الخضر، فاعتذر إليه بأنه قد نسي.

فقبل الخضر عذر موسى، ولم يؤاخذه هذه المرة على نسيانه، ولما رست السفينة على الشاطئ نزل موسى والخضر وسارا تجاه القرية، وفي الطريق رأى الخضر غلامًا ظريفًا يلعب مع الغلمان فأقبل عليه وقتله، فلما رأى موسى ذلك أنكر عليه ما فعل، لأنه قتل نفسًا بغير وجه حق. فذكَّره الخضر بأنه لن يستطيع معه صبرًا.

فأحس موسى أنه قد تسرع في الاستفسار عن سبب مقتل هذا الغلام، فاعتذر للخضر، ووعده أنه إن سأله عن شيء بعد ذلك فليفارقه.

فقبل الخضر عذر موسى في هذه المرة أيضًا، وسارا في طريقهما حتى بلغ قرية ما، فطلبا من أهلها طعامًا فرفضوا، وبينما هما يسيران، وجدا فيها جدارًا ضعيفًا مائلاً معرضًا للسقوط، فاقترب الخضر منه، وقام بإصلاحه وتقويته، فتحير موسى في أمر هذا العبد الصالح، وتعجب من سلوكه مع أولئك الذين رفضوا أن يطعموهما، وذكر للخضر أنه يستحق أن يأخذ أجرًا على ما فعل.

فأخبره الخضر أنه لابد أن يفارقه، وأخذ يفسر له ما حدث؛ فبين له أن السفينة كانت لمساكين يعملون عليها في نقل الركاب من ساحل إلى ساحل مقابل أجر زهيد، وكان هناك ملك جبار يأخذ كل سفينة صالحة من أهلها ظلمًا وعدوانًا، وأنه أراد أن يعيبها بكسر أحد الألواح حتى لا يأخذها ذلك الطاغية، لأنه لا يأخذ السفن التالفة.

وأن الغلام الذي قتله كان أبواه مؤمنين، وكان هذا الغلام كافرًا، فرأى أن قتله فيه رحمة بأبويه وحفاظًا على إيمانهما حتى لا يتابعانه على دينه، وعسى الله أن يرزقهما غلامًا غيره خيرًا منه دينًا وخلقًا وأكثر منه برًا.

وأن الجدار كان مملوكًا لغلامين يتيمين وكان أبوهما صالحا، وكان تحت الجدار كنز من الذهب، ولو تركه حتى يسقط لظهر هذا الكنز، ولم يستطع الغلامان لضعفهما أن يحافظا عليه، لذلك أصلح الجدار لهما حتى يكبرا ويأخذا كنزهما بسبب صلاح أبيهما فإن صلاح الآباء تصل بركته إلى الأبناء.

قصة بقرة بني إسرائيل:

حدث في حياة نبي الله موسى أمور عجيبة وغريبة، منها هذه القصة التي تدور أحداثها حول مقتل رجل من بني إسرائيل، لا يعلمون قاتله، وقد بحثوا كثيرًا فلم يعرفوه، فلما ملوا من البحث تذكروا أن بينهم نبي الله موسى، فذهب بعض الناس إليه وطلبوا منه أن يدعوا ربه لمعرفة ذلك القاتل، فدعا موسى ربه أن يكشف هذا السر، فأوحى الله إليه أن يأمر القوم بذبح بقرة، ويأخذوا جزءًا منها يضربون به القتيل فيحييه الله، ويخبرهم بمن قتله، ولما جاء القوم أخبرهم موسى بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة، فتعجب القوم من

قوله، وظنوا أنه يسخر منهم ويستهزأ بهم، ولم يسارع بنو إسرائيل بتنفيذ أمر الله، وإنما أخذوا يسألون موسى عن أوصاف البقرة ويجادلونه، وطلبوا منه أن يبين لهم بعض أوصافهم.

فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ليست بكراً، وليست كبيرة قد ولدت كثيرًا، إنما بقرة قوية قد ولدت مرة أو مرتين، وهي أقوى ما تكون من البقر وأحسنه، ولكنهم لم يفعلوا، وطلبوا من موسى أن يبين لهم ما لونها.

فأخبرهم موسى أن الله يأمرهم بذبح بقرة صفراء فاقع لونها، ولكنهم لم يفعلوا، وطلبوا من موسى أن يزيدهم من أوصاف البقرة، فقد تشابه عليهم البقر. فشددوا بذلك على أنفسهم فشدد الله عليهم، وأمرهم بذبح بقرة وحشية لم تحرث أرضًا، ولم تسق زرعًا، خالية من العيوب.

فخرجوا يبحثون عن البقرة المطلوبة حتى وجدوها، فاشتروها، ثم ذبحوها، وأتوا بها إلى موسى وانتظروا حتى يروا ما سيقوله لهم، وما سيفعله أمامهم، فتقدم موسى من البقرة، وأخذ جزءًا منها، وضرب به المقتول، وفجأة تحرك القتيل حيث رد الله إليه روحه، وأعاد إليه الحياة كما كان، فأخبر عن القاتل ثم مات مرة أخرى. فكانت هذه معجزة عظيمة من الله ليؤكد بها صدق نبيه موسى.

قصة قارون مع موسى:

كان قارون من قوم موسى، وكان غنيًا، ملأت أمواله وكنوزه خزائن كثيرة، فكان لا يستطيع حمل مفاتيح تلك الخزائن إلا جماعة من الرجال الأقوياء لكثرتها.

وعصى قارون موسى وهارون ولم يقبل حكمها ونصيحتها، وظن أن النعم التي أنعمها الله عليه ما جاءت إليه إلا لأنه أحق بها وأنه قد اكتسبها بعلمه.

وذات يوم، خرج قارون إلى المدينة وهو في زينة عظيمة وموكب كبير، لابسًا أحلى ما عنده من الثياب الزينة، ولما مرَّ على الناس اقترب منه بعضهم وأرادوا نصحه وموعظته،

فقالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ[٧٦] وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:٧٦-٧٧). فرد عليهم قارون بتكبر، وذكر لهم أنه جمع هذا المال بذكائه ومقدرته.

وافتتن بعض الناس الذين يريدون الحياة الدنيا بملابس قارون وزينته حين خرج إليهم، فتمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، فذكرهم الصالحون بثواب الله وقالوا لهم: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ (القصص:٨٠).

ولما زاد تكبر قارون واستعلاؤه دعا عليه موسى، فاستجاب الله له، وخسف به وبداره وبكنوزه الأرض، وأهلك أهله، ولم يجد أحدًا ينصره أو يدافع عنه، فندم الذين تمنوا أن يكونوا مثله، وقالوا: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص:٨٢).

وفاة موسى:

لما حان وقت وفاة نبي الله موسى أرسل الله إليه ملك الموت-عليه السلام-، فقال له: أجب ربك. فضربه موسى على عينه ففقأها، فرجع ملك الموت إلى الله، وقال له: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت.

فقال له الله-عز وجل-: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن (ظهر ثور)، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، فرجع إليه الملك وأخبره بذلك، فقال موسى: أي رب، ثم ماذا؟ فقال الله-عز وجل-: ثم الموت، فقال موسى: فالآن. ثم طلب موسى من الله-عز وجل-أن يقربه من الأرض المقدسة، فتوفى موسى قريبًا من بيت المقدس في الأرض المباركة في فلسطين.[متفق عليه]

وروي أن الملائكة هي التي تولت دفنه والصلاة عليه وقد عاش مائة وعشرين سنة.

***

إلياس (عليه السلام)

في منطقة تسمى بعلبك (موجودة حاليًا في لبنان) كان يعيش مجموعة من بني إسرائيل، أغواهم الشيطان فانحرفوا عن منهج الله، وساروا يعبدون صنمًا يقال له (بعل) فأرسل الله -عز وجل- إليهم نبيًّا منهم هو إلياس (عليه السلام).

أخذ إلياس يدعو قومه إلى عبادة الله عز وجل، فآمنت به طائفة من قومه وأصبحوا من الموحدين المخلصين، وكذَّبت به طائفة أخرى وخالفوه، فكانت نهايتهم العذاب الأليم، وقد سجل القرآن الكريم قصة إلياس -عليه السلام- مع قومه، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ [١٢٣] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ [١٢٤] أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ [١٢٥] اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [١٢٦] فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ [١٢٧] إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ [١٢٨] وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ [١٢٩] سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ [١٣٠] إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ [١٣١] إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات:١٢٣-١٣٢).

وقد مدح الله -سبحانه- إلياس -عليه السلام- وأثنى عليه ثناءً جميلاً، وذلك لأنه أخلص في العبادة، وأحسن في عمله، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنعام:٨٥).

***

اليسع (عليه السلام)

نبي من أنبياء الله، ذكره الله في كتابه العزيز مرتين، وأثنى عليه، ولم يشر القرآن الكريم إلى قصة اليسع ولا إلى قومه، وروى أنه أرسل إلى بني إسرائيل بعد إلياس -عليه السلام- ومكث بينهم فترة يدعوهم إلى الله مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتى توفاه الله -تعالى- وبعد وفاة اليسع -عليه السلام- كثرت ذنوب بني إسرائيل، وازدادت معاصيهم، وقتلوا من جاءهم من الأنبياء بعد ذلك فسلط الله عليهم ملوكًا جبارين يحكمونهم، وسلط الله عليهم الأعداء.

وقد بين الله -سبحانه- لنا فضل اليسع -عليه السلام- عندما ذكره مع إخوانه الأنبياء -صلوات الله عليهم- فقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ [٨٥] وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ [٨٦] وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام:٨٥-٨٧) ولقد أثنى الله على اليسع -عليه السلام- فقال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ (ص:٤٨).

***



داود(عليه السلام)

دخل بنو إسرائيل الأرض المقدسة (فلسطين) واستقروا بها، وكان ذلك على يد يوشع بن نون، وصاروا يعبدون الله على المنهج الذي جاء به موسى، وبعد مدة عادوا إلى طبائعهم الفاسدة مرة أخرى، فكفروا بأنعم الله، وانحرفوا عن الطريق المستقيم فسلَّط الله عليهم ملكًا جبارًا اسمه جالوت فقتل رجالهم، وسبى نساءهم وأطفالهم، وأخرجهم من بيوتهم، وأخذ منهم التابوت المقدس وبه الألواح الخاصة بالتوراة، وعصا موسى وبعض الأشياء الخاصة بهارون.

وأراد بنو إسرائيل قتال جالوت وجنوده، ولم يكن لهم في هذه الفترة ملك يوحد صفوفهم لقتال هذا الملك الجبار، وكان من بينهم آنذاك نبي من أنبياء الله فذهبوا إليه وأخبروه أنهم يريدون ملكًا عليهم لمحاربة جالوت، فتعجب نبيهم من هذا الطلب، وذكرهم من أنه يخشى إن فرض عليهم القتال أن يرفضوا القتال، ولكنهم أكدوا له عزمهم على القتال، فقد طردوا من بيوتهم، وابتعدوا عن أبنائهم، فأوحى الله إلى نبيهم أن يخبرهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا، فلما أخبرهم بذلك تعجبوا، وغضبوا من هذا الاختيار، حيث كان الكثير منهم خاصة الأغنياء يطمع أن يكون هو الملك الذي يوحد الصفوف لقتال جالوت، وتكون له الهيمنة والسلطان، ويحظى بشرف الحكم والقيادة، ومن أجل ذلك اعترض الكثير منهم على اختيار طالوت ليتولى الـمُلك من بينهم..

فأخبرهم نبيهم أن هذا اختيار الله، وأنه -سبحانه- قد أعطى طالوت قوة في الجسم، وسعة في العلم، وأن علامة ملك طالوت أن تأتيه الملائكة بالتابوت الذي كان قد أخذه جالوت من قبل، وفي لحظات كانت الملائكة قد أتت بالصندوق ووضعته أمام طالوت، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك رضوا به، ووافقوا على حكمه لهم، ثم أوحى الله لنبي بني إسرائيل أن يخبرهم بأن الله يأمرهم بالخروج مع طالوت لقتال عدوهم الذي أذلهم، وأسر وسبى أبناءهم.

ولكنهم امتنعوا عن القتال إلا قليلاً منهم تشجعوا، واستعدوا للقتال، فساروا مع طالوت للقاء جالوت الجبار وجنوده، وبهذه القلة التي آمنت، خرج طالوت وسار في طريق صحراوي ليس فيه ماء، فاشتكى بنو إسرائيل من الظمأ والعطش فطمأنهم ملكهم طالوت وطلب منهم الصبر ومواصلة السير، وبعد لحظات اقترب طالوت وجنوده من نهر من الأنهار، فقال لهم طالوت مبينًا أنهم سيمرون على نهر فمن شرب منه بكثرة، فقد خرج عن طاعته إلا من اغترف غرفة بيده يروى بها ظمأه، ومن خالف هذا الأمر فعليه أن يترك الجيش ويرجع من حيث جاء، فلما وصل طالوت وبنو إسرائيل إلى النهر، لم يستجب أكثرهم لما أمرهم به الملك طالوت، فشربوا من النهر حتى امتلأت بطونهم إلا قليلاً منهم.

فأمر طالوت كل من شرب من النهر حتى شبع أن يترك الجيش ويعتزل الباقين، ثم واصل سيره بالبقية الباقية من بني إسرائيل، وعبر النهر ليلتقي مع جيش جالوت وحتى هذه القلة التي ثبتت تراجع بعضهم وأصابهم الخوف عندما رأوا كثرة جنود جالوت، ولم يصبر معه إلا المؤمنون الصادقون الذين يعلمون أن الله ينصر المؤمنين بقوة إيمانهم لا بكثرة عددهم، ولما ظهر جالوت وجنوده أمامهم، واقترب منهم دعوا الله فقالوا: **﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** (البقرة:٢٥٠) .

وفي الميدان المخصص للقتال وقف جالوت وجنوده في ناحية، وطالوت وبنو إسرائيل في ناحية أخرى، ثم تقدم جالوت على حصانه، مسلحًا بكافة الدروع ونادى بأعلى صوته، هل من مبارز؟ هل من مقاتل؟ وكان في جيش طالوت جندي عظيم، هو نبي الله داود، والذي يرجع نسبه إلى إبراهيم -عليه السلام- فخرج من بين الصفوف ليبارز جالوت الجبار بعد أن امتنع جميع بني إسرائيل عن الخروج إليه، فضرب داود جالوت بحجارة عن طريق مقلاعه، فوقع قتيلاً، ففر الجيش هاربًا، وانتصرت القلة المؤمنة بحول الله وقوته على الكثرة الكافرة المشركة.

وانتهت المعركة، وبدأ عهد نبي جديد وملك جديد، قال تعالى: **﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾** (البقرة:٢٥١).



وجمع الله لداود الملك والنبوة، فكان ملكًا نبيًّا، وأنزل عليه الزبور، وهو كتاب مقدس فيه كثير من المواعظ والحكم، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ (النساء:١٦٣) وأعطى الله لداود صوتًا جميلاً لم يعطه لأحد من قبله، فكان إذا قرأ كتابه الزبور، وسبح الله، وقف الطير في الهواء يسبح الله معه، وينصت لما يقرؤه وكذلك الجبال فإنها كانت تسبح معه في الصباح والمساء، قال تعالى:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ [١٨] وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:١٨-١٩) وأيد الله داود بمعجزات كثيرة دالة على نبوته، فألان له الحديد، حتى يسهل عليه صنع الدروع والمحاريب التي تستخدم في الحروب والقتال.

وأراد الله -سبحانه- أن يعلم داود درسًا في العدل حين يحكم، فبينما كان يجلس في محرابه يصلي ويتعبد، فوجئ باثنين من الرجال يصعدان على سور محرابه حتى وصلا إليه، فدخلا عليه، فخاف منهما وفزع، فقال الرجلان: يا داود

لا تخف، خصمان بغى بعضنا على بعض فجئنا لتحكم بيننا بالحق، فسألهم داود عن قضيتهم، فقال أحد الخصمين: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فأراد أن يأخذها مني ليكمل المائة، فتسرع داود في الحكم لهذه القضية قبل أن يسمع كلام الآخر، فقال: ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (ص:٢٤) وما إن أكمل داود حكمه حتى اختفي هذان الرجلان فجأة دون أن يخرجا من الباب أو يعودا كما جاءا، فأدرك داود أن هذين ملكان أرسلهما الله ليعلماه أن يسمع من الخصمين قبل أن يحكم بينهما، فاستغفر داود ربه.

وكان داود يتقرب إلى الله بالذكر والدعاء والصلاة، لذلك مدحه الله بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:١٧) وكان رسول الله -ﷺ- يقول عنه: (كان أعبد البشر) [البخاري] وقال -ﷺ-: (أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه) [متفق عليه].



وكان داود لا يأكل إلا من عمل يده، لأنه يعلم أن أفضل الكسب هو ما يكسبه الإنسان من صنع يده، قال -صلى الله عليه وسلم-: (ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود -عليه السلام- كان يأكل من عمل يده) [البخاري]

وقد مات داود -عليه الصلاة والسلام- وتولى من بعده ابنه سليمان -عليه السلام- الحكم وجعله الله نبيًّا، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ (النمل:١٦).

***



سليمان (عليه السلام)

نبي من أنبياء الله، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وتولَّى الملك بعد وفاة والده داود - عليهما السلام- وكان حاكمًا عادلاً بين الناس، يقضي بينهم بما أنزل الله، وسخر الله له أشياء كثيرة: كالإنس والجن والطير والرياح... وغير ذلك، يعملون له ما يشاء بإذن ربه، ولا يخرجون عن طاعته، وإن خرج منهم أحدٌ وعصاه ولم ينفذ أمره عذبه عذابًا شديدًا، وألان له النحاس، وسخر الله له الشياطين، يأتون له بكل شيء يطلبه، ويعملون له المحاريب والتماثيل والأحواض التي ينبع منها الماء.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ [١٢] يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ:١٢-١٣) وعلم الله -سبحانه- سليمان لغة الطيور والحيوانات، وكان له جيش عظيم قوي يتكون من البشر والجن والطير، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل:١٧).

وكان سليمان دائم الذكر والشكر لله على هذه النعم، كثير الصلوات والتسابيح والاستغفار، وقد منح الله -عز وجل- سليمان -عليه السلام- الذكاء منذ صباه، فذات يوم ذهب كعادته مع أبيه داود -عليه السلام- إلى دار القضاء فدخل اثنان من الرجال، أحدهما كان صاحب أرض فيها زرع، والآخر كان راعيًا للغنم، وذلك للفصل في قضيتهما، فقال صاحب الأرض: إن هذا الرجل له غنم ترعى فدخلت أرضي ليلاً، وأفسدت ما فيها من زرع، فاحكم بيننا بالعدل، ولم يحكم داود في هذه القضية حتى سمع حجة الآخر، عندها تأكد من صدق ما قاله صاحب الأرض، فحكم له بأن يأخذ الغنم مقابل الخسائر التى لحقت بحديقته، لكن سليمان -عليه السلام- رغم صغر سنه، كان له حكم آخر، فاستأذن من أبيه أن يعرضه، فأذن له، فحكم سليمان بأن يأخذ صاحب الغنم

الأرض ليصلحها، ويأخذ صاحب الأرض الغنم لينتفع بلبنها وصوفها، فإذا ما انتهي صاحب الغنم من إصلاح الأرض أخذ غنمه، وأخذ صاحب الحديقة حديقته.

وكان هذا الحكم هو الحكم الصحيح والرأي الأفضل، فوافقوا على ذلك الحكم وقبلوه بارتياح، وأعجب داود -عليه السلام- بفهم ابنه سليمان لهذه القضية مع كونه صغيرًا، ووافق على حكم ابنه، وقد حكى الله -عز وجل- ذلك في القرآن قال تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ [٧٨] فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:٧٨-٧٩).

وذات يوم كان سليمان يسير مع جنوده من الجن والإنس، ومن فوقه الطير يظله فسمع صوت نملة تقول لزميلاتها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (النمل:١٨) فتبسَّم سليمان من قول هذه النملة، ورفع يده إلى السماء داعيًا ربه شاكرًا له على هذه النعمة قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل:١٩).

ومَّرت الأيام، وبينما كان سليمان -عليه السلام- يسير وسط جنوده ويتفقد مواقعهم، نظر ناحية الطير، فلم يجد الهدهد بين الطيور، وكان الهدهد حين ذاك قد ترك مكانه دون أن يعلم سليمان، فغضب منه سليمان غضبًا عظيمًا، وقال ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ (النمل:٢١) وغاب الهدهد فترة من الزمن، ولما عاد أخبرته الطيور بسؤال سليمان عليه، فذهب الهدهد على الفور إلى سليمان، وقال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ [٢٢] إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ [٢٣] وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل:٢٢-٢٤).

لقد وجد الهدهد قوم سبأ يسجدون للشمس ويعبدونها من دون الله، فحزن لذلك، فلم يكن يتصور أن أحدًا يسجد لغير الله، فأراد سليمان أن يتأكد من صدق الهدهد، فكتب رسالة موجزة يدعو فيها الملكة وقومها إلى الإسلام والإيمان بالله -عز وجل- وترك ما هم عليه من عبادة الشمس، وأعطاها للهدهد، ليذهب بها إلى مملكة سبأ ثم ينتظر منهم الجواب، فأخذ الهدهد كتاب سليمان، وطار به إلى مملكة سبأ، ثم دخل حجرة الملكة دون أن يشعر به أحد، فألقى عليها الرسالة ثم وقف بعيدًا عنها، يراقبها ويراقب قومها ماذا سيفعلون حينما يقرءون هذه الرسالة.

أخذت الملكة الرسالة، وقرأت ما فيها، فأعجبت بها، لكنها امتنعت عن أخذ أى قرار في شأن هذه الرسالة حتى تشاور كبار القوم من الأمراء والوزراء، فدعتهم للحضور، وأخبرتهم بما في هذه الرسالة، وطلبت منهم المشورة في الأمر، فاقترحوا عليها محاربة سليمان، فهم أصحاب قوة، لكن الملكة لم تقبل مبدأ الحرب والقتال لأنها استشعرت قوة سليمان، واقترحت على قومها أن تبعث إليه بهدية تليق بمكانته، وتنتظر رده، فلعله يقبل ذلك، أو يفرض عليهم جزية، ويترك محاربتهم.

وبعد أيام وصل رسل الملكة ومعهم الهدايا العظيمة والكنوز الرائعة، ودخلوا على سليمان ووضعوا الهدايا العظيمة أمامه، فأعرض عنها سليمان -عليه السلام- ولم يقبلها منهم، وقال لهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل:٣٦) ثم توعدهم إن لم يسلموا سيأتى إليهم بجنود لا طاقة لهم بردِّها والوقوف أمامها؛ لمحاربتهم وخروجهم من بيوتهم، ولما عاد رسل الملكة ذهبوا إليها، وأخبروها بما حدث بينهم وبين سليمان، وحدثوا عما رأوا من قوته وبأسه وما سخره الله له، فجمعت الملكة بلقيس كبار رجال دولتها من الوزراء والأمراء لتستشيرهم في أمر سليمان، فرأوا أن يذهبوا جميعًا إليه مستسلمين، وكان هذا هو رأي الملكة أيضًا، وعندها رفعت حالة الطوارئ للجميع استعدادًا للذهاب إلى سليمان.

وعلم سليمان بمجيء بلقيس ملكة سبأ وقومها إليه للإسلام والإيمان، لذا أراد أن

يريها آية من آيات الله العليم القدير، لتعرف أنه مرسل من ربه، فطلب سليمان من أعوانه أن يأتوه بعرشها قبل أن تصل إليه، فأخبره عفريت من الجن أنه يستطيع أن يأتي بالعرش قبل أن يقوم من مجلسه، وأخبره رجل آخر عنده علم من الكتاب أنه يستطيع أن يأتي بالعرش قبل أن يرتد إليه طرف عينه، فأذن سليمان لهذا العبد الصالح الذي عنده علم من الكتاب بإحضار العرش، وفي لحظات كان عرش بلقيس أمام سليمان، فذكر سليمان نعمة الله عليه، وفضله بأن جعل من جنوده من هو قادر على إحضار عرش بلقيس من اليمن إلى الشام في طرفة عين، فقال: ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

وقد أمر سليمان الجن أن يبنوا له قصرًا عظيمًا، حتى يستقبل فيه ملكة سبأ، وأشار عليهم أن تكون أرضية هذا القصر من زجاج شديد الصلابة والشفافية، تمر المياه من تحته، ثم يضعوا عرشها فيه بعد إدخال بعض التغيرات عليه لمعرفة هل ستهتدي الملكة أم لا؟ ومرت الأيام، وشاع خبر وصول الملكة وقومها، فخرج سليمان لاستقبالها، ثم عاد بها إلى القصر الذي أعده لها، وعند دخول ملكة سبأ هذا القصر، وقع نظرها على العرش، فأشار سليمان إليه، وقال لها: أهكذا عرشك؟ فقالت في دهشة واستغراب مستبعدة أن يكون الذي أمامها هو عرشها، حيث تركته هناك بأرض اليمن: كأنه هو !!

فلما أقبلت بلقيس لدخول القصر، رأت أمامها الماء، ولم تر الزجاج، فكشفت عن ساقيها خوفًا من أن يبتل ثوبها، فأخبرها سليمان أن أرضية القصر مصنوعة من زجاج، فلما رأت الملكة هذه الآيات، أعلنت إسلامها، وقالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل:٤٤) وقد ابتلى الله سليمان -عليه السلام- بمرض شديد حار فيه أطباء الإنس والجن، وجاءوا إليه بأدوية من كل نوع، لكنه لم يكتب له الشفاء، بل كان المرض يزداد عليه ويشتد يومًا عن آخر، وكان إذا جلس على كرسيه جلس عليه كأنه جسد بلا روح، واستمر المرض مع سليمان مدة طويلة من الزمن، فلم يجزع منه ولم ييأس، بل كلما كان يشتد مرضه، يزداد ذكره لله، داعيًا ومستغفرًا له، طالبًا منه الشفاء، حتى استجاب

الله له، وعادت إليه صحته، فأدرك سليمان أن مجده وملكه وعظمته لا تضمن له الشفاء إلا إذا أراد الله.

وقد أراد سليمان -عليه السلام- أن يبني بيتًا كبيرًا يُعْبد الله فيه، فكلف الجن بعمل هذا البيت، فاستجابوا له، لأنهم مسخرون له بأمر الله، فكانوا لا يعصون له أمرًا، وكان من عادة سليمان أن يقف أمام الجن وهم يعملون، حتى لا يتكاسلوا وبينما هو واقف يراقبهم وهو متكئ على عصاه مات دون أن تعلم الجن، وكانوا ينظرون إليه وهو على هذه الحال، فيظنون أنه يصلي ويذكر الله، فيواصلون البناء دون انقطاع حتى انتهوا من بناء البيت المطلوب، ولم يعرفوا أنه مات إلا بعد أن جاءت الأرضة فأكلت العصا، ووقع نبي الله سليمان على الأرض.

فأسرع الجن والإنس إليه فوجدوه ميتًا، وأدرك الجن أنه مات من فترة طويلة، ولو كانوا يعلمون ذلك لما استمروا في حمل الحجارة وبناء البيت، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ:١٤) وادعى بعض اليهود أن سليمان كان ساحرًا، ويسخر كل الكائنات بسحره، فنفى الله عنه ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ (البقرة:١٠٢) وقد أثنى الله على سليمان بكثرة العبادة والتضرع لله، فقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:٣٠).

***

زكريا (عليه السلام)

تمنى عمران وزوجته أن يكون لهما ولد، فأخذا يدعوان الله أن يرزقهما الذرية الصالحة، فاستجاب الله لدعائهما، وحملت امرأة عمران، فنذرت أن تهب ما في بطنها لخدمة المسجد الأقصى، ويتولى رعايته، ويقوم على شئونه، ولما ولدت أنثى، قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (آل عمران:٣٦) ثم أخذتها، وذهبت بها إلى المسجد الأقصى حتى تعيش هناك، وتتربى على التقوى والأخلاق الحميدة، وتنشأ على عبادة الله منذ الصغر.

وتقدم زكريا ليكفلها ويربيها ويقوم على رعايتها، وقد كان زكريا نجارًا، لكن الناس اختلفوا في ذلك، وارتفعت أصواتهم كل ينادي ويطالب بتربية مريم، وكل يرى نفسه أحق برعايتها من غيره، فقام أحد عُبَّاد المعبد ليفض هذا النزاع الذي نشب بينهم في شأن كفالة مريم، وقال: أقترح عليكم أن نذهب جميعًا إلى النهر ونرمى أقلامنا فيه، والقلم الذي يجري خلاف جري الماء هو الذي يفوز صاحبه بكفالة مريم وينال شرف تربيتها.

فاتفق الجميع على هذا الرأي، وذهبوا إلى النهر، ورمى كل واحد منهم قلمه فذهبت الأقلام جميعها مع التيار إلا قلم زكريا فهو وحده الذي سار خلاف جري الماء، وفاز زكريا بكفالة السيدة مريم، وبدأ زكريا -عليه السلام- في كفالة مريم والقيام على أمرها، وخصص لها مكانًا في المسجد تعيش فيه، ومحرابًا خاصًا بها لتتعبد فيه، وظلت السيدة مريم في المسجد وقتًا طويلا تعبد الله وتسبحه، وتقدسه في مكانها الخاص، لا تغادره إلا قليلاً.

وكان زكريا يزورها من حين لآخر، للاطمئنان عليها، والقيام بأمرها، وكلما دخل عليها المسجد، وجد عندها طعامًا، بل كان يجد فاكهة وألوانًا مختلفة من الأطعمة لا توجد في ذلك الوقت، فتعجب زكريا، وأخذته الدهشة ثم سألها: من أين لها بهذه الفاكهة، وهذا الطعام؟! فأخبرته السيدة مريم بأنه رزق من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب،

وكان زكريا قد كبرت سنه، ولم يكن لديه ولد ولا ذرية، لكنه لما رأى رزق الله لمريم بأشياء ليست في وقتها علم أن الله قادر أن يرزقه ولدًا، وإن كانت امرأته عاقرًا، فانصرف زكريا من عند مريم، وتوجه إلى ربه -عز وجل- يدعوه أن يرزقه بولد صالح.

وفي يوم من الأيام، وبينما زكريا في محرابه يعبد الله ويسبحه، تنزلت عليه الملائكة تبشره باستجابة الله لدعائه، وأن الله سبحانه وهبه غلامًا اسمه يحيى، وسيكون نبيًّا صالحًا، فتعجب زكريا من ذلك فكيف يكون له غلام وقد كبرت سنه، وامرأته عجوز عاقر؟! فأخبرته الملائكة أن هذا أمر الله القادر على كل شيء، عند ذلك طلب زكريا -عليه السلام- من الله تعالى أن يجعل له آية يستدل منها على أن زوجته بدأت تعاني من أعراض الحمل؛ فجعل الله علامة ذلك أن يفقد حاسة النطق لمدة ثلاثة أيام، وعليه في هذه الحالة أن يستحضر قلبه في الصباح والمساء في ذكر الله وعبادته وشكره.

ثم بين له الله -عز وجل- أنه إذا أراد مخاطبة قومه خاطبهم بالإشارة، وأمره الله -عز وجل- أن يطلب من قومه أن يسبِّحوا الله في الصباح والمساء، ومرت فترة من الزمن، وولد يحيى -عليه السلام- بعد شوق وانتظار؛ وأقر الله به عين زكريا وفرح به فرحًا عظيمًا، فتوجه إلى محرابه يصلي، ويسجد لله عز وجل، ويشكره على هذه النعمة العظيمة.. وقد مات زكريا -عليه السلام- قتيلاً على يد بني إسرائيل، وقيل: إنه قد مات ولم يقتل، فالله أعلم.

***

يحيى (عليه السلام)

يحيى -عليه السلام- نبي من أنبياء بني إسرائيل، ظهرت آية الله وقدرته فيه حين خلقه، حيث كان أبوه نبي الله زكريا -عليه السلام- شيخًا كبيرًا، وكانت أمه عاقرًا لا تلد، وكان يحيى -عليه السلام- محبًّا للعلم والمعرفة منذ صغره، وقد أمره الله تعالى بأن يأخذ التوراة بجد واجتهاد، فاستوعبها وحفظها وعمل بما فيها، والتزم بأوامر الله سبحانه وابتعد عن نواهيه، قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ (مريم: ١٢).

وقد ابتعد يحيى عن لهو الأطفال، فيحكى أنه كان يسير وهو صغير إذ أقبل على بعض الأطفال وهم يلعبون فقالوا له: يا يحيى تعال معنا نلعب؛ فرد عليهم يحيى -عليه السلام- ردًّا بليغًا فقال: ما للعب خلقنا، وإنما خلقنا لعبادة الله، وكان يحيى متواضعًا شديد الحنان والشفقة والرحمة وخاصة تجاه والديه، فقد كان مثالاً للبر والرحمة والعطف بهما، قال تعالى عن يحيى: ﴿وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً [١٣] وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً﴾ (مريم:١٣-١٤).

وحمل يحيى لواء الدعوة مع أبيه، وكان مباركًا يدعو الناس إلى نور التوحيد ليخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإسلام، وكان شديد الحرص على أن ينصح قومه ويعظهم بالبعد عن الانحرافات التي كانت سائدة حين ذاك، وذات يوم جمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس ثم صعد المنبر، وأخذ يخطب في الناس، فقال: (إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن.. أولهنَّ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق (فضة) فقال: هذه داري، وهذا عملي فاعمل وأد إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟!

وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم، فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة

فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله -تعالى- من ريح المسك، وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم، وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله) [الترمذي].

وكان يحيى يحب العزلة والانفراد بنفسه فكان كثيرًا ما يذهب إلى البراري والصحاري، ليعبد الله عز وجل فيها وحده، وروي أن يحيى -عليه السلام- لم يأت بخطيئة قطُّ، ولم يقبل على ذنب أبدًا، قال رسول الله ﷺ: (لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يحيى بن زكريا ما هم بخطيئة ولا عملها) [أحمد].

ولقد رأى النبي -ﷺ- يحيى -عليه السلام- ليلة المعراج في السماء الثانية يجلس مع عيسى بن مريم، يقول ﷺ: (.... ثم صعد حتى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل من هذا؟ قال: جبريل.. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم.. فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت فردَّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح) [البخاري].

وروي أنه مات قتيلاً على يد بني إسرائيل.

***



عيسى (عليه السلام)

ذهبت امرأة عمران بمريم إلى المسجد الأقصى وفاءً بنذرها، لتنشأ فيه نشأة طيبة وتتعلم أصول دينها، وتتربى على مكارم الأخلاق، وتكفَّل زكريا برعاية مريم وكان زكريا زوجًا لخالتها، فقام بتربيتها وكفالتها ورعايتها حتى كبرت على الأخلاق الحميدة.

عاشت مريم في محرابها تعبد الله وتسبحه وتقدِّسه، وذات يوم دخل عليها مجموعة من الملائكة على هيئة البشر، وأبلغوها ثناء الله -عز وجل- عليها، وحثوها على مزيد من الطاعة والعبادة والصلاة، فقالوا لها: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ [٤٢] يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران:٤٢-٤٣) ثم بشَّروها بولد منها سيكون نبيًّا كريمًا مؤيدًا بالمعجزات، فقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [٤٥] وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:٤٥-٤٦) فتعجبت مريم، إذ كيف يكون لها ولد وليست متزوجة، ولم يمسسها أي رجل!! فأخبرتها ملائكة الله أن هذه هي إرادة الله سبحانه القادر على كل شيء، ولم تملك مريم -عليها السلام- في هذا الأمر إلا أن تستسلم لله عز وجل، وتتحصن به في هذا المقام، لعل الله سبحانه أن يجعل لها مخرجًا.

ذات يوم وبينما هي وحدها، أرسل الله إليها الروح الأمين جبريل -عليه السلام- على هيئة بشرية وفي صورة حسنة، فلما رأته خافت وفزعت منه، فلم يكن يدخل عليها المحراب أحد غير زكريا، فتعوذت بالله من هذا الشخص الذي دخل عليها.

فطمئنها جبريل أنه رسول الله إليها، ليهب لها غلامًا طيبًا مباركًا، ونفخ فيها نفخة، فحملت على الفور، ثم اختفى جبريل -عليه السلام-.

ومرت الأيام، وأحست مريم بآلام الحمل، فذهبت إلى مكان بعيد خوفًا من كلام الناس في حقها، وجلست تحت ظل نخلة تفكر في أمرها وما سيكون عليه حالها بعد ولادتها، واقتربت ساعة الولادة، فتمنت أن لو كانت قد ماتت قبل أن يحدث لها ما حدث،

ووضعت مريم عيسى -عليه السلام- واحتاجت إلى طعام وشراب حتى تستعيد قوتها ونشاطها، فقد أصابها الضعف بعد الولادة، وفجأة .. سمعت صوتًا يناديها ويأمرها أن تهز جذع النخلة التى تجلس تحتها، وسوف يتساقط عليها الرطب، فتأكل منها حتى تشبع.

وظل هذا الصوت يتكلم، وكأنه يعلم ما يدور في صدر مريم من مخاوف حينما تدخل على أهلها وعلى الناس، وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً رضيعًا هي أمه، مع أنها لم تتزوج ولم تعاشر الرجال، فقال لها ذلك الصوت: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً [٢٤] وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً [٢٥] فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ (مريم:٢٤-٢٦) وأخذت تتلفت يمينًا ويسارًا لتتعرف على مصدر الصوت الذي يناديها، لكنها لم تجد أحدًا سوى ابنها الذي ولدته منذ لحظات، فتعجبت من ذلك تعجبًا شديدًا، وأدركت على الفور أنها أمام معجزة من معجزات الله العظيمة، ففرحت بابنها فرحًا كبيرًا، وعلمت أن الله سوف يجعل لها بعد هذا الضيق فرجا و مخرجا.

وتوكلت مريم على ربها، وحملت ابنها الصغير عيسى -عليه السلام- عائدة إلى قومها، وبينما هي تسير، رآها قومها من اليهود فتعجبوا من ذلك وأقبلوا عليها لائمين ومعنفين، وقالوا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً [٢٧] يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً﴾ (مريم:٢٧-٢٨) فأشارت مريم إلى ابنها الرضيع، فتعجب اليهود من أمرها، فكيف سيكلمون هذا الطفل الرضيع؟! فأنطق الله عز وجل عيسى -عليه السلام- فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً [٣٠] وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً [٣١] وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً [٣٢] وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ (مريم:٣٠-٣٣).

ولم تسلم مريم من إشاعات اليهود واتهاماتهم، ولما خافت على نفسها وولدها من غدر اليهود أخذت ابنها، وسارت به إلى مكان بعيد عن قومها، حتى لا يؤذوه ولما كبرت عادت به مرة أخرى إلى بيت لحم في فلسطين موطن ولادة عيسى، ولما عاد عيسى -عليه

السلام- إلى قومه رأى أنهم قد انحرفوا عن المنهج الذي جاء بـه موسـى مـن قبـل، ومـن انحرافهم أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير يوم السبت باعتبـاره يـوم عطلـة لا يجـوز العمل فيه، فيمر عليهم اليوم دون أن يقدموا عملاً صالحًا يتقربون به إلى الله.

وأقبلوا على حب المال، فسيطر على نفوسهم وتفكيرهم، وأجبر الكهنةُ الفقراء على النذر للمعبد، ليأخذوه لهم مع علمهم أن الفقراء والمحتاجين في أشد الحاجة إليـه، وكـان بعضهم ينكر يوم القيامة، ويقولون: لا حساب ولا عقاب في الآخرة، وفئة أخرى طغـت عليها الحياة وحب الدنيا، فأخذوا في ابتزاز أموال الناس بأي شكل وبأيـة حـال، فكانـت حاجة المجتمع إلى الإصلاح والهداية شـديدة، فأرسـل الله إلـيهم المسيح عيسى -عليـه السلام- لهدايتهم إلى المنهج الصحيح، فذهب إليهم يدعوهم إلى عبادة الله، وترك مـا هـم فيه من جهل وضلال.

وأيد الله تعالى عيسى بالمعجزات العظيمة التي تتناسب مع أهل زمانه، لتكون دليلاً على أنه رسول من ربه، فأعطاه الله القدرة على إحياء الموتى، وشفاء المرضى الـذين عجـز الأطباء والحكماء عن شفائهم، وأعلمه الله بعض الغيب، فكان يعرف ما يأكل الناس ومـا يدخرون في بيوتهم، فأخذ عيسى -عليه السلام- يدعو قومه إلى الطريق المستقيم، ويـبين لهم المعجزات التي أيده الله بها، فقال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [٤٩] وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (آل عمران:٤٩-٥٠).

ومع هذه العجائب والمعجزات الخارقة التى جاء بها عيسى إلى بني إسرائيل لم يؤمن به إلا القليل، واستمر أكثرهم على كفرهم وعنادهم بالإضافة إلى أنهم رموه بالـسحر، ولم ييأس عيسى -عليه السلام- بل استمر يدعوهم إلى عبادة الله عسى أن يؤمنوا بالله وحده، وطلب عيسى -عليه السلام- من قومه النصرة لدين الله فهدى الله مجموعـة مـن الفقـراء

والمساكين إلى الإيمان، فكان هؤلاء هم الحواريون الذين اصطفاهم الله؛ ليحملوا دعوة الحق، ويناصروا عيسى، وكان عددهم لا يزيد عن اثني عشر رجلاً.

وذات يوم أمر عيسى -عليه السلام- جميع من معه بصيام ثلاثين يومًا فصاموا، ولما أتموها طلبوا منه أن يدعو الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فنصحهم عيسى أن يتقوا الله في هذا الأمر، فردَّ الحواريون: **﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾** (المائدة:١١٣) ولما رأى عيسى إصرار الحواريين ومن معهم من بني إسرائيل على طلب مائدة من الرحمن، قام إلى مصلاه، يدعو الله قائلاً: **﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾** (المائدة:١١٤) فقال عز وجل: **﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾** (المائدة:١١٥).

وبعد لحظات، أنزل الله المائدة من السماء، والناس ينظرون إليها وهي تقترب شيئًا فشيئًا، وكلما دنت كان عيسى يسأل ربه عز وجل أن يجعلها بركة وسلامًا لا نقمة وعذابًا، ولم تزل تقترب حتى استقرت أمام عيسى، فسجد عيسى ومن معه لله شاكرين على استجابة طلبهم، ثم كشف عيسى الغطاء عن تلك المائدة، فإذا عليها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين؛ وأكل الحواريون من هذه المائدة، وأكل معهم آلاف الناس الذين جاءوا لعيسى من أجل أن يشفيهم بإذن الله من أمراضهم، وصار يوم نزول هذه المائدة عيدًا للحواريين وأتباع عيسى لفترة طويلة.

وانتشر خبر عيسى في البلاد، وآمن به كثير من الفقراء والمساكين، فحقد عليه الكهنة والأغنياء من اليهود وكرهوه، وأرادوا التخلص منه، فدبروا له حيلة ماكرة، حيث ذهبوا إلى الحاكم الروماني وأخبروه بأن عيسى رجل ثائر يحرض الناس عليهم، ويدبر مؤامرة ضد الدولة الرومانية، وظلوا يحرضون الحاكم على عيسى حتى أصدر حكمًا بإعدامه وصلبه، وبحثوا عن عيسى طويلاً فلم يجدوه، حيث أوحى الله إليه بما دبره اليهود والكفرة، فاختبأ عيسى والحواريون في الجبال يعبدون الله بعيدًا عنهم.

وفي خلال تلك الأحداث قال الله لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (آل عمران:٥٥) واجتمع الحاكم بكبار رجال الدولة يرافقهم الكفرة من اليهود ليتشاوروا في أمر عيسى وأين ذهب وما الذي يجب صنعه تجاهه؟ وظلوا يبحثون عن نبي الله عيسى في كل مكان ليقتلوه، لكن الله سبحانه حفظه ورعاه ورفعه إلى السماء، وألقى شبهه على رجل منهم، فأخذوه ظنًّا منهم أنه عيسى فصلبوه وقتلوه.

وودَّع عيسى الحواريين، وبشرهم برسول يأتي من بعده يُكْمِلُ ما بدأه، وبه تتم نعمة الله على الخلائق فقال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف:٦) وظن اليهود أن عيسى هو الذي قتل، ففرحوا بذلك، لكن القرآن الكريم يؤكد لنا أنه لم يقتل، وأنه نجا من أيديهم، حيث إن الله -سبحانه- رفعه إليه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً [١٥٧] بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء:١٥٧-١٥٨).

وقد أنزل الله -عز وجل- الإنجيل على عيسى، وأمرنا بالإيمان به، قال تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:١٣٦) ولكن أهل الكتاب حرفوا الإنجيل وبدلوا كثيرًا في آياته وأحكامه.

وكان عيسى آخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت من بعده سوى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد رسول الله -ﷺ- وأخبرنا النبي محمد -ﷺ- أن عيسى -عليه السلام- سوف ينزل إلى الأرض مرة أخرى في نهاية الزمان، ويدعو الناس إلى شريعة محمد -ﷺ- ويكسر الصليب الذي اتخذه النصارى شعارًا لهم.

قال: (والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم عدلاً، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها) [متفق عليه] .

وقد ضلَّ النصارى من بعد عيسى حيث اعتقدوا أن عيسى هو ابن الله، كما اعتقد اليهود أن عزيرًا ابن الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ولقد نفى الله ما قاله هؤلاء الكفرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩) وسوف يحاسبهم الله -عز وجل- على قولهم ذلك، ويعاقبهم عليه عقابًا شديدًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة:٣٠).

ويوم القيامة سوف يسأل الله -عز وجل- نبيه عيسى عن ضلال قومه وما فعلوه بعده من تأليههم له وقولهم إنه ابن الله، قال تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ﴾ (المائدة:١١٦) فيقول عيسى لربه: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ [١١٦] مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [١١٧] إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة:١١٦-١١٨).

***

محمد (صلى الله عليه وسلم)

في غرب الجزيرة العربية، وفي مكة المكرمة، ولدت (آمنة بنت وهب) ابنها محمد بن عبد الله ﷺ، في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول سنة ٥٧١ ميلادية وهو ما يعرف بعام الفيل.

وقد ولد محمد ﷺ يتيمًا، فقد مات أبوه، وهو لم يزل جنينًا في بطن أمه، فقد خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى تجارة في المدينة

فمات هناك، واعتنى به جده عبد المطلب، وسماه محمدًا، ولم يكن هذا الاسم مشهورًا ولا منتشرًا بين العرب، وقد أخذته السيدة حليمة السعدية لترضعه في بني سعد بعيدًا عن مكة؛ فنشأ قويَّ البنيان، فصيح اللسان، ورأوا الخير والبركة من يوم وجوده بينهم.

وفي البادية، وبينما محمد ﷺ يلعب مع الغلمان، إذ جاء إليه جبريل -عليه السلام- فأخذه، وشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة هي حظ الشيطان منه، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاد القلب إلى مكانه، فأسرع الغلمان إلى حليمة فقالوا: إن محمدًا قد قتل، فاستقبلوه وهو متغير اللون، قال أنس بن مالك: كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره.[مسلم والحاكم] ولما رأت حليمة السعدية ذلك، أرجعت محمدًا ﷺ إلى أمه آمنة، فكان معها تعتني به حتى بلغ السادسة من عمره، وبعدها توفيت، فأخذه جده عبدالمطلب الذي لم يزل يعتني به منذ ولادته، ولما مات جده وهو في الثامنة من عمره، عهد بكفالته إلى عمه أبي طالب..

وقد شهد رسول الله ﷺ حرب الفجار مع أعمامه، وهذه حرب خاضتها قريش مع كنانة ضد قيس عيلان من هوازن دفاعًا عن قداسة الأشهر الحرم ومكانة بيت الله الحرام، كما شهد حلف الفضول الذي ردت فيها قريش لرجل من زبيد حقه الذي سلبه منه العاص بن وائل السهمي، وكان هذا الحلف في دار عبدالله بن جدعان، وقد اتفقت فيه

قريش على أن ترد للمظلوم حقه، وكان لهذين الحدثين أثرهما في حياة النبي ﷺ.

وكان من بين أهل قريش امرأة شريفة تسمى خديجة بنت خويلد، كانت تستأجر الرجال في تجارتها، وقد سمعت بأمانة محمد ﷺ، فأرسلت إليه تعرض عليه أن يخرج بتجارتها إلى الشام، وتعطيه أكثر ما تعطى غيره، فوافق محمد ﷺ، وخرج مع غلامها ميسرة، وتاجرا وربحا، ولما عادا من التجارة، أخبر ميسرة سيدته خديجة بما لمحمد ﷺ من خصائص، وكانت امرأة ذكية، فأرسلت تخطب محمدًا ﷺ.

ثم جاء عمه أبو طالب وعمه حمزة وخطباها لمحمد ﷺ، وتزوج رسول الله ﷺ بخديجة، وكانت نعم الزوجة الصالحة، فقد ناصرته في حياتها، وبذلت كل ما تملك في سبيل إعلاء كلمة الله، وقد عرف رسول الله ﷺ بحسن تدبيره وحكمته ورجاحة عقله في حل المشكلات، فقد أعادت قريش بناء الكعبة، وقد اختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود مكانه، حتى كادت أن تقوم حرب بينهم، وظلوا على ذلك أيامًا، واقترح أبو أمية بن المغيرة تحكيم أول من يدخل من باب المسجد، فكان رسول الله ﷺ، فأمر بإحضار ثوب، ثم أمر بوضع الحجر في الثوب، وأن تأخذ كل قبيلة طرفًا من الثوب، فرفعوه جميعًا، حتى إذا بلغ الموضع، وضعه رسول الله ﷺ بيده الشريفة مكانه، ثم بنى عليه، وكان آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمره.

ولما قربت سن محمد ﷺ نحو الأربعين، حببت إليه العزلة، فكان يعتزل في غار حراء، يتعبد فيه، ويتأمل هذا الكون الفسيح، وفي يوم من الأيام كان رسول الله ﷺ يتعبد في غار حراء، فجاء جبريل، وقال له: اقرأ.. فقال له محمد ﷺ: ما أنا بقارئ. فأخذه جبريل فضمه ضمًا شديدًا ثم أرسله وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. فأخذه جبريل ثانية وضمه إليه ضمًا شديدًا، وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال له جبريل: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [١] خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [٢] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ [٣] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [٤] عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:١-٥) [متفق عليه].

فكان هذا الحادث هو بداية الوحي، ولكن رسول الله ﷺ خاف مما حدث له،

فذهب إلى خديجة وطلب منها أن تغطيه، ثم حكى لها ما حدث، فطمأنته، وأخبرته أن الله لن يضيعه أبدًا، ثم ذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، وحكى له ما رأى، فبشره ورقة بأنه نبي هذه الأمة، وتمنى أن لو يعيش حتى ينصره، لكن ورقة مات قبل الرسالة، وانقطع الوحي مدة، فحزن رسول الله ﷺ، ثم نزل الوحي مرة ثانية، فقد رأى رسول الله ﷺ جبريل قاعدًا على كرسى بين السماء والأرض، فرجع مسرعًا إلى أهله، وهو يقول: زملونى، زملونى (أي غطوني) فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ [١] قُمْ فَأَنذِرْ [٢] وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ [٣] وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ [٤] وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:١-٥) ثم تتابع الوحي بعد ذلك [البخارى].

وبعد هذه الآيات التي نزلت كانت بداية الرسالة، فبدأ رسول الله ﷺ يدعو الأقربين إلى الإسلام، فكان أول من آمن خديجة زوجته، وأبو بكر صديقه، وعلي بن أبى طالب ابن عمه، وزيد بن حارثه مولاه، ثم تتابع الناس بعد ذلك في دخول الإسلام، وأنزل الله -سبحانه- على رسوله ﷺ قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤) فكان الأمر من الله أن يجهر رسول الله ﷺ بالدعوة، فجمع أقاربه أكثر من مرة، وأعلمهم أنه نبي من عند الله -عز وجل-.

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر:٩٤) قام رسول الله ﷺ يستنكر عبادة الأصنام، وما عليه الناس من الضلالة، وسمعت قريش بما قاله الرسول ﷺ فأخذتهم الحمية لأصنامهم التي لا تضر ولا تنفع، وحاولوا أن يقفوا ضد هذه الدعوة الجديدة بكل وسيلة، فذهبوا إلى أبى طالب، وطلبوا منه أن يسلم لهم الرسول ﷺ فرفض، وكانوا يشوهون صورته للحجاج مخافة أن يدعوهم، وكانوا يسخرون من الرسول ﷺ ومن القرآن، ويتهمونه بالجنون والكذب، لكن باءت محاولاتهم بالفشل، فحاول بعضهم تأليف شيء كالقرآن فلم يستطيعوا، وكانوا يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الإيذاء كي يردوهم عن الإسلام، فكانت النتيجة أن تمسك المسلمون بدينهم أكثر.

وكان الرسول ﷺ يجتمع بالمسلمين سرًا في دار الأرقم بن أبى الأرقم يعلمهم أمور الدين، ثم أمرهم بعد فترة أن يهاجروا إلى الحبشة، فهاجر عدد من المسلمين إلى الحبشة،

فأرسلت قريش إلى النجاشي يردهم، لكن الله نصر المسلمين على الكفار؛ فرفض النجاشي أن يسلم المسلمين وظلوا عنده في أمان يعبدون الله عز وجل، وحاول المشركون مساومة أبى طالب مرة بعد مرة بأن يسلم لهم محمدًا إلا أنه أبى إلا أن يقف معه، فحاولوا قتل النبي ﷺ إلا أن الله منعه وحفظه.

وفي هذه الأوقات العصيبة أسلم حمزة وعمر بن الخطاب، فكانا منعة وحصنًا للإسلام، ولكن المشركين لم يكفوا عن التفكير في القضاء على رسول الله ﷺ، ولما علم أبو طالب بذلك جمع بني هاشم وبني عبدالمطلب واتفقوا على أن يمنعوا الرسول ﷺ من أن يصيبه أذى، فوافق بنو هاشم وبنو عبدالمطلب مسلمهم وكافرهم إلا أبا لهب، فإنه كان مع قريش، فاتفقت قريش على مقاطعة المسلمين ومعهم بنو هاشم وبنو عبدالمطلب، فكان الحصار في شعب أبى طالب ثلاث سنوات، لا يتاجرون معهم، ولا يتزوجون منهم، ولا يجالسونهم ولا يكلمونهم، حتى قام بعض العقلاء، ونادوا في قريش أن ينقضوا الصحيفة التي كتبوها، وأن يعيدوا العلاقة مع بني هاشم وبني عبدالمطلب، فوجدوا الأرضة أكلتها إلا ما فيها من اسم الله.

وتراكمت الأحزان فيما بعد لوفاة أبى طالب عم النبي ﷺ وزوجه خديجة بنت خويلد، فقد ازداد اضطهاد وتعذيب المشركين، وفكَّر الرسول ﷺ أن يخرج من مكة إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام، إلا أنهم كانوا أشرارًا، فأهانوا النبي ﷺ وزيد ابن حارثة الذي كان معه، وأثناء عودته بعث الله -عز وجل- إليه نفرًا من الجن استمعوا إلى القرآن الكريم، فآمنوا.

وأراد الله -سبحانه- أن يخفف عن الرسول ﷺ فكانت رحلة الإسراء والمعراج، والتي فرضت فيها الصلاة، خمس صلوات في اليوم والليلة واطمأنت نفس النبي ﷺ بهذه الرحلة، ليبدأ من جديد الدعوة إلى الله، وقد علم أن الله معه لن يتركه ولا ينساه، فكان رسول الله ﷺ يخرج في موسم الحج يدعو الناس إلى الإيمان بالله وأنه رسول الله، فآمن له في السنة العاشرة من النبوة عدد قليل، ولما كانت السنة الحادية عشرة من النبوة أسلم ستة

أشخاص من يثرب كلهم من الخزرج، وهم حلفاء اليهود، وقد كانوا سمعوا من اليهود بخروج نبي في هذا الزمان، فرجعوا إلى أهليهم، وأذاعوا الخبر بينهم.

وعادوا العام القادم وهم اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة ممن حضر العام الماضي وبايعوا رسول الله ﷺ وعرفت هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى فرجعوا وأرسل الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير ليعلمهم أمور دينهم، وقد نجح مصعب بن عمير نجاحًا باهرًا، فقد استطاع أن يدعوا كبار المدينة من الأوس والخزرج، حتى آمن عدد كبير منهم، وفي السنة الثالثة عشرة من النبوة، جاء بضع وسبعون نفسًا من أهل يثرب في موسم الحج، والتقوا برسول الله ﷺ وبايعوه بيعة العقبة الثانية، وتم الاتفاق على نصرة الإسلام والهجرة إلى المدينة.

وأمر الرسول ﷺ بعدها الصحابة أن يهاجروا إلى يثرب، فهاجر من قدر من المسلمين إلى المدينة، وبقى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلى وبعض الضعفاء ممن لا يستطيعون الهجرة، وسمعت قريش بهجرة المسلمين إلى يثرب، وأيقنت أن محمدًا ﷺ لابد أن يهاجر، فاجتمعوا في دار الندوة لمحاولة القضاء على رسول الله ﷺ لكن الله -سبحانه- نجَّاه من مكرهم، وهاجر هو وأبو بكر بعد أن جعل عليًّا مكانه ليرد الأمانات إلى أهلها.

وهاجر الرسول ﷺ هو وأبو بكر إلى المدينة، واستقبلهما أهل المدينة بالترحاب والإنشاد، لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الدعوة، وهي المرحلة المدنية، بعد أن انتهت المرحلة المكية، وقد وصل الرسول ﷺ المدينة يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١هـ/ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م) ونزل في بني النجار، وعمل رسول الله ﷺ على تأسيس دولة الإسلام في المدينة، فكان أول ما صنعه أن بنى المسجد النبوي، ليكون دار العبادة للمسلمين، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، كما كتب الرسول ﷺ معاهدة مع اليهود الذين كانوا يسكنون المدينة.

وبدأ رسول الله ﷺ يعتني ببناء المجتمع داخليًّا، كي يكون صفًّا واحدًا يدافع عن الدولة الناشئة، ولكن المشركين بمكة لم تهدأ ثورتهم، فقد أرسلوا إلى المهاجرين أنهم

سيأتونهم كي يقتلوهم، فكان لابد من الدفاع، فأرسل رسول الله ﷺ عددًا من السرايا، كان الغرض منها التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، وعقد المعاهدات مع القبائل المجاورة وإشعار كل من مشركي يثرب واليهود وعرب البادية والقرشيين أن الإسلام قد أصبح قويًا.

وكانت من أهم السرايا التي بعثها رسول الله ﷺ قبل غزوة بدر سرية سيف البحر، وسرية رابغ، وسرية الخرار، وسرية الأبواء، وسرية نخلة، وفي شهر شعبان من السنة الثانية الهجرية فرض الله القتال على المسلمين، فنزلت آيات توضح لهم أهمية الجهاد ضد أعداء الإسلام، وفي هذه الأيام أمر الله -سبحانه- رسوله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وكان هذا إيذانًا ببدء مرحلة جديدة في حياة المسلمين خاصة، والبشرية عامة.

بعد فرض الجهاد على المسلمين، وتحرش المشركين بهم، كان لابد من القتال فكانت عدة لقاءات عسكرية بين المسلمين والمشركين، أهمها: غزوة بدر الكبرى في العام الثاني الهجري، وكانت قريش قد خرجت بقافلة تجارية كبيرة على رأسها أبو سفيان بن حرب، وقد خرج رسول الله ﷺ في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً لقصد هذه القافلة، لكن أبا سفيان كان يتحسس الخبر فأرسل رجلا إلى قريش يعلمهم بما حدث، ثم نجح هو بعد ذلك في الإفلات بالعير والتجارة، واستعدت قريش للخروج، فخرج ألف وثلاثمائة رجل، وأرسل أبو سفيان إلى قريش أنه قد أفلت بالعير، إلا أن أبا جهل أصر على القتال، فرجع بنو زهرة وكانوا ثلاثمائة رجل، واتجه المشركون ناحية بدر، وكان المسلمون قد سبقوهم إليها بعد استطلاعات واستكشافات.

وبدأت الحرب بالمبارزة بين رجال من المشركين ورجال من المهاجرين، قُتِل فيها المشركون، وبدأت المعركة، وكتب الله -عز وجل- للمسلمين فيها النصر وللكفار الهزيمة، وقد قتل المسلمون فيها عددًا كبيرًا، كما أسروا آخرين، وبعد غزوة بدر علم الرسول ﷺ أن بني سليم من قبائل غطفان تحشد قواتها لغزو المدينة، فأسرع رسول الله ﷺ في مائتي رجل

وهاجمهم في عقر دارهم، ففروا بعد أن تركوا خمسمائة بعير استولى عليها المسلمون، وكانت هذه الغزوة في شوال (٢هـ) بعد بدر بسبعة أيام، وعرفت بغزوة بني سليم.

ورأت اليهود في المدينة نصر الرسول ﷺ فاغتاظوا لذلك، فكانوا يثيرون القلاقل، وكان أشدهم عداوة بنو قينقاع، فجمع الرسول ﷺ اليهود بالمدينة ونصحهم وعرض عليهم الإسلام، إلا أنهم أبدوا استعدادهم لقتال المسلمين، فكظم الرسول ﷺ غيظه، حتى تسبب رجل من بني قينقاع في كشف عورة امرأة، فقتله أحد المسلمين، فقتل اليهود المسلم فحاصر رسول الله ﷺ بني قينقاع، ثم أجلاهم عن المدينة بسبب إلحاح عبدالله بن أبى بن سلول.

وفي ذي الحجة سنة (٢هـ) خرج أبو سفيان في نفر إلى المدينة، فأحرق بعض أسوار من النخيل، وقتلوا رجلين، وفروا هاربين، فخرج الرسول ﷺ في أثرهم، إلا أنهم ألقوا ما معهم من متاع حتى استطاعوا الإسراع بالفرار وعرفت هذه الغزوة بغزوة السويق، كما علم الرسول ﷺ أن نفرًا من بني ثعلبة ومحارب تجمعوا يريدون الإغارة على المدينة، فخرج لهم الرسول ﷺ حتى وصل إلى المكان الذي تجمعوا فيه، وكان يسمى بـ(ذي أمر) ففروا هاربين إلى رءوس الجبال، وأقام الرسول ﷺ شهرًا ليرهب الأعراب بقوة المسلمين، وكانت هذه الغزوة في أوائل صفر سنة (٣هـ).

وفي جمادى الآخرة سنة (٣هـ) خرجت قافلة لقريش بقيادة صفوان بن أمية ومع أن القافلة اتخذت طريقًا صعبًا لا يعرف، إلا أن النبأ قد وصل إلى المدينة وخرجت سرية بقيادة زيد بن حارثة، استولت على القافلة وما فيها من متاع، وفر صفوان بن أمية ومن معه، اغتاظ كفار مكة مما حدث لهم في غزوة بدر، فاجتمعوا على الاستعداد لقتال المسلمين، وقد جعلوا القافلة التي نجا بها أبو سفيان لتمويل الجيش واستعدت النساء المشركات للخروج مع الجيش لتحميس الرجال، وقد طارت الأخبار إلى المدينة باستعداد المشركين للقتال، فاستشار الرسول ﷺ الصحابة، وأشار عليهم -بدءًا- أن يبقوا في المدينة، فإن عسكر المشركون خارجها، فإنهم لن ينالوا منهم شيئًا، وإن غزوا المدينة، قاتلوهم قتالاً شديدًا.

إلا أن بعض الصحابة ممن لم يخرج مع الرسول ﷺ للقتال في بدر، أشاروا على الرسول ﷺ الخروج من المدينة، وكان على رأس المتحمسين للخروج حمزة بن عبدالمطلب، ولبس رسول الله ﷺ لبس الحرب، وخرج الجيش وفيه ألف مقاتل، واتخذ رسول الله ﷺ مكانًا قريبًا من العدو عند جبل أحد، وما كاد وقت المعركة أن يبدأ حتى تراجع عبدالله بن أبي سلول بثلث الجيش، بزعم أن الرسول ﷺ قد أكره على الخروج، وما أراد بفعلته إلا بث الزعزعة في صفوف المسلمين، وبقي من الجيش سبعمائة مقاتل، وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف مقاتل.

واتخذ الرسول ﷺ مكانًا متميزًا في المعركة، وجعل بعض المقاتلين في الجبل، وهو ما عرف فيما بعد بجبل الرماة، وأمّر عليهم عبدالله بن جبير وأمرهم أن يحموا ظهور المسلمين، وألا ينزلوا مهما كان الأمر، سواء انتصر المسلمون أم انهزموا، إلا إذا بعث إليهم الرسول ﷺ، بدأت المبارزة بين الفريقين، وقتل فيها المسلمون عددًا من المشركين، وكان معظمهم ممن كانوا يحملون لواء المشركين، حتى ألقى اللواء على الأرض، واستبسل المسلمون وقاتلوا قتالا شديدًا، واستبسل من كانوا على الجبل.

إلا أنهم لما رأوا المسلمين يجمعون الغنائم نزلوا، فذكرهم قائدهم عبدالله بن جبير إلا أنهم لم يسمعوا له، ولاحظ خالد بن الوليد، فرجع بمن كان معه، وطوق جيش المسلمين، واضطربت الصفوف، وقتل المشركون من المسلمين سبعين رجلاً واقتربوا من رسول الله ﷺ الذي أصيب ببعض الإصابات، والذي حاول المشركون قتله لولا بسالة بعض الصحابة ممن دافع عنه، وقد أشيع قتل النبي ﷺ.

ثم انتشر بين المسلمين كذب الخبر، فتجمعوا حوله ﷺ، واستطاع الرسول ﷺ أن يخترق طريقًا وينجو بمن معه، وصعدوا الجبل، وحاول المشركون قتالهم، إلا أنهم لم يستطيعوا، فرجعوا وخشى رسول الله ﷺ أن يرجع المشركون، فخرج بمن كان معه في غزوة أحد فحسب، ولم يقبل غيرهم إلا عبدالله بن جابر فقد قبل عذره.

وخرج الرسول ﷺ والصحابة حتى وصلوا إلى حمراء الأسد، وقد أقبل معبد بن أبى

معبد الخزاعي وأسلم، فأمره الرسول ﷺ بمخادعة أبى سفيان إن كان قد أراد الرجوع لحرب المسلمين، وفي طريق العودة اتفق المشركون على الرجوع، فقابلهم معبد بن أبى معبد الخزاعي، ولم يكن أبو سفيان قد علم بإسلامه، فقال له: إن محمدًا ﷺ قد جمع جيشًا كبيرًا لقتالكم، كى يستأصلكم، فارجعوا، وأحدثت هذه الكلمات زعزعة في صفوف المشركين.

وبعد غزوة أحد، بعث رسول الله ﷺ بعض السرايا لتأديب من يريد أن يعتدي على المسلمين، كسرية أبى سلمة في هلال شهر المحرم سنة (٤هـ) إلى بني أسد بن خزيمة، وبعث عبدالله بن أنيس لخالد بن سفيان الذي أراد حرب المسلمين، فأتى عبدالله بن أنيس برأسه لرسول الله ﷺ، وفي بعث الرجيع قتل بعض الصحابة، وفي السنة نفسها، بعث الرسول ﷺ بعض الصحابة لأهل نجد، ليدعوهم إلى الإسلام، وفي الطريق عند بئر معونة أحاط كثير من المشركين بالمسلمين، وقتلوا سبعين من الصحابة، ولما بلغ الرسول ﷺ ذلك الخبر، حزن حزنًا شديدًا، ودعا على المشركين.

وكانت يهود بني النضير يراقبون الموقف، ويستغلون أى فرصة لإشعال الفتنة وكان بعض الصحابة قد قتلوا اثنين خطأ معهما عهد من رسول الله ﷺ، وكان من بنود الميثاق بين الرسول ﷺ وبين اليهود، أن يساعد كل من الطرفين الآخر في دفع الدية، فلما ذهب الرسول ﷺ إليهم حاولوا قتله، إلا أن الله سبحانه حفظه وأرسل إليه جبريل، يخبره بما يريدون، فبعث إليهم الرسول ﷺ أن يخرجوا، ولكن عبدالله بن أبى وعدهم بالمساعدة، فرفضوا الخروج، وحاصرهم رسول الله ﷺ بضعة أيام، وبعدها قرروا الخروج على أن يأخذوا متاعهم، واستثنى رسول الله ﷺ سلاحهم، فأخذه، وأخذ أرضهم وديارهم، فتفرق يهود بني النضير في الجزيرة.

وفي شعبان من العام الرابع الهجري خرج الرسول ﷺ في ألف وخمسمائة من أصحابه، لملاقاة أبى سفيان والمشركين، كما اتفقوا في غزوة أحد إلا أن أبا سفيان خاف، فتراجع هو وجيشه خوفًا من المسلمين، ويسمى هذا الحادث بغزوة بدر الصغرى أو بدر الآخرة، وطارت الأنباء إلى الرسول ﷺ أن القبائل حول دومة الجندل تحشد جيشًا لقتال



المسلمين، فخرج رسول الله ﷺ في جيش من أصحابه، وفاجأهم، ففروا هاربين وكان ذلك في أواخر ربيع الأول سنة (٥هـ) وبذا فقد استطاع الرسول ﷺ أن يصد كل عدوان، حتى يتسنى له الأمر لتبليغ دعوة الله.

ولم تنس اليهود تلك الهزائم التي لحقت بها، لكنها لا تستطيع مواجهة الرسول ﷺ فأخذت يهود بني النضير يألبون المشركين في مكة وغيرها على رسول الله ﷺ، حتى اجتمع عشرة آلاف مقاتل، وقد علم الرسول ﷺ بذلك، فاستشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق، فحفر الرسول ﷺ والصحابة الخندق شمال المدينة، لأنه الجهة الوحيدة التي يمكن أن يأتي الأعداء منها.

وذهب زعيم بني النضير حيي بن أخطب إلى زعيم بني قينقاع المتحالفة مع الرسول ﷺ، وجعله ينقض العهد، إلا أن الله حمى المسلمين وحفظهم فقد أسلم نعيم بن مسعود الذي أوقع الدسيسة بين اليهود وقريش، وجعل كلا منهم يتشكك في الآخر، وأرسل الله عليهم ريحًا شديدة دمرت خيامهم، وأطفأت نيرانهم؛ فاضطروا إلى الرحيل والفرار، وقال بعدها الرسول ﷺ: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا) وسميت هذه الغزوة بغزوة الخندق أو الأحزاب، وكانت في العام الخامس الهجري.

وقبل أن يخلع رسول الله ﷺ وأصحابه ملابس الحرب، جاءه جبريل، وأمره بأن يذهب لغزو بني قريظة هو وأصحابه، فتحرك الجيش الإسلامي وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل وحاصر الرسول ﷺ بني قريظة فعرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث اقتراحات؛ إما أن يسلموا فيأمنوا على أنفسهم، وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم، ثم يخرجوا لقتال المسلمين، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه يوم السبت؛ لكنهم لم يجيبوه إلى شيء من ذلك.

ولم يبق لهم بعد الرفض إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فبعثوا إلى أبى لبابة بن المنذر-وكان من حلفائهم قبل إسلامه- ليخبرهم عن حكم رسول الله ﷺ، فلما رأى أبو لبابة بني قريظة رق قلبه إليهم، وأشار إليهم بيده إلى حلقه كناية عن القتل، وعلم أبو لبابة

أنه خان الله ورسوله، فذهب إلى مسجد النبي ﷺ وربط نفسه، وأقسم ألا يفكه أحد إلا الرسول ﷺ.

ونزلت اليهود على حكم رسول الله ﷺ، واتفق أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، فحكم سعد بأن يقتل الرجال، وتسبى النساء والذراري، وكان هذا حكم الله فيهم، وكانت الغزوة في ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وبعد غزوة بني قريظة بعث رسول الله ﷺ جماعة من الأنصار قتلوا سلام بن أبي الحقيق، وذلك أنه كان من اليهود الذين أثاروا الأحزاب ضد المسلمين.

وفي شعبان من العام السادس الهجري علم رسول الله ﷺ أن زعيم بني المصطلق جمع قومه ومن قدر عليه من العرب لقتال المسلمين، فتأكد رسول الله ﷺ من الخبر، وخرج في عدد من الصحابة، حتى وصل ماء المريسيع، ففر المشركون، واستولى المسلمون على أموالهم وذراريهم، وفي هذه الغزوة كانت حادثة الإفك التي افتُرى فيها على السيدة عائشة، واتهمت بالخيانة، فأنزل الله -سبحانه- براءتها في قرآن يتلى إلى يوم القيامة.

وقد أراد المنافقون أن يدسوا الفتنة بين المسلمين بعد الانتهاء من الحرب، فقال عبدالله بن أبي: ليخرجن الأعز منها الأذل (يعنى الأعز هو، والأذل رسول الله ﷺ) فقام ابنه عبدالله بن عبدالله بن أبى بالاعتذار لرسول الله ﷺ ومنع أباه من دخول المدينة، وقال له: رسول الله هو الأعز وأنت الأذل.

وفي هذا العام السادس من الهجرة رأى رسول الله ﷺ في المنام أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا فكانت بشرى من الله، بفتح مكة فيما بعد، واستعد الرسول ﷺ للعمرة وخرج معه عدد كبير من المسلمين، ولما سمعت بذلك قريش، استعدت للحرب وساق الرسول ﷺ الهدي؛ دلالة على عدم نية الحرب، وبعث الرسول ﷺ عثمان بن عفان، ليرى رأي قريش.

واحتجزت قريش عثمان فترة، وأشيع نبأ قتله، وبايع الصحابة الرسول ﷺ بيعة الرضوان، وظلت المراسلات بين الرسول ﷺ وبين قريش، انتهت بأن أرسلت قريش

سهيل بن عمرو ليعقد صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ، وكان من ضمن بنوده وقف الحرب بين الفريقين عشر سنين، وللقبائل أن تدخل في حلف النبي ﷺ، أو في حلف قريش، وأنه من فر من المسلمين إلى قريش لا ترده قريش، ومن فر من قريش إلى الرسول ﷺ يرده الرسول ﷺ.

ومع أن الظاهر في بعض بنود هذه المعاهدة الظلم، إلا أنها أتاحت الفرصة لانتشار الإسلام، واعتراف قريش بالمسلمين كقوة، فدخل عدد كبير الإسلام.. بعد هذه الهدنة، أسلم بعض أبطال قريش؛ كعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، وأرسل رسول الله ﷺ إلى الأمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام، ليعلن أن الإسلام جاء للناس جميعًا، وليس مقصورًا على شبة الجزيرة العربية.

وبعد صلح الحديبية قامت بعض الغزوات؛ كغزوة ذي قرد، وكانت ردًّا على بعض بني فزارة الذين أرادوا القيام بعمل القرصنة ضد المسلمين، وقد أبلى فيها سلمة بن الأكوع بلاءً حسنًا، وبعد تلك الانتصارات التي قام بها المسلمون كان لابد من تأديب من كان السبب في كثير من الحروب، وهم يهود خيبر، أولئك الذين جمعوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ للقتال، فخرج رسول الله ﷺ بمن بايع معه تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، حتى وصلوا قرب خيبر، وقد كانت كلها حصونًا، ففيها ثمانية حصون كبيرة منيعة واستبسل الرسول ﷺ والمسلمون حتى منَّ الله عليهم بفتح هذه الحصون، وأصبح اليهود صاغرين، وصالحهم رسول الله ﷺ على أن يبقى لهم الأرض ليزرعوها على أن يكون لهم نصف الثمار، وللمسلمين نصفها، وكانت غزوة خيبر في العام السابع الهجري.

وبعد هذه الغزوة جاء جعفر بن أبي طالب ومن معه من الحبشة إلى المدينة، وفرح الرسول ﷺ بعودتهم، كما تزوج الرسول ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب بعد أن أسلمت، وقد كانت من السبي، وبعد خيبر صالح يهود فدك الرسول ﷺ كما صالحه أهل خيبر، كما حارب رسول الله ﷺ بعض اليهود ومن انضم إليهم من العرب عند وادي القرى، وفتحها رسول الله ﷺ، وقسم الغنائم على أصحابه، أما النخل والأرض فقد عاملهم كما عامل أهل

خيبر، ولما علم يهود تيماء بذلك بعثوا إلى رسول الله ﷺ ، فكتب لهم كتابًا، يدفعون بمقتضاه الجزية للمسلمين وبعد هذه الحروب والانتصارات رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

وبعد أن أدَّب رسول الله ﷺ المنافقين واليهود، خرج الرسول ﷺ في غزوة ذات الرقاع حتى استطاع تأديب الأعراب، وكان لهذه الغزوة أثرها في قذف الرعب في قلوب الأعراب، وبذا استطاع الرسول ﷺ أن يقضى على الأحزاب، ليتفرغ لنشر الدعوة الإسلامية، وكانت هذه الغزوة في العام السابع الهجري..

وفي ذي القعدة من السنة السابعة من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة لأداء عمرة القضاء، وكان الرسول ﷺ قد بعث الحارث بن عمير الأزدي إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى عامل البلقاء من أرض الشام، من قبل قيصر، فأمسك الحارث، وأوثقه ثم قتله، فأمر الرسول ﷺ الصحابة بالخروج لتأديب هؤلاء، فخرج ثلاثة آلاف مقاتل، وقد جعل الرسول ﷺ الراية لزيد ثم لجعفر إن قتل، ثم لعبد الله بن رواحة، واتجه الجيش ناحية العدو حتى وصل إلى مكان يقال له (مؤتة) وفوجئ الجيش بأن جيش العدو عدده مائتا ألف مقاتل مقابل ثلاثة آلاف واستقر الأمر على الجهاد.

وقاتل المسلمون واستبسلوا، فقتل القائد زيد بن حارثة، ثم قتل جعفر ثم قتل ابن رواحة بعد قتال عنيف، ثم اتفق أن تكون الراية لخالد بن الوليد الذي استطاع إنقاذ الجيش، وإرهاب الأعداء مع كثرة عددهم، ففي اليوم الثانى للقتال غير تنظيم الجيش، حتى ظن الروم أن المسلمين جاءهم مدد، فلم يلاحقوهم، بينما انسحب خالد بالجيش بمهارة كبيرة، ولم يقتل في هذه الغزوة إلا اثنا عشر رجلاً من المسلمين، وكانت في العام الثامن الهجري.

وقد علم رسول الله ﷺ أن بعض القبائل العربية قد انضمت إلى الرومان، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في جيش لتأديبهم، فلما ذهب عمرو ورأى كثرة عدد المشركين أرسل إلى الرسول ﷺ يطلب مددًا، فبعث إليه بأبي عبيدة في مائتى رجل،

واستطاع المسلمون هزيمة تلك القبائل، وعرفت هذه الحرب بسريَّة ذات السلاسل، وكانت بعد غزوة مؤتة في جمادى الآخرة في العام الثامن الهجرى.

وحدث أن اعتدت بنو بكر -وكانت قد دخلت في حلف قريش حسب اتفاق الحديبية- على خزاعة التي دخلت في حلف النبي ﷺ، وجاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى رسول الله ﷺ يستنصره، فقال له النبي: (نصرت يا عمرو بن سالم) وعلمت قريش أنها نقضت العهد، فذهب أبو سفيان إلى المدينة ليسترضي رسول الله ﷺ، ولكنه رجع دون فائدة، وتجهز الرسول ﷺ في عشرة آلاف مقاتل من الصحابة لغزو مكة دون أن تعلم قريش بذلك، وفي هذه الأثناء أسلم أبو سفيان، ولما قرب الرسول ﷺ من مكة كان أبو سفيان قد رجع ليخبر القوم.

ودخل الرسول ﷺ وأصحابه مكة منتصرين فاتحين، واتجه الرسول ﷺ والصحابة خلفه ناحية المسجد الحرام، فاستلم الرسول ﷺ الحجر الأسود وطاف بالبيت، وهدم الأصنام التي كانت حول الكعبة، ثم نادى عثمان بن طلحة وأخذ منه مفتاح الكعبة فدخلها فوجد فيها صورًا فمحاها، وخطب الرسول ﷺ في قريش، ثم قال لهم: ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم.. فقال: فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته {لا تثريب عليكم اليوم} اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ثم رد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وكان قد حان وقت الصلاة، فأمر بلال أن يصعد الكعبة، فصعدها وأذن، وأهدر الرسول ﷺ دم بعض من أكابر المجرمين الذين عذبوا المسلمين وآذوهم، فقتل بعضهم وأسلم بعضهم، ثم أخذ الرسول ﷺ البيعة ممن أسلم من الرجال، ثم أخذ البيعة من النساء، وأقام الرسول تسعة عشر يومًا في مكة يجدد معالم الإسلام فيها، وبعث نفرًا من أصحابه لهدم الأصنام التى كان منتشرة في مكة، وقد كان فتح مكة في العام الثامن من الهجرة.

وقد كان فتح مكة مرحلة فاصلة في تاريخ الإسلام، فقد كان لقريش مكانة عظيمة بين القبائل العربية، فلما رأت القبائل قريشا دخلت الإسلام، أسرعت القبائل تدخل في

دين الله أفواجًا، ولكن مسيرة الجهاد لم تقف، فلقد أبت بعض القبائل العربية أن تدخل الدين الجديد، وألا تستسلم كما استسلمت القبائل الأخرى، وكان من بين هذه القبائل هوازن وثقيف، وانضمت بعض القبائل الأخرى تحت قيادة مالك بن عوف، وخرج الجيش الإسلامي ناحية (حنين) وكان مالك بن عوف قد سبقهم إليها، ووزَّع الجيش في الوادي، ولما نزل المسلمون الوادي رشقهم العدو بالنبال، حتى تقهقرت كتائب المسلمين، لكن الرسول ﷺ جمع شمل المسلمين الفارين وأعاد للجيش انتظامه، وحاربوا العدو، ونصرهم الله عليهم وغنموا غنائم كثيرة، وتفرق العدو إلى الطائف ونخلة وأوطاس.. وغير ذلك من الأماكن، وقد كانت هذه الغزوة في شوال من العام الثامن الهجري.

وعلم الرسول ﷺ أن معظم جيش هوازن وثقيف دخلوا الطائف، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في آخر شوال وحاصرهم حصارًا شديدًا عدة أيام، وبعدها رفع الرسول ﷺ الحصار عنهم فقال له بعض الصحابة: يا رسول الله، ادع على ثقيف، فقال: اللهم أهد ثقيفًا وائت بهم، وقسم الرسول ﷺ الغنائم، وبعد تقسيم الغنائم جاء وفد هوازن مسلمين، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرد عليهم غنائمهم، فطلب الرسول ﷺ من الصحابة رد الغنائم لوفد هوازن، فاستجابوا لأمر الرسول ﷺ، بعدها اعتمر الرسول ﷺ ثم رجع إلى المدينة.

وفي العام التاسع من الهجرة، سمع الرسول ﷺ أن الرومان تستعد للقاء المسلمين، وقد تجمع معها بعض القبائل العربية من النصارى، فأعلن رسول الله ﷺ أنه خارج لقتال الروم، ودعا إلى الجهاد والإنفاق، وأنفق الصحابة من أموالهم الكثير، ولم يتخلف عن هذه الغزوة إلا المنافقون وثلاثة من المؤمنين، وقد كان هذا الوقت شديد الحر، إلا أن المسلمين جاهدوا أنفسهم في الخروج للجهاد، ولم يكف الزاد، وسمي هذا الجيش بجيش العسرة، وخرج الرسول ﷺ في رجب من العام التاسع الهجري تجاه تبوك، حتى وصل إليها وعسكر فيها خمسين يومًا.

ولما سمع الروم به خافوا، فلم يخرجوا لقتال المسلمين، وجاء إليه بعض الرومان واصطلحوا معه على دفع الجزية، وانتشر الخبر في الجزيرة العربية، فازداد الإسلام قوة إلى

قوته، ورجعت إليه القبائل التى كانت تنوى الاحتماء بالرومان، وعاد الرسول ﷺ في رمضان من هذه السنة مظفرًا منتصرًا، وفي هذه السنة توفي النجاشى ملك الحبشة، وصلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب، كما توفيت أم كلثوم بنت النبي ﷺ ومات رأس المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول.

وفي ذي الحجة من العام التاسع الهجري بعث الرسول ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج، فحج بالمسلمين، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا، فأتت القبائل إلى الرسول ﷺ متتالية متتابعة معلنة إسلامها لله، وفي ذي الحجة من العام العاشر الهجري خرج الرسول ﷺ إلى مكة وحج بالناس حجة الوداع، بعد أن أعلمهم أمور الدين، وخطب فيهم خطبة وضع فيها الأسس التي يسيرون عليها في حياتهم استكمالا للرسالة التي جاء بها إلى الناس.

وفي أوائل صفر من العام الحادي عشر الهجري خرج النبي ﷺ إلى أحد، وصلى على الشهداء كأنه يودعهم، وفي ليلة من الليالي خرج إلى البقيع فاستغفر للموتى، ومرض رسول الله ﷺ، ولما اشتد عليه المرض أمر أبا بكر أن يصلى بالناس، وفي هذه الأيام كان الرسول يخرج للناس إذا وجد خفة في نفسه، فخرج إليهم ذات مرة، فوعظهم وذكرهم، وألمح بأن أجله قد اقترب، ولم يفهم ذلك من الصحابة إلا أبو بكر، وقبل أن يتوفى النبي ﷺ بيوم أعتق غلمانه، وتصدق بسبعة دنانير كانت عنده.

وفي اليوم الأخير من مرض النبي ﷺ، وفي فجر يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر من الهجرة كان الرسول ﷺ في حجرة عائشة، فرفع الستار ورأى المسلمين يصلون الفجر، فتبسم وفي وقت الضحى صعدت الروح الطاهرة الزكية إلى ربها بعدما أدت ما عليها فحزن الصحابة -رضوان الله عليهم- حزنًا شديدًا لوفاة النبي ﷺ، وغسلوا الجسد الشريف ليلة الثلاثاء من غير أن يجردوا الرسول ﷺ من الثياب، وحُفر قبره ﷺ في حجرته، ودخل الناس جماعات يصلون على النبي ﷺ، بعد ما أدى ما عليه من أمانة الله، فصلوات الله وسلامه عليه.

شواهد النبوة من عالم الجماد والحيوان :

نطق الحجر، وانقاد الشجر، وسبّح الطعام، وحنّ الجذع، واشتكى الجمل)، كلّها عباراتٌ ليست من قبيل المجاز اللغويّ، ولكنّها آياتٌ كريمة ومعجزاتٌ عظيمة سخّرها الله تعالى لتشهد بصدق النبي - ﷺ - في دعوته، وتبيّن حقيقة تأثّر الحيوان والجماد فضلاً عن بني البشر بالقرب منه عليه الصلاة والسلام والاستماع إليه، في أخبار ثابتةٍ بالنصوص الصحيحة التي لا مجال للشكّ فيها .

فمن الجمادات التي أنطقها الله عز وجل لنبيه ﷺ الطعام، وذلك في رحلةٍ سافر فيها النبي - ﷺ - مع بعض أصحابه، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "كنا مع رسول الله - ﷺ - في سفر، فقلّ الماء فقال: (اطلبوا فضلة من ماء)، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله - ﷺ -، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل"... رواه البخاري.

وجاءت عددٌ من نصوص السنة لتثبت تسليم الحجر والشجر وغيرهما من الجمادات على النبي - ﷺ - بصوتٍ يسمعه من كان حاضراً، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول : السلام عليك يا رسول الله "... رواه الترمذي.

وفي حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال: (إني لأعرف حجراً بمكة، كان يُسلِّم عليّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن)... رواه مسلم .

وعندما حاول اليهود أن يقتلوا رسول الله - ﷺ - بالشاة المسمومة التي قدّموها له، أنطقها الله تعالى بقدرته، لتخبره عليه الصلاة والسلام بأنها مسمومة، رواه أبو داود.

ومن معجزات النبي - ﷺ - انقياد الشجر له، فقد روى جابر رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - نزل واديا في إحدى أسفاره، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، وتبعه جابر ليعطيه الماء، ولم يجد النبي - ﷺ - شيئاً يستتر به سوى شجرتين متباعدتين، فانطلق رسول

الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها فقال: (انقادي علي بإذن الله)، فانقادت معه حتى وصل إلى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها وقال: (انقادي علي بإذن الله) فانقادت معه كذلك، ثم أمرهما النبي - ﷺ - أن يلتئما بإذن الله، فلما قضى حاجته وانصرف عادت كل شجرةٍ إلى موضعها، وتفاصيل القصّة مذكورة في صحيح مسلم .

وقد ورد ما يفيد تكرار تلك المعجزة في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله - ﷺ - في سفر، فأقبل عليهم أعرابي، فعرض عليه رسول الله - ﷺ - الإسلام، فقال الأعرابي: "ومن يشهد على ما تقول؟" فقال: (هذه السمرة)، فدعاها رسول الله - ﷺ - وهي بطرف الوادي فأقبلت تشقّ طريقها حتى وقفت بين يديه، فشهدت بصدق نبوّته، ثم عادت إلى موضعها، فأسلم الأعرابي وعاد إلى قومه داعيا لهم... رواه الدارمي .

ولا تقف المعجزات النبويّة عند حدود النطق والكلام والحركة من الجماد، بل امتدّت لتشمل المشاعر والأحاسيس، فجاءت النصوص لتثبت مدى محبّة جبل أحد للنبي - ﷺ -، كما في قوله عليه الصلاة والسلام: (هذا جبل يحبنا ونحبه)... رواه البخاري.

وحين صعد - ﷺ - الجبل بصحبة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم رجف بهم الجبل، فقال النبي - ﷺ -: (اثبت أحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان).

بل جاء في السنّة ما يشير إلى شوق الجمادات إلى النبي - ﷺ - وجزعها من فراقه، فقد روى الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي - ﷺ - كان يخطب الجمعة إلى جذع نخلة، فقال أحدهم: "يا رسول الله، ألا نجعل لك منبرا؟"، فقال: (إن شئتم)، فجعلوا له منبرا، وفي الجمعة التالية وقف على المنبر فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه حتى سكنت، وفي رواية ابن ماجة قال عليه الصلاة والسلام: (لو لم أحتضنه لحنّ إلى يوم القيامة).

أما نطق الحيوان، فتلك معجزةٌ أخرى لنبيّنا عليه الصلاة والسلام، فقد اشتكى إليه جملٌ من ظلم صاحبه له، وذلك عندما دخل عليه الصلاة والسلام بستاناً لأحد الأنصار

كان فيه جملٌ له، فإذا بالجمل تدمع عيناه عند رؤية النبي - ﷺ - ويرفع صوته، ولم يتوقف عن ذلك حتى مسح النبي - ﷺ - على ظهره، وعاتب عليه الصلاة والسلام صاحب الجمل فقال له: (أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها ؟، فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتُدئبه - أي تتعبه -)... رواه أبو داود .

والأعجب من ذلك إخبار الذئب بنبوّته - ﷺ -، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن راعياً رأى ذئباً يريد أن يعتدي على غنمه، فلما منعه من ذلك أنطق الله الذئب فقال: "يا عبد الله، تحول بيني وبين رزق ساقه الله إلي؟"، فوقف الرجل مذهولاً مما سمعه، فقال الذئب: "ألا أخبرك بأعجب مني؟، رسول الله - ﷺ - بين الحرتين - أي في المدينة - يخبر الناس بأنباء ما قد سبق"، فانطلق الرجل إلى النبي - ﷺ - وأخبره بما حصل له، فقال عليه الصلاة والسلام: (صدق والذي نفسي بيده)... رواه الحاكم .

فسبحان من أنطق لنبيه الجماد والحيوان، والحجر والشجر، وجعلها معجزة تدل على صدق نبوته، وصحة دعوته.

مواقف نبوية مع الأطفال :

شاء الله تبارك وتعالى بحكمته وفضله أن يختار نبيه محمداً - ﷺ - من بين البشر، ويصطفيه ويخصه بما لم يخص به أحداً من العالمين، حتى كان - ﷺ - قدوةً للناس في كل شيء، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب :٢١).

فإن نظرت إلى رسول الله - ﷺ - نبياً ورسولاً، وجدته أفضلهم وخاتمهم، وإن نظرت إليه معلماً وجدته أحسن الناس تعليماً وأفصحهم بياناً، وإذا نظرت إليه زوجاً وجدته خير الأزواج لأهله، وأحسنهم معاشرة ومعاملة.. وإن نظرت إليه مقاتلاً، وجدته المقاتل الشجاع، الذي لا يقوم له شيء، ويتقي به أصحابه في الحروب.. وإن نظرت إليه في مواقفه مع الأطفال، وجدته أحسن الناس تربية، وأكثرهم عطفاً وحناناً.

وهذه عدة مواقف من سيرته العطرة - ﷺ - مع الأطفال، تبين مدى حبه ورحمته بالأطفال:

مع ابنه إبراهيم:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (دخلنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ، على أبي سيف القَيْن[1]، وكان ظِئْراً[2] لإبراهيم ـ عليه السلام ـ، فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ إبراهيم فقبله وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ـ ﷺ ـ تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ: وأنت يا رسول الله؟!، فقال: يا ابن عوف إنها رحمة ثم أتبعها بأخرى، فقال ـ ﷺ ـ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)... (رواه البخاري).

وفي رواية مسلم يقول أنس: (والله ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ـ ﷺ ـ).

مع ـ حفيديه ـ الحسن والحسين :

عن عبد الله بن شداد عن أبيه قال: (خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ في إحدى صلاتي العشي، الظهر أو العصر، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدم النبي ـ ﷺ ـ فوضعه ثم كبر للصلاة، فصلى فسجد بين ظهري صلاته سجدة أطالها، قال: إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ـ ﷺ ـ وهو ساجد فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاة، قال الناس يا رسول الله: إنك سجدت بين ظهري الصلاة سجدة أطلتها، حتى ظننا انه قد حدث أمر أوانه يوحى إليك، قال: كل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني (ركب على ظهري) فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته)...(رواه أحمد).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن الأقرع بن حابس أبصر النبي - ﷺ - يقبل الحسن، فقال: (إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول الله - ﷺ -: إنه

---

(١) القيْن: الحداد.

(٢) والظئر: المرضعة، وكانت زوجته ـ أم سيف ـ ترضع إبراهيم.

من لا يَرحم لا يُرْحم)... (رواه مسلم).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: (خرج النبي ـ ﷺ ـ في طائفة النهار لا يكلمني ولا أكلمه، حتى أتى سوق بني قينقاع، فجلس بفناء بيت فاطمة، فقال: أثم لكع أثم لكع (أين الحسن)؟!.. فحبسته شيئا (أخرته) فظننت أنها تلبسه سخابا (قلادة) أو تغسله، فجاء يشتد حتى عانقه وقبله، وقال: اللهم أحبه وأحب من يحبه)... (رواه البخاري).

وهكذا كان الرسول ـ ﷺ ـ يأخذ من وقته لحفيده، يذهب إليه ويتعهده ويقبله، ويضعه في حجره ويدعو له.

موقفه مع ابن أبي موسى الأشعري :

عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: (وُلِد لي غلام فأتيت به النبي ـ ﷺ ـ فسماه إبراهيم، فحنكه بتمرة ودعا له بالبركة ودفعه إليَّ..)... (رواه البخاري).

وكان هذا الولد أكبر أولاد أبي موسى الأشعري، فكان من عادة أصحاب النبي ـ ﷺ ـ إذا وُلِد لأحد منهم ولد أن يأتي به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فيأخذه النبي ويقبله، ويضمه إليه، ويدعو له بالبركة.

مع أبي عمير :

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان لي أخ يقال له أبو عمير، كان إذا جاءنا رسول الله ـ ﷺ ـ قال: يا أبا عمير، ما فعل النُغير [طائر صغير])... (رواه البخاري).

ومع اشتغال النبي ـ ﷺ ـ بأمور الجهاد والدعوة والعبادة وأمور الناس إلا أنه كان يلاطف أطفال الصحابة، ويدخل السرور عليهم ـ، ويسأل الطفل عن طائره.. وهو مَنْ هو ـ ﷺ ـ في علو منزلته وعِظم مسؤولياته.

تقديم النبي ـ ﷺ ـ للطفل في حقه:

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ: (..أن رسول الله ـ ﷺ ـ أُتِيَ بشراب فشرب منه،

وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟، فقال الغلام: لا، والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا، قال: فتلَّه (وضعه في يده) رسول الله ـ ﷺ ـ)... (رواه البخاري).

وفي ذلك إشارة من النبي ـ ﷺ ـ بالاهتمام بالطفل، والتأكيد على إعطائه حقه، وإشعاره بقيمته، وتعويده الشجاعة وإبداء رأيه في أدب، وتأهيله لمعرفة حقه والمطالبة به.

موقفه ـ ﷺ ـ مع الغلام اليهودي:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان غلام يهودي يخدم النبي ـ ﷺ ـ فمرض، فأتاه يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ـ ﷺ ـ وهو يقول الحمد لله الذي أنقذه من النار)... (رواه البخاري).

وفي ذلك دلالة على حرص النبي ـ ﷺ ـ على الطفل، ورحمته وشفقته به ولو كان كافرا.

مع حفيدته أمامه بنت أبي العاص:

لما ماتت أمها زينب أشفق النبي ـ ﷺ ـ عليها وحنَّ لها، فكان يخرج بها أحياناً إلى المسجد فيحملها وهو في الصلاة، فإذا سجد وضعها على الأرض، وإذا قام حملها على كتفه ـ ﷺ ـ.

عن أبي قتادة الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ: (كان يصلي وهو حامل أمامه بنت زينب بنت رسول الله ـ ﷺ ـ، ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها)... (رواه البخاري).

موقفه مع أم خالد:

عن أم خالد بنت خالد ـ رضي الله عنها ـ قالت: (أُتِيَ النبي ـ ﷺ ـ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: من ترون أن نكسو هذه؟، فسكت القوم، فقال: ائتوني بأم خالد،

فأتي بها تُحمل، فأخذ الخميصة بيده فألبسها، وقال: أبلي وأخلقي.. وكان فيها علم أخضر أو أصفر، فقال : يا أم خالد هذا سناه [حسن])... (رواه البخاري).

وكان العرب في الجاهلية يترقبون الأولاد، للوقوف إلى جانبهم ومساندتهم، أما البنت فكان التخوف من عارها يحملهم على كراهتها، حتى بعث الله نبينا - ﷺ - ، فحفظ للبنت حقوقها وأكرمها، ووعد من يرعاها ويحسن إليها بالأجر الجزيل، وجعل حسن تربيتها ورعايتها والنفقة عليها سبب من الأسباب الموصلة إلى رضوان الله وجنته، حتى قال النبي - ﷺ -: (من عال جارتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضم أصابعه)... (رواه مسلم).

وقال - ﷺ -: (من عال ابنتين أو ثلاث بنات، أو أختين أو ثلاث أخوات، حتى يمتن أو يموت عنهن، كنت أنا وهو كهاتين، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى)... (رواه أحمد).

إن الناظر في سيرة وأحاديث النبي - ﷺ - يجد أنه أعطى الطفل نصيبا من وقته، وجانبا كبيرا من اهتمامه، فكان - ﷺ - مع الأطفال أباً حنونا، ومربياً حكيما، يداعب ويلاعب، وينصح ويربي.

فمرحلة الطفولة هي أخصب وأهم فترة يمكن للمربي أن يغرس فيها المبادئ والقيم.. وفي حياة النبي - ﷺ- مواقف كثيرة - تعليمية وتربوية -، تحتاج إلى وقفات من المعنيين بشأن التربية والإصلاح، لاستخراج فوائدها، وقطف ثمارها، والاقتداء بها، والتعامل من خلالها مع أطفال اليوم ورجال الغد والمستقبل.

اليتيم في حياة النبي ﷺ:

اهتم رسول الله - ﷺ - بالمثل العالية والأخلاق السامية، التي تصوغ الحياة في إطار المودة والتعاطف، وتوحد طاقات المجتمع في بوتقة التكافل الاجتماعي.. وقد بين لنا - ﷺ - ما ينبغي أن تكون عليه علاقة المؤمنين بعضهم ببعض، فجعلها مثل البناء المتلاحم الذي

لا خلل فيه، فقال ـ ﷺ ـ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)... رواه البخاري..

وصور لنا النبي ـ ﷺ ـ تلاحم العواطف، وقوة شعور الفرد بإخوانه المسلمين بقوله: (إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس).. رواه أحمد..

ومن ثم فإن رابطة الأخوة بين المسلمين توجب على الموسر منهم مساعدة المعسر، وأي عسر أعظم من اليتم، فاليتم مظهر واضح للضعف، والحاجة إلى المعونة والرفق والرعاية..

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ من أوائل الذين لمسوا آلام اليتيم وأحزانه، ومن ثم اهتم ـ ﷺ ـ باليتيم اهتماماً بالغاً من حيث تربيته ورعايته ومعاملته، وضمان سبل العيش الكريمة له، حتى ينشأ عضواً نافعاً، ولا يشعر بالنقص عن غيره من أفراد المجتمع، فيتحطم ويصبح عضواً هادماً في الحياة.. فقال ـ ﷺ ـ حاثا وآمرا ومحفزا على رعاية اليتيم: (أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً)... رواه البخاري.

قال ابن بطال: "حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي ـ ﷺ ـ في الجنة، ولا منزلة في الآخرة أفضل من ذلك".

وجعل رسول الله ـ ﷺ ـ الإحسان إلى اليتيم علاجا لقسوة القلب، وإن أبعد القلوب عن الله القلب القاسي، فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى النبيَّ ـ ﷺ ـ رجل يشكو قسوة قلبه، فقال له النبي ـ ﷺ ـ: (أتحب أن يلين قلبك وتدرك حاجتك؟، ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يلن قلبك وتدرك حاجتك)... رواه الطبراني.

كما بشر النبي ـ ﷺ ـ من أحسن إلى اليتيم ولو بمسح رأسه ـ ابتغاء وجه الله ـ بالأجر والثواب الكبير، حيث قال ـ ﷺ ـ: (من مسح رأس يتيم ـ لم يمسحه إلا لله ـ كان له بكل

شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده، كنت أنا وهو في الجنة كهاتين)... رواه أحمد.

وهذا التوجيه الذي ذكره الرسول - ﷺ - من مسح شعر اليتيم، هو الحد الذي لا يصعب على أحد، ويمكن أن يقوم به كل إنسان، فيشعر اليتيم بالحب والحنان، ثم هو يجلب له الحسنات.

بل كان رسول الله - ﷺ - يحرص كل الحرص على رعاية مشاعر الأيتام وإدخال السرور عليهم، ففي قصة اختصام أبي لبابة - رضي الله عنه - ويتيم في نخلة، قضى رسول الله - ﷺ - لأبي لبابة بالنخلة لأن الحق كان معه، لكنه - ﷺ - لما رأى الغلام اليتيم يبكي، قال لأبي لبابة: (أعطه نخلتك، فقال: لا، فقال أعطه إياها ولك عذق في الجنة، فقال: لا، فسمع بذلك ابن الدحداحة فقال لأبي لبابة: أتبيع عذقك ذلك بحديقتي هذه؟، فقال نعم.. ثم جاء رسولَ الله - ﷺ - فقال: النخلة التي سألت لليتيم أن أعطيته ألِي بها عذق في الجنة؟!، فقال رسول الله - ﷺ - نعم. ثم قُتِل ابن الدحداحة شهيدا يوم أحد، فقال رسول الله - ﷺ -: رُب عذق مذلل لابن الدحداحة في الجنة)... رواه البيهقي.

وقد مدح النبي - ﷺ - نساء قريش لرعايتهن اليتامى، فقال - ﷺ -: (خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على يتيم في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)... رواه أحمد.

ولما مات جعفر بن أبي طالب - رضي الله عنه - تعهد الرسول - ﷺ - أولاده وأخذهم معه إلى بيته، فلما ذكرت أمهم من يتمهم وحاجتهم، قال - ﷺ -: (العيلة (يعني الفقر والحاجة) تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة)... رواه أحمد.

ثم إن النبي - ﷺ - لم يقتصر في اهتمامه باليتيم على أسلوب الحث والترغيب، بل استخدم أيضا أسلوب التحذير من الإساءة إلى الأيتام، أو أكل أموالهم بالباطل، بحيث لا يُقْدم على فعل ذلك إلا من قسى قلبه، وغلبت عليه شقوته، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: (اجتنبوا السبع الموبقات (المهلكات)، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟، قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل

مـال اليتيم، والتـولي يـوم الزحـف، وقـذف المحـصنات المؤمنـات الغـافلات)... رواه البخاري..

فعدَّ الرسول ـ ﷺ ـ أكل مال اليتيم من السبع الموبقات، ومن كبائر الذنوب وعظائم الأمور..

ولخطورة وعظم حق مـال اليتـيم، وجـه رسـول الله ـ ﷺ ـ مـن كـان ضـعيفاً مـن الصحابة ألا يتولين مال يتيم، فعن أبي ذر – رضي الله عنه – أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: (يا أبا ذر، إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن عـلى اثنـين، ولا تـولين مال يتيم)... رواه مسلم.

وقد ترجم المسلمون الأوائل هذه التوجيهات النبوية ترجمة عملية، ومن ينظر في حـال سلفنا الصالح، يظهر له بوضوح مقدار الحرص على رعاية اليتـيم وكفالتـه، طلبـا وبحثـا عـن ترقيق القلوب والأجر العظيم، ومرافقة النبي ـ ﷺ ـ في الجنة، فهـو القائـل ـ ﷺ ـ: (أنـا وكافـل اليتيم في الجنة هكذا، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً)... رواه البخاري..

طاعته وشدة عبادته ﷺ:

طاعة الله وعبادته من أعظم الصفات التي مـدح الله بهـا عبـاده المـؤمنين، وأكمـل الناس عبادة لله تعالى وطاعة له، رسول الله ﷺ، فقد كان هديه في العبادة هدياً كاملاً لا غلو فيه ولا تقصير، فكانت طاعة الله تعالى صفة ملازمة له في جميع حركاته وسكناته، في قيامـه وقعوده، ونومه وانتباهه وجِده ومزاحه، وفي كل أحواله لا يخرج عن هذا المعنى.

ففي اجتهاده في العبادة تخبرنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (كان يـصوم حتـى نقول إنه لا يفطر..).... رواه البخاري.

أما عن طول قيامه بين يدي الله في صلاة الليل فلهو العجب قال عـوف بـن مالـك رضي الله عنه: قمت مع رسول الله ﷺ فبدأ واستاك وتوضأ، وقام فصلى، فاستفتح بالبقرة، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف وتعوذ. ثـم ركـع فمكـث

راكعاً بقدر قيامه، يقول في ركوعه: سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم سجد بقدر ركوعه يقول في سجوده: سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة، ثم قرأ آل عمران ثم سورة، سورة، فعل مثل ذلك.

وعبادة رسول الله ﷺ مستمرة ومتواصلة، فقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (كان عمل رسول الله ﷺ ديمة وأيكم يطيق ما كان يطيق)... ومعنى قولها ديمة أي يداوم عليه، بل لو فاته شيء من النوافل قضاه.

وبالجملة فهو أكمل الناس عبادة وطاعة فصلوات الله وسلامه عليه. فليكن لنا في عبادته وعمله أسوة لنا، لنسعد في الدنيا والآخرة .

من دلائل النبوة: نبي وصِدِّيق وشهيد:

الموت وما يتعلق به علم اختص الله ـ عز وجل ـ به نفسه، فهو وحده من يعرف أعمار البشر وأماكن قبض أرواحهم وطريقة موتهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ (آل عمران :١٤٥)، وقال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان :٣٤).

وجاءت أدلة تفيد أن الله تعالى استثنى من خلقه من ارتضاه من الرسل فأودعهم ما شاء من غيبه بطريق الوحي إليهم، وجعله معجزة لهم، ودلالة صادقة على نبوتهم، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً [٢٦] إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ (الجن:٢٦-٢٧).

وقد أعلم الله نبيه ـ ﷺ ـ بزمان وكيفية موت بعض أصحابه وآل بيته وغيرهم من أعدائه، وكان وقوع ما أخبر به ـ ﷺ ـ دليلا من دلائل نبوته، وعلما من أعلام رسالته، إذ لا يمكن لأحد معرفة ذلك والإخبار به إلا من قِبَل الله علام الغيوب ..

ومن ذلك: إخباره ـ ﷺ ـ عن عمر وعثمان وعلي وطلحة ـ رضي الله عنهم ـ بأن موتهم لن يكون على فرشهم، بل يموتوا شهداء ..

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله – ﷺ – كان على حراء، هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة فقال رسول الله – ﷺ –: (اهدأ، فما عليك إلا نبي، أو صِدِّيق، أو شهيد)... (رواه مسلم).

فشهد ـ ﷺ ـ لنفسه بالنبوة، ولأبي بكر بالصديقية، ولعثمان وعلي وطلحة بالشهادة ..قال النووي: وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله ـ ﷺ ـ منها: إخباره أن هؤلاء شهداء وماتوا كلهم غير النبي ـ ﷺ ـ وأبي بكر شهداء، فإن عمر وعثمان وعليا وطلحة والزبير ـ رضي الله عنهم ـ قُتِلوا ظلما شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقتل الزبير بوادي السباع بقرب البصرة منصرفا تاركا للقتال، وكذلك طلحة اعتزل الناس تاركا للقتال فأصابه سهم فقتله، وقد ثبت أن من قُتِل ظلما فهو شهيد.

وقد بشر النبي ـ ﷺ ـ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مرة أخرى بالشهادة، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ـ ﷺ ـ رأى علىَ عمر قميصا أبيض، فقال: (ثوبك هذا غسيل أم جديد؟، قال لا، بل غسيل، قال: البس جديدا، وعِشْ حميدا، ومُت شهيدا)... (رواه ابن ماجه).

وكان ما قاله ـ ﷺ ـ فقد قتله أبو لؤلؤة المجوسي وهو يصلي إمام بالمسلمين صلاة الصبح ..وأما عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: (كنت مع النبي ـ ﷺ ـ في حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي ـ ﷺ ـ: افتح له وبشره بالجنة ففتحت له، فإذا أبو بكر، فبشرته بما قال النبي ـ ﷺ ـ، فحمد الله .. ثم جاء رجل فاستفتح، فقال النبي ـ ﷺ ـ: افتح له وبشره بالجنة، ففتحت له فإذا هو عمر، فأخبرته بما قال النبي ـ ﷺ ـ، فحمد الله .. ثم استفتح رجل، فقال لي: افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه، فإذا عثمان فأخبرته بما قال رسول ـ الله ﷺ ـ فحمد الله ثم قال: الله المستعان)... (رواه البخاري).

أما ثالث المبشرين بالشهادة في هذا الحديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقد موقنا بأنه سيموت شهيدا لإخبار النبي ـ ﷺ ـ له بذلك، فعن زيد بن أسلم: أن أبا سنان

الدؤلي حدثه أنه عاد عليا ـ رضي الله عنه ـ في شكوه اشتكاها فقلت له: لقد تخوفنا عليك يا أبا الحسن في شكواك هذا، فقال: ولكني والله ما تخوفت على نفسي منه لأني سمعت الصادق المصدوق ـ ﷺ ـ يقول: (إنك ستضرب ضربة هاهنا وضربة هاهنا ـ وأشار إلى صدغيه ـ فيسيل دمها حتى يخضب لحيتك، ويكون صاحبها أشقاها كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود)... (رواه الحاكم).

فكان لسان حال علي ـ رضي الله عنه ـ ما قاله عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ:

وَفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ... إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ من الْفَجْرِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

ومن هؤلاء الذين أخبر النبي ـ ﷺ ـ عن موتهم ـ حفيده ـ الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ، فقد قال النبي ـ ﷺ ـ لإحدى زوجاته: (لقد دخل عليَّ البيت ملك لم يدخل علي قبلها فقال لي: إن ابنك هذا: حسين مقتول وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يُقتل بها. قال: فأخرج تربة حمراء)... (رواه أحمد).

ومن دلائل نبوته ـ ﷺ ـ إخباره لابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ أنه يموت قبلها، وأنها أول أهله موتا بعده..

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (اجتمع نساء النبي - ﷺ - فلم يغادر منهن امرأة فجاءت فاطمة تمشى كأن مشيتها مشية رسول الله - ﷺ - فقال: مرحبا بابنتي، فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم إنه أسرَّ إليها حديثا فبكت فاطمة، ثم إنه سارها فضحكت أيضا، فقلتُ لها: ما يبكيك؟، فقالت: ما كنت لأفشى سر رسول الله - ﷺ -، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصَّك رسول الله - ﷺ - بحديثه دوننا ثم تبكين !!، وسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشى سر رسول الله - ﷺ - .. حتى إذا قُبِض سألتها فقالت: إنه كان حدثني: أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة وإنه عارضه به في العام مرتين ولا أراني إلا قد حضر أجلى، وإنك أول أهلي لحوقا

بي، ونعم السلف أنا لك.. فبكيتُ لذلك، ثم إنه سارني فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك).. (رواه مسلم).

قال النووي: (فأخبرني أني أول من يلحق به من أهله فضحكت): هذه معجزة ظاهرة له ـ صلى الله عليه و سلم ـ بل معجزتان، فأخبر ببقائها بعده، وبأنها أول أهله لحاقا به ووقع كذلك.

وصدق حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ حين قال مادحا رسول الله ـ ﷺ ـ:

نبيّ يرى ما لا يرى النّاس حوله ... ويتلو كتابَ الله في كلّ مشهد

وإن قال في يومٍ مقالة غائب ... فتصديقها في ضحْوة اليوم أو غد

وعلى ذلك فإن ما وقع على لسان رسول الله - ﷺ ـ من الإخبار بموت بعض أصحابه وآل بيته وأعدائه فبوحي من الله تعالى، وهو إعلام من الله ـ عز وجل ـ لرسوله - ﷺ - للدلالة على ثبوت نبوته، وصحة رسالته، وعلو قدره ومنزلته..

حسن خلق النبي ﷺ وعشرته:

حسن الخلق، ولين الجانب، وطيب العشرة، صفات أجمع العقلاء على حسنها، وفضل التخلق بها.

وقد توافرت الأدلة الشرعية على مدح الأخلاق الحسنة، والحض عليها، من ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً).... رواه البخاري.

وقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس سمتاً، وأكملهم خُلُقاً، وأطيبهم عشرة، وقد وصفه سبحانه بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) فما من خصلة من خصال الخير إلا ولرسول ﷺ أوفر الحظ والنصيب من التخلق بها، وقد وصف الصحابة حسن خلقه ﷺ في أحاديث كثيرة فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ

أوسع الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة)... رواه الترمذي.

ووصفه الله تعالى بلين الجانب لأصحابه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ (آل عمران:١٥٩)، ففي معاشرته لأصحابه من حسن الخلق ما لا يخفي، فقد كان يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويقبل الهدية ممن جادت بها نفسه و يكافئ عليها.

وكان عليه الصلاة والسلام يؤلفهم ولا ينفرهم، ويتفقدهم ويعودهم، ويعطى كلَّ مَنْ جالسه نصيبه من العناية والاهتمام، حتى يظن جليسه أنه ليس أحدٌ أكرم منه، وكان ولا يواجه أحداً منهم بما يكره.

قال أنس رضي الله عنه: (خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لي لشيءٍ صنعته لم صنعت هذا، ولا شيء لم أصنعه لِمَ لَمْ تصنع هذا)... رواه الترمذي وأبو داود.

وذكر عبد الله بن جرير البجلي رضي الله عنه معاملة النبي ﷺ له فقال: (ما حجبني رسول الله ﷺ منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل فضرب بيده في صدري وقال اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً)... رواه ابن ماجة. ومعنى قوله ما حجبني: أي ما منعني الدخول عليه متى ما أردت ذلك.

وهذا الذي ذكرناه من حسن خلقه وعشرته قليل من كثير وغيض من فيض مما لا يمكن الإتيان على جميعه في مقال أو كتاب، والله نسأل أن يرزقنا حسن الخلق وحسن العمل.

الشورى في حياة النبي ﷺ:

الشورى لها مكانة عظيمة في ديننا الإسلامي، وقد سمى الله تعالى سورة في القرآن الكريم باسم الشورى.

والشورى هي أن يأخذ الإنسان برأي أصحاب العقول الراجحة والأفكار

الصائبة، ويستشيرهم حتى يتبين له الصواب فيتبعه، ويتضح له الخطأ فيجتنبه، وهي تكون في الأمور التي ليس فيها أمر من الله، أو أمر من الرسول ﷺ، إذ إنه لا شورى مع وجود نص شرعي.

ولقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يشاور المسلمين، ويأخذ آراءهم، فقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

وإن المتأمل لسيرته وحياته ﷺ رغم علو منزلته عند ربه، ومكانته بين أصحابه، يجده كثير التشاور معهم، بل وحتى مع زوجاته ﷺ، ومن ثم كان أصحابه رضي الله عنهم يبادرونه بالرأي والمشورة، ولكن في الأمور التي لم يرد فيها نص شرعي، أما ما ورد فيه نص، فليس أمام المسلم سوى القبول والتسليم، وإن خالف عقله وهواه، ومشاهد الشورى في حياة النبي ﷺ وسيرته المطهرة كثيرة.

ففي أمور الحرب، تبرز مواقف النبي ﷺ التي شاور أصحابه فيها، ابتداء بغزوة بدر، حيث شاورهم في الخروج لملاقاة العدو، واختيار المكان الذي ينزلون فيه، وقال ﷺ قولته المشهورة: (أشيروا علي أيها الناس)، ثم تحرك رسول الله ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحُباب بن المنذر ـ كخبير عسكري ـ وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟! فقال ﷺ: (بل هو الرأي والحرب والمكيدة)، فقال الحباب: يا رسول الله! إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ـ أي جيش المشركين - فننزله ونغوِّر (نخرب) ما وراءه من الآبار، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: (لقد أشرتَ بالرأي).

فأخذ النبي ﷺ برأي الحباب ومشورته، ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار.

وفي غزوة (أُحد) جمع النبي ﷺ أصحابه، وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، إلا أن الكثير من الصحابة -خاصة الذين لم يشهدوا بدراً- أشاروا بالخروج للعدو، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم.

وعندما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بفكرة حفر الخندق، استحسن النبي ﷺ فكرته وأمر بتنفيذها، فكانت سبباً رئيسياً من أسباب النصر في تلك الغزوة.

لقد ربَّى رسول الله ﷺ أصحابه وعودهم على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه، تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة ومعالجة مشاكل الأمة، ولم يحدث أن عاتب الرسول ﷺ أحداً لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه ومشورته.

ولو ذهبنا بعيداً عن المعارك والحروب، لوجدنا أيضاً في حياته وسيرته ﷺ الكثير من المواقف التي ظهر من خلالها اهتمامه وترسيخه للشورى بين المسلمين.

فشاور ﷺ كلاً من علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما في قضيّة الإفك، وشاور الناس في كيفيّة التعامل مع من آذاه في عرضه الشريف.

وفي صلح الحديبية، كان النبي ﷺ قد عزم على الخروج إلى مكة، والصحابة يحلمون بعمرة يزورون فيها بيت الله الحرام، فلما علموا بالصلح والرجوع، حزنوا وتثاقلوا مع أمر النبي ﷺ بذبح الهدي والحلق، ظنا منهم أن النبي ﷺ أمرهم بالتحلل من الإحرام أخذا بالرخصة في حقهم، وأنه سيستمر هو في إحرامه، فأشارت عليه زوجته أم سلمة رضي الله عنها بمباشرة النحر وحلق الشعر بنفسه، فسارع الصحابة رضوان الله عليهم لامتثال أمر النبي ﷺ، فكان رأيها سديداً ومشورة مباركة.

وحين دخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً لها، أشار عليه عمه العباس بقوله: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، فاستجاب النبي ﷺ لمشورة عمه، وقال:

(نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن) رواه أبو داود. وقد حدث بهذه المشورة تثبيت لأبي سفيان رضي الله عنه على الإسلام وتقوية لإيمانه.

لا شك أن الشورى التي حثنا النبي ﷺ عليها بقوله وفعله، يتحقق من ورائها أهداف عظيمة، فهي تعمل على نشر الألفة بين أفراد المجتمع، وهي وسيلة للكشف عن أصحاب الرأي السديد، ومَنْ بإمكانهم وضع خطط يؤخذ بها في المواقف الصعبة الطارئة، مما يفتح الباب للاستفادة من كل العناصر المتميزة في المجتمع، وحينما تكون الشورى أمراً إلهياً وسلوكاً نبويًّا، فإن المجتمع الذي يتمسك بها، ويسير على دربها، سيحوز الأمن والأمان والتوفيق والنجاح، قال الله تعالى آمراً نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران:١٥٩)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى:٣٨).

جولة في طفولة النبي ﷺ:

للعظماء شأنهم المبكر منذ ولادتهم، فكيف إذا كان العظيم هو محمد ﷺ، سيد الخلق، وأفضل الرسل، وخاتم الأنبياء، الذي أحاطته الرعاية الربانية، والعناية الإلهية منذ الصغر، بحيث تميّزت طفولته عن بقيّة الناس، وكان ذلك من تهيئة الله له للنبوّة.

ففي صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل، الذي يُوافق العشرين أو الثاني والعشرين من شهر إبريل سنة ٥٧١م، وُلد أكرم الخلق - ﷺ - في مكة المكرمة، وفي أشرف بيت من بيوتها، فقد اصطفاه الله من بني هاشم، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفى قريشاً من سائر العرب، قال - ﷺ -: (إن الله خلق الخلق، فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً، وخيركم نفساً)... رواه أحمد.

ونسبه – ﷺ – من أطهر الأنساب، حيث لم يختلط بشيءٍ من سفاح الجاهليّة، وتمتدّ أصول هذه الطهارة حتى تصل إلى آدم عليه السلام، قال – ﷺ –: (خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي، لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء)... رواه الطبراني.

وقد نشأ – ﷺ – يتيماً، حيث توفّي والده عند أخواله في المدينة قبل مولده، فتولى أمره جدّه عبد المطلب، الذي اعتنى به أفضل عناية، وشمله بعطفه واهتمامه، واختار له أكفأ المرضعات، فبعد أن أرضعته ثويبة مولاة أبي لهب، دفع به إلى حليمة السعدية، فقضى النبي – ﷺ – الأيّام الأولى من حياته في بادية بني سعد، ليلقى من مرضعته حليمة كل عناية، مع حرصها على بقائه عندها حتى بعد إكمال السنتين، لما رأت من البركة التي حلّت عليها بوجوده – ﷺ –، حيث امتلأ صدرها بالحليب بعد جفافه، حتى هدأ صغارها وكفّوا عن البكاء جوعاً، وكانت ماشيتها في السابق لا تكاد تجد ما يكفيها من الطعام، فإذا بالحال ينقلب عند مقدم رسول الله – ﷺ – حتى زاد وزنها وامتلأت ضروعها باللبن، ومن أجل ذلك تحايلت حليمة لإقناع والدة النبي – ﷺ – بضرورة رجوعه إلى البادية بحجّة الخوف عليه من وباء مكّة.

وهكذا أمضى رسول الله – ﷺ – سنواته الأولى في صحراء بني سعد، فنشأ قوي البنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، معتمداً على نفسه، حتى كانت السنة الرابعة من مولده، حين كان – ﷺ – يلعب مع الغلمان وقت الرعي، فجاءه جبريل عليه السلام مع ملك آخر، فأمسكا به وشقّا صدره، ثم استخرجا قلبه، وأخرجا منه قطعة سوداء فقال جبريل: "هذا حظ الشيطان منك"، ثم غسلا قلبه وبطنه في وعاء من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده إلى مكانه، والغلمان يشاهدون ذلك كلّه، فانطلقوا مسرعين إلى مرضعته وهم يقولون: إن محمداً قد قُتل، وأقبل النبي – ﷺ – وهو يرتعد من الخوف، فخشيت حليمة أن يكون قد أصابه مكروهٌ، فأرجعته إلى أمّه، وقالت لها: "أدّيت أمانتي وذمّتي"، ثم أخبرتها بالقصّة، فلم تجزع والدته لذلك، وقالت لها: "إني رأيت خرج مني نورٌ أضاءت منه قصور الشام".

وبهذه الحادثة الكريمة، نال -ﷺ- شرف التطهير من حظ الشيطان ووساوسه، ومن مزالق الشرك وضلالات الجاهليّة، مع ما فيها من دلالةٍ على الإعداد الإلهيّ للنبوّة والوحي منذ الصغر.

ومكث النبي -ﷺ- في مكّة يتربّى في أحضان والدته، ولما بلغ عمره ست سنين توفيت أمه في قريةٍ يُقال لها " الأبواء " بين مكّة والمدينة، فعوّضه جدّه عبدالمطلب حنان والديه، وقرّبه إليه وقدّمه على سائر أبنائه، وفي يومٍ من الأيام أرسل عبدالمطلب النبي -ﷺ- للبحث عن ناقة ضائعة، فتأخّر في العودة حتى حزن عليه جدّه حزناً شديداً، فجعل يطوف بالبيت وهو يقول: رب رد إلي راكبي محمدا ** رده رب إلي واصطنع عندي يدا ولما عاد النبي -ﷺ- قال له: "يا بني، لقد جزعت عليك جزعاً لم أجزعه على شيء قط، والله لا أبعثك في حاجةٍ أبداً، ولا تفارقني بعد هذا أبداً".

واستمرّت هذه الرعاية طيلة سنتين حتى توفّي عبدالمطلب وللنبي -ﷺ- ثمان سنين، فكفله عمّه أبو طالب وقام بحقه خير قيام، وقدمه على أولاده، واختصّه بمزيد احترام وتقدير، ولم يزل ينصره ويبسط عليه حمايته، ويُصادق ويُخاصم من أجله طوال أربعين سنة، حتى توفّي قبيل الهجرة بثلاث سنين.

ومن هنا نرى كيف توالت الأحزان في طفولة النبي -ﷺ- وتركت أثرها في قلبه، وهو جزءٌ من التقدير والحكمة الإلهيّة في إعداد هذا النبي الكريم؛ حتى لا يتأثّر بأخلاق الجاهلية القائمة على معاني الكبر والاستعلاء، فكانت تلك الأحزان سبباً في رقّة قلبه واكتسابه لمكارم الأخلاق، حتى صدق فيه وصف خديجة رضي الله عنها: "يحمل الكَلَّ، ويكسب المعدوم، ويُقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق".

المثل الأعلى والأسوة الحسنة ﷺ:

ستظل سيرة النبي -ﷺ- على مدى الأجيال والقرون، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها نبراساً للمسلمين، يضيء لهم حياتهم وأعمالهم، فقد كانت تطبيقاً كريماً لمنهج الله الذي جاء به القرآن الكريم، ونوراً هادياً لكل أمة تريد أن تصل إلى الحياة الكريمة على هذه الأرض.

فحيث نظرت في وقائع حياة الحبيب - ﷺ - وسيرته، وتوجيهاته وتعاليمه، تجد المثل الأعلى والقدوة الحسنة، التي تضيء لك الطريق والحياة، وتأخذ بيدك إلى الطمأنينة والسعادة، وصدق الله تعالى حيث قال: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾** (الأحزاب:٢١).

قال ابن كثير: (هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله - ﷺ -، في أقواله وأفعاله وأحواله).

لقد كانت حياة النبي - ﷺ - حافلة بالبذل والعطاء، والدروس والعبر، ووصلت إلينا كاملة بأدق تفاصيلها، كأنما نرى الرسول - ﷺ - ونسمعه في مختلف وقائع حياته، قائماً ونائماً، وعابدًا وقائداً، وأباً وزوجا، ومربياً ومعلما.

فقد جمع الله له بين الدعوة والدولة، والرسالة والقيادة، والتبليغ والحكم، وهو ما لم يتحقق لنبي من قبل.

وقد أُعْطِيَ النبي - ﷺ - ما لم يعط رسول سبقه، فجاء الأنبياء برسالتهم إلى قومهم، وبُعِث - ﷺ - إلى الناس كافة، وختمت به رسالات السماء فلا نبي بعده، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: (إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضِعت هذه اللبنة؟، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)... (البخاري).

وقد أُعْطِيَ الأنبياء معجزات حسية لعصرهم وبيئتهم، أما الحبيب - ﷺ - فقد أعطى - بجانب المعجزات الحسية الكثيرة - القرآن الكريم، معجزة المعجزات الباقية الخالدة إلى يوم القيامة.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - ﷺ -: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)... (البخاري).

وَوَحْي وكتب الله للأنبياء السابقين وُكِلَ إليهم وإلى أتباعهم حفظها، فاختُلِف فيها وحُرِّفت، أما القرآن الكريم فقد تولى الله ـ سبحانه ـ حفظه، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

وكرَّم الله تبارك وتعالى أمة الحبيب ـ ﷺ ـ فأحل لهم كثيراً مما شُدِّد على من قبلهم، ولم يجعل عليهم في الدين من حرج، ورفع عنهم المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه، وحديث النفس، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨)، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف:١٥٧).

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)... (ابن ماجه).

وإذا ذهبنا ننظر ونقطف من بعض وصايا وشمائل الحبيب ـ ﷺ ـ وأخلاقه العظيمة لوجدنا عجباً:

فكان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفاتٌ أدبه الله بها.. وكل حليم قد عُرفت منه زلة، وحفظت عنه هَفْوَة، ولكنه ـ ﷺ ـ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (ما خُيِّرَ رسول الله ـ ﷺ ـ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسول الله ـ ﷺ ـ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم بها لله).. (البخاري).

وكان أعدل الناس وأعفهم، وأصدقهم لهجة، وأعظمهم أمانة، اعترف له بذلك أصحابه وأعداؤه، وكان يسمي قبل نبوته "الصادق الأمين"، ويُتَحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: "كان النبي ـ ﷺ ـ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع

الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله - ﷺ - راجعا قد سبقهم إلى الصوت واستبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عرى، والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا، لن تراعوا".

وقال علي - رضي الله عنه -: كنا إذا حمى أو اشتد البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله - ﷺ -، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله - ﷺ - وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا.

وعندما وجد رجلا يرتعد بين يديه قال له - ﷺ -: (هون عليك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة)... (ابن ماجه).

وكان - ﷺ - إذا أقبل جلس حيث ينتهي به المجلس، وكان يمد طرف رداءه لحليمة السعدية لتجلس عليه، ويضع وسادته لضيفه ويجلس هو على الأرض، وكان إذا لقيه أحد من أصحابه قام معه فلم ينصرف حتى يكون هو الذي ينصرف، وإذا ما لقيه أحد فتناول يده ناوله إياها، فلم ينزع يده حتى يكون الآخر هو الذي ينزعها.

وكان - ﷺ - أشد الناس تواضعاً، وأبعدهم عن الكبر، ونهى عن القيام له كما يقام للملوك.. يجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس في أصحابه كأحدهم ..

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: (خدمت النبي - ﷺ - عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعتُه: لم صنعتَه؟ ولا لشيء تركتُه: لمَ تركتَه؟، وكان رسول الله - ﷺ - من أحسن الناس خُلُقا، ولا مسست خزا قط، ولا حريرا، ولا شيئا كان ألين من كف رسول - الله ﷺ -، ولا شممت مسكا قط، ولا عطرا، كان أطيب من عرق رسول الله - ﷺ -)... (مسلم).

وكان أوفى الناس بالعهود، وأوصلهم للرحم، وأعظمهم شفقة ورأفة ورحمة بالناس..

أحسن الناس عشرة وأدباً، وأبعدهم من سيء الأخلاق، لم يكن فاحشاً ولا متفحشا، ولا لعاناً ولا صخابا، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح ..



يزور المريض، ويتبع الجنائز، ويجيب دعوة المملوك، ويقف للمرأة العجوز في الطريق ساعة تحدثه، وكان يساعد أهله ويؤانسهم، فإذا جاء موعد الصلاة أسرع إليها وقال: (أرحنا بها يا بلال)... (أحمد).

وكان يوجه أصحابه ويعلمهم، فيقول ـ ﷺ ـ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)... (ابن ماجه).. ويأمر الصغير باحترام وتوقير الكبير، والكبير برحمة الصغير، فيقول ـ ﷺ ـ: (ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا)... (الترمذي).

وحفاظا على علاقة المسلم بأخيه، وعدم إيذائه، وتعاونه معه، والسعي في مساعدته، يقول ـ ﷺ ـ: (إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن ذلك يحزنه)... (البخاري)، ويقول: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة)... (البخاري).

يغرس في أصحابه ـ والمسلمين من بعدهم ـ روح السماحة والعدل والمساواة، ويعلمهم أن قيمة الإنسان بدينه وعمله، وليس بحسبه ونسبه وجنسه، فيقول ـ ﷺ ـ: (رحم الله رجلا سمحًا إذا باع وإذا اشترىٰ وإذا اقتضى)... (البخاري)، ويقول: (يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله (أقسم بالله) لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)... (البخاري).

ويقول ـ ﷺ ـ: (يا أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ}... (الحجرات: ١٣)، ألا هل بلغت؟، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فيبلغ الشاهد الغائب)... (أحمد).

وقال ـ ﷺ ـ: (من بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه)... (مسلم).

لقد كانت وستظل حياة النبي - ﷺ - وتعاليمه وهديه، منهجا ونبراسا للأمة الإسلامية، ومخرجاً لها من كل مؤامرات أعدائها، وسبيلا لسعادتها وأمنها، وطريقا لبناء المسلم السوي والمجتمع المثالي.

ولئن انتقل رسول الله - ﷺ - إلى جوار ربه، فإن الله قد حفظ لنا سنته، وبقيت سيرته خالدة شاهدة على سمو روحه، وكمال نفسه، ورفعة أخلاقه، فما على من أراد الاقتداء به إلا مطالعتها والعمل بما كان عليه - ﷺ -، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب:٢١).

هدي النبي ﷺ في معاملة الكافر

من المفاهيم الخاطئة عند البعض أن علاقة المسلم بالكافر هي علاقة عنف وشدة وغلظة بإطلاق، وهو خلاف هدي النبي ﷺ في التعامل مع الكفار، فقد وضع - ﷺ - آداباً وضوابط تقوم عليها العلاقة مع الكفار، والتعامل معهم، وهي آداب وضوابط مبنية على العدل وعدم الظلم، كما قال الله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨).

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله - ﷺ - عن آبائهم، عن رسول الله - ﷺ - قال: (ألا من ظلم معاهَداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة)... رواه أبو داود.

وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه -: عن النبي - ﷺ - قال: (من قتل نفسا معاهَداً لم يَرِح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما)... رواه البخاري.

ومن المعلوم أن المؤمن لا يكون ولاؤه إلا لله تعالى ولرسوله - ﷺ - وللمؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٥).

والولاء للمؤمنين يكون بمحبتهم ونصرتهم لإيمانهم، والنصح والدعاء لهم، وغير



ذلك من حقوق، والبراء من الكفار يكون ببغضهم، وعدم الركون إليهم، أو التشبه بهم، وتحقيق مخالفتهم، ونحو ذلك من مقتضيات العداوة في الله، مع معاملتهم بالعدل، والوفاء بالعهد، والأمانة وعدم الغش، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة:٨).

ومن هدي النبي - ﷺ - في معاملته للكافر:

دعوته إلى الله:

استخدم رسول الله - ﷺ - أساليباً متعددة مع الكافرين في دعوتهم للدخول في الإسلام، وشملت دعوته، الدعوة باللسان حيث أقام الأدلة القاطعة على إرساله لهم، وكان يرغبهم في الإسلام ويبين لهم محاسنه، ويظهر لهم حلمه وصفحه، ويعرفهم موافقة القرآن لما في كتبهم - قبل تحريفها -، وقبل الهدية منهم، وأوصى بهم خيرا.

فدعوة الكافر إلى الله - بحكمة ورفق - وتبليغه حقيقة الإسلام من أعظم الإحسان إليه، وهي قُرْبة إلى الله، لقوله - ﷺ - لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما بعثه إلى خيبر وأمره أن يدعو إلى الإسلام قال: (فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم)... رواه البخاري. وقال - ﷺ -: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)... رواه مسلم.

حُسن الجوار، وعدم الإيذاء، والإهداء:

حسن الجوار، وعدم الإيذاء، كذلك الإهداء للكافر، وقبول الهدية منه، كل ذلك من هدي النبي - ﷺ - في معاملته معه.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال: ذُبحتْ شاة لابن عمرو في أهله، فقال: أهديتم لجارنا اليهوديّ ؟، قالوا: لا، قال: ابعثوا إليه منها، فإني سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه)... رواه أحمد.

وقد قَبِل النبي - ﷺ - هدية المقوقس، وهدية كسرى، وقبل الشاة المهدية له من اليهودية.

البيع والشراء:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: (أن النبي ـ ﷺ ـ اشترى طعاما من يهودي إلى أجل، ورهنه درعا من حديد)... رواه البخاري، (توفي رسول الله ـ ﷺ ـ ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير)... رواه البخاري .

قال الحافظ ابن حجر: "تجوز معاملة الكفار فيما لم يتحقق تحريم على المتعامَل فيه، وعدم الاعتبار بفساد معتقدهم ومعاملاتهم فيما بينهم".

وقال الشيخ ابن عثيمين: "وأما معاملتهم في البيع والشراء، وأن يدخلوا تحت عهدنا فهذا جائز، فقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يبيع ويشتري من اليهود، كان اشترى طعاما لأهله، ومات ودرعه مرهونة عندهم".

عيادة الكافر:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان غلام يهودي يخدم النبي ـ ﷺ ـ فمرض فأتاه يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال: أطع أبا القاسم .. فأسلم، فخرج النبي ـ ﷺ ـ وهو يقول: الحمد لله الذي أنقذه من النار)... رواه البخاري.

الانتفاع بما عندهم من علم:

أذِن النبي ـ ﷺ ـ في أن يتلقى المسلم من غير المسلم ما ينفعه في علوم الطب والزراعة وغيرها من علوم، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: (واستأجر رسول الله ـ ﷺ ـ و أبو بكر رجلا من بني الديل، هاديا خِرِّيتا (الماهر بالطرق في السفر)، وهو على دين كفار قريش، فدفعا إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث)... رواه البخاري .

قال الشوكاني: "الحديث فيه دليل على جواز استئجار المسلم للكافر على هداية الطريق".

وقد زارع رسول الله ـ ﷺ ـ يهود خيبر على أن يعملوا ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها .



قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: (أعطى النبي ـ ﷺ ـ خيبر بالشطر، فكان ذلك على عهد النبي ـ ﷺ ـ وأبي بكر وصدرا من خلافة عمر، ولم يذكر أن أبا بكر وعمر جددا الإجارة بعد ما قُبِض النبي ـ ﷺ ـ)... رواه البخاري .

هكذا كان يتعامل رسول الله ـ ﷺ ـ مع غير المسلمين، تعاملاً قائمًا على العدل والرحمة والتسامح معهم، والإحسان إليهم، وكذلك فإن سيرته ـ ﷺ ـ خير شاهد على تمتع الأقلية غير المسلمة بالحرية الدينية، فلم يرتضِ يومًا أن يفرض عليهم عقيدة الإسلام، امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩) .

الرياضة البدنية في السنة النبوية:

كان رسول الله ﷺ صاحب قوام جميل متين البنية قوي التركيب، وكان بنيانه الجسمي مثار إعجاب من حوله من الصحابة، ولا عجب فهو الأسوة الحسنة، الذي أرسله العلي القدير هادياً لنا في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة.

فكتب القاضي عياض في كتابه (الشفاء) يصف رسول الله ﷺ، فإنه كان عظيم القدر، عظيم المنكبين، ضخم العظام، عبل العضدين والذراعين والأسافل، رحب الكفين والقدمين، ربعه القد، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد.

ووصفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: لم يكن بالطويل الممغط (البائن الطول)، ولا بالقصير المتردد، وكان ربعة من القوام (معتدل القامة)، ولم يكن بالجق القطط، ولا بالسبط، كان جعداً رجلاً ولم يكن بالمطهم (الفاحش السمنة)، ولا بالمكلثم (كثير اللحم)، وإذا مشى ينكفي تكفياً كأنما يحط من صبب (يميل في المشي إلى الأمام).

ذكر أبو هريرة رضي الله عنه وفي وصف مشية رسول الله ﷺ فقال: (ما رأيت أحداً أسرع من رسول ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، إنا نجهد أنفسنا وهو غير مكترث).

كما قال علي كرم الله وجهه كذلك في مشي النبي ﷺ، إذا مشى تقلع (التقلع هو

الارتفاع عن الأرض) كحال المنحط من الصبب وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج لأن بها وقاراً من غير تكبر ولا تماوت لأنه ﷺ كان كأنما ينحط من صبب وكأنما الأرض تطوى له.

وحين أعتمر الرسول ﷺ وأصحابه بعد صلح (الحديبية) بعام، كان قد رآهم كفار قريش يطوفون بالكعبة، فقالوا (مستهزئين) بالمسلمين: سيطوفون اليوم بالكعبة قوم نهكتهم حمى يثرب (المدينة)، فقال الرسول ﷺ:

« رحم الله امرئ أراهم من نفسه قوة، واضطبع بردائه (أي أدخل الرداء من تحت إبطه الأيمن، بحيث يبدي منكبه وعضده الأيمن) وكشف الرسول عن عضده الأيمن وقد فعل مثله شباب المسلمين في طوافهم حول الكعبة، ليرهبوا الكفار والمشركين بأجسامهم القوية وعضلاتهم المفتولة، والمعروف أن العضد الأيمن هو الأقوى في غالب الأحوال لدى الإنسان لأنه أكثر استخداماً من العضد الأيسر، ولعل هذا يفسر كشف العضد الأيمن، كما أن التيمن كان من شيم الرسول الكريم ﷺ.

ولقد أورد الشيخ محمد الغزالي ثلاث وقائع تدل على قوة النبي محمد ﷺ.

* ذهب من مكة إلى الطائف ماشياً على قدميه، ولم يكن الطرق ممهداً كما هو الآن، بل وعراً، ومعروف عنه أنه يقع في منطقة كلها جبال وهضاب ومعنى ذلك أن الرسول ﷺ، قد تسلق هذه الجبال في مسيرته تلك.

* مشى الرسول ﷺ هو أصحابه (علي بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة) رضي الله عنهم أجمعين، ولم تكن هناك أي وسيلة نقل، فكانوا يتبادلون السير والركوب نظراً لوجود راحلة واحدة فقط، فكان اثنان يمسيان والآخر يركب، وفد خجلا الاثنان فكيف يركبان ويدعان النبي ﷺ يمشي، فرفض النبي ﷺ رفضاً باتاً بأن يستمر في الركوب، وقال إنكما لستم بأقدر مني على المشي ولا أنا بأغنى منكما على الأجر ... ومشى المسافة المقررة.

* وفي غزوة الخندق كان يحفر الرسول ﷺ مع أصحابه، وعندما اعترضتهم صخرة



ضخمة إذا عجزوا عن ضربها وتفتيتها، لجئوا إلى الرسول ﷺ، فجاء إليها وضربها بمعوله ففتتها.

الرياضة وسنة الرسول ﷺ:

حفلت سنة رسول الله ﷺ وسيرته العطرة الشريفة بالمواقف والوقائع والأحداث والأقوال التي تشهد بمكانة الرياضة والنشاط البدني في الإسلام. فلقد كان رسول الله ﷺ قوياً يحب القوة ولا عجب، فالإسلام دين قوة وغلبة فضلاً عن كونه شريعة ودستور حياة.

يقول الشيخ إبراهيم البرك أن هذا الدين العظيم بقرآنه الكريم وسنة رسوله ﷺ، لم يترك أمراً من أمور الدين والدنيا إلا ونبهنا إلى أوجه الخير فيه لنتبعها، كما نبهنا إلى أوجه الضر فيه لنتجنبها، ومن ضمن ذلك الرياضة.

ويذكر الشيخ ناصر الشتري أن كتب السنة والحديث قد امتلأت بالحث على الفروسية، والتوصية بها. وأنه ﷺ كان يحضر المنافسات وكان يكافئ المتفوقين فيها، وكان يسمح للآخرين بمكافأة المتبارين بصورة خاصة تشجيعاً واستحباباً.

ولقد أجمع الفقهاء العلماء من السلف الصالح على أن ما صح من أقوال، وأفعال الرسول ﷺ مما نقله الثقاة عبر القرون إنما هو من السنة الشرعية الشريفة.

يقول الله في كتابه العزيز: ﴿وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (المائدة:٩٢).

ولقد حفلت سيرة الرسول ﷺ بالأقوال والأحاديث التي دعا فيها إلى ممارسة الرياضة، وفي أحيان كثيرة ثبت أنه كان يمارسها بنفسه، بل كان يحض المسلمين على ممارستها والتمسك بها، وكان ﷺ يلاعب الأطفال ويتباسط معهم ويلاطفهم، ولأهمية السنة المطهرة في توضيح مكانة الرياضة في الإسلام.

يمكن أن تصنف السنة العطرة في ضوء علاقتها بالرياضة على النحو التالي:

- أحاديث الرسول وتوجيهاته بشأن الرياضة.
- ربط الرسول بين ممارسة الرياضة والجهاد وثوابهما.
- وقائع ممارسة الرسول للرياضة بنفسه.
- اهتمام الرسول بملاعبة وتربية الأطفال.

أولاً: أحاديث الرسول وتوجيهاته بشأن الرياضة:

اهتم الرسول ﷺ أشد الاهتمام بحث المسلمين على ممارسة الرياضة وبخاصة تلك الأنشطة ذات القيمة العالية في إكساب جسم الإنسان اللياقة البدنية والمهارة والصحة والترويح المباح.

قال رسول الله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير).

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، وكررها ثلاث مرات)، وهكذا فسر لنا الرسول المقصود بالقوة سواء في حديثه (المؤمن القوي) أو في الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...).

وذكر ابن القيم أن شيل الأثقال عمل مباح كالصراع (المصارعة)، ومسابقة الأقدام (الجري)، فقد مر الرسول ﷺ بقوم يربعون حجراً ليعرفوا الأشد منهم فلم ينكر عليهم ذلك.

وهكذا أقر الرسول هذا التباري الشريف في (الربع) وهي رياضة قديمة ولم ينكرها فهي تنمي القوة وبعض صفات اللياقة البدنية، كما سابق الرسول بين الخيل ففي الصحيحين عن حديث ابن عمر، قال: (سابق رسول الله ﷺ بين الخيل فأرسلت التي

ضمرت منها وأمدها الحيفاء إلى ثنية الوداع، والتي لم تضمر أمدها من ثنية الوداع حوالي ستة أو سبعة أميال، والمسافة بين ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق ميل واحد).

وفي مجمع الزوائد عن عبد الله بن عمر:

(أن النبي ﷺ سبق بين الخيل وراهن)... رواة الحديث ثقات.

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ لم يكن موقفه من السباق مجرد السماح به، وإنما الحض عليه، بل وتكريمه للفائز.

وذكر أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (لا سبق إلا في خف، أو حافر، أو نصل) ورد في الجامع الصغير للسيوطي.

وقد فسره ابن القيم على معنيين، الأول أنه لا تعطي تعني الجعل (المكافأة) إلا عن هذه المسابقات الثلاث، أو أنه لا يجوز المسابقة على غيرها بعوض (برهان) ويميل ابن القيم إلى المعنى الثاني.

وفي سنن أبي داود عن ابن عمر (أن النبي ﷺ سبق بين الخيل وفضل القرح في الغاية).

وفسر ابن القيم القرح على أنها جمع قارح، وهو الجواد الذي دخل عامة الخامس.

وجاء في البخاري عن أنس بن مالك أنه كان للنبي ﷺ ناقة تسمى الغضباء وكانت لا تسبق، فسبقها أعرابي، فقال الرسول ﷺ: (حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه).

وقد حض رسول الله ﷺ على الرمي بالقوس والسهم وأكد على تعلمها أشد التأكيد، وقد قال ابن القيم عنها أنها أجل هذه الأنواع على الإطلاق وأفضلها، يقصد أفضل أنواع الرياضة.

وفي صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامة أن رسول الله ﷺ قال: (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) أو (فقد عصاني).

وفي لفظ آخر عن الطبراني قال رسول الله ﷺ: (من تعلم الرمي فنسيه كان نعمة أنعمها الله عليه فتركه).

ولقد رغب رسول الله ﷺ في الرماية بالقوس وحث المسلمين على التمسك بهذه الرياضة النبيلة، وفضلها عن ما سواها من سائر ألوان الرياضة بما في ذلك ركوب الخيل.

وعن جابر أنه قال: شكا ناس إلى الرسول ﷺ من التعب، فدعا لهم، وقال: (عليكم بالنسلان) أي الإسراع في المشي، فانتسلنا فوجدناه أخف علينا.

قال رسول الله ﷺ: (كل شيء ليس من ذكر الله فهو لهو إلا أربع خصال: مشى الرجل بين الغرضين، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعلمه السباحة) والمشي بين الغرضين يقصد به التحرك ما بين هدفي الرمي بالقوس وتأديب الفرس بمعنى تدريبه وتعليمه.

وفي هذا الحديث يشير الرسول ﷺ إلى اللهو (الترويح) الحلال الذي يؤجر عليه المسلم.

وقد فسر ابن القيم هذا الحديث بأنه لو لم يكن في النضال إلا أنه يزيل الهم، ويدفع الغم عن القلب لكان ذلك كافياً في فضه، وقد جرب ذلك أهله.

وفي ذلك إشارة واضحة للقيم الترويحية للرياضة، والتي يتصور البعض أنها، أي الرياضة، إنما جعلت للمنافسة فقط.

وفي رواية للطبراني عن صالح بن كيسان عن عقبة بن عامر: قال الرسول ﷺ: (الأرض ستفتح عليكم وتكفون المؤنة فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه).

هذا الحديث يؤكد نفس المعنى في الحديث السابق في أهمية مزاولة الرياضة على سبيل الترويح، فممارس الرمي في عهد الرسول، وما تلاه من عصور كمن رمى عصفورين أو أكثر بحجر واحد فهو ترويح، ولياقة ومهارة، وفي نفس الوقت تدريب على أعمال الجهاد، وهو أحد الأهداف الكبرى للدولة الإسلامية، وهكذا جمع الرسول بين أكثر من قيمة في نشاط واحد له بعد ترويحي (مباشر) وله بعد جهادي غير مباشر أو بعيد المدى



وهذه المعالجة تفيد في صياغة الأهداف التربوية للأطفال والشباب بحيث يجب أن تنال منا وقفه، باعتبارها أسلوباً تربوياً ذكياً في صياغة المرامي وصبغها باللعب والترويح.

قال رسول الله ﷺ: (ما تشهد الملائكة من لهوكم إلا الرهان والنضال) الجامعُ الصغير للسيوطي.

والرهان هو المسابقة بين الخيل، والنصال هو الرمي بالقوس والسهم. ولقد كان سباق الخيل ومشاهدته الممتعة من الأمور التي تثير المشاعر البهجة وتضفي السرور.

أبو لبيد لمازة بن زبار قال أرسلت الخيل زمن الحجاج فقلنا لو أتينا الرهان قال فأتيناه ثم قلنا لو أتينا إلى أنس بن مالك فسألناه هل كنتم تراهنون على عهد رسول الله ﷺ قال فأتيناه فسألناه فقال (نعم لقد راهن على فرس له يقال له سبحة فسبق الناس فهش لذلك وأعجبه) ورد في مسند أحمد وفي مجمع الزوائد برواية أخرى.

وورد في الصحيحين :عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان، تغنيان بغناء بعاث: فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال: (دعهما). فلما غفل غمزتهما فخرجتا. وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب، فإما سألت النبي ﷺ، وإما قال: (تشتهين تنظرين). فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: (دونكم يا بني أرفدة). حتى إذا مللت، قال: (حسبك). قلت: نعم، قال: (فاذهبي).

ثانياً: ربط الرسول بين ممارسة الرياضة والجهاد وثوابهما:

ربط الرسول ﷺ بين بعض المناشط الرياضية وبين الجهاد لإدراكه أهمية الإعداد البدني والمهاري في المعارك الإسلامية التي تخاض بقصد الجهاد في سبيل الله، فقد أكد أشد التأكيد على تلك الرياضات التي تخدم أهداف الجهاد ومقوماته كالرمي بالقوس والنبل، وركوب الخيل، وأوضح ثواب ذلك للمسلم، بل أوضح كذلك عقاب من يترك هذه الرياضات وما تئول إليه أحواله إن فعل ورسول الله ﷺ لا ينطبق عن الهوى.

وبذلك ربط الرسول ﷺ بين الرياضة وأهداف الدولة، ولم نعرف في تاريخ المجتمعات البشرية عبر العصور المختلفة أن التربية البدنية والرياضية قد نجحت وازدهرت بمعزل عن أهداف مجتمعها، وهكذا نجحت الرياضة في عصر الرسول ونالت هذه المكانة المرموقة بين سائر النظم الاجتماعية وأنماط الثقافة في الدول الإسلامية الأولى.

وجاء في السنن عن عقبة بن عامر، قال الرسول ﷺ: (إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة أنفار الجنة، صانعه المحتسب في عمله الخير، والرامي به، والممدد به)، وفي لفظ آخر: (ومنيله، فأرموا واركبوا، وأن ترموا أحب من أن تركبوا، كل لهو باطل، ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة: تأديب الرجل لفرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، إنهن من الحق ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة فإنها نعمة تركها، [أو قال: كفرها]).

ولقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من رمى بسهم في سبيل الله فهو عدل محرر).

ولقد بلغ من تكريم الرسول ﷺ للرمي وتفضيله على سائر الرياضات أن أسقط الكفارة في أيمان الرماة (الحلف والقسم).

وجاء في سنن ابن ماجة عن علي بن أبي طالب، قال: كانت بيد رسول الله ﷺ قوس عربية فرأى رجلاً بيده قوس فارسية فقال: ما هذه؟ ألقها وعليكم بهذه وأشباهها ورماح القنا، فإنهما يزيد الله بهما في الدين، ويمكن لكم في البلاد.

ولقد سبق رسول الله ﷺ بين الخيل ودعا إلى ركوبها والتمرس عليها وطالب بتعهدها ورعايتها، فهي سلاح المسلم في الجهاد ومركبته التي يكر وبفر ويناور ويحاور بها.

وذكر أبو داود في الجهاد، والنسائي في الخيل، من حديث أبي وهب الجشمي قال: قال رسول الله ﷺ: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها. فامسحوا بنواصيها، وادعوا لها بالبركة، وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار). وجاء في البخاري، وأحمد، أن النبي ﷺ قال: (من احتبس فرساً في سبيل الله، إيمانا بالله، وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة).



ثالثاً: وقائع ممارسة الرسول ﷺ للرياضة بنفسه:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب:٢١)، لم يكن موقف رسول الله ﷺ من الرياضة مجرد الحث والترغيب في دفع المسلمين على ممارستها، ولم يكتف بتوضيح أدوارها في الجهاد في سبيل الله وثواب ذلك عند الله عز وجل، وإنما أعطانا القدوة والمثل في ذلك فقد ثبت عنه ﷺ أنه مارس الرياضة بنفسه في وقائع عديدة ثابتة في سنته المطهرة.

وقد جاء في صحيح البخاري عن سلمة بن الأكوع قال: مر النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون بالسوق، فقال: (ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان). قال: فأمسك أحد الفريقين بأيديهم فقال رسول الله ﷺ: (ما لكم لا ترمون؟) قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟، فقال: (ارموا وأنا معكم كلكم).

وذكر السيوطي في رسالته (المسارعة إلى المصارعة) ما أخرجه البيهقي في (الدلائل) ما ذكره ركانة بن عبد يزيد ـ وكان أشد الناس، قال: كنت أنا والنبي ﷺ في غنيمة لأبي طالب نرعاها في أول ما رأى إذ قال لي ذات يوم، (هل لك أن تصارعني؟)، قلت له أنت؟، قال: (أنا)، فقلت على ماذا؟ قال: (على شاة من الغنم) فصارعته فصرعني، فأخذ مني شاة، ثم (هل لك في الثانية)، قلت: نعم، فصارعته فصرعني، وأخذ مني شاة، فجعلت أتلفت هل يراني إنسان، فقال مالك، قلت لا يراني بعض الرعاة فيجترئون علي، وأنا في قوى من أشهدهم، قال: (هل لك في الصراع الثالثة ولك شاة)، قلت: نعم، فصارعته فصرعني، فأخذ شاة، فقعدت كئيباً حزيناً، فقال: (مالك)؟ قلت: إني راجع إلى عبد يزيد وقد أعطيت ثلاثاً من نعاجه، والثاني أني كنت أظن أني أشد قريش، فقال: (هل لك في الرابعة)، فقلت لا بعد ثلاث، فقال أما قولك في الغنم فإني أردها عليك، فردها علي، فلم يلبث أن ظهر أمره، فأتيته فأسلمت، فكان مما هداني الله أني علمت أنه لم يصرعني يومئذ بقوته، ولم يصرعني يومئذ إلا بقوة غيره.

ويتضح لنا جلياً في سياق الحديث الشريف، أن الرسول ﷺ قد التزم بأخلاق المسلم

عند انتصاره فرد إليه غنمه في سماحة وعن طيب خاطر وهو ما يطلقون عليه في الرياضة المعاصرة (الروح الرياضية)، أو اللعب النظيف.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود، من حديث عائشة قالت: سابقني النبي ﷺ فسبقته فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني قال: (هذه بتلك). وفي رواية أخرى، أنهم كانوا في سفر فقال النبي ﷺ لأصحابه تقدموا فتقدموا، ثم قال لعائشة. سابقيني فسابقها فسبقته، ثم سافرت معه أخرى فقال لأصحابه: (تقدموا) ثم قال سابقيني فسبقته - ثم سابقني وسبقني - فقال: (هذه بتلك).

ومن المهم أن نعمد إلى هذا الحديث الشريف فندرسه دراسة وافية في ضوء عدة اعتبارات إسلامية هامة تتمثل في:

- مخاطبة الرسول ﷺ لأصحابه بأن (يتقدموا) قبل أن يساق عائشة في المرتين، فمن الواضح أن هناك حكمة في ذلك، فلا يشاهدها الرجال وهي تجري، إذا فهناك آداب شرعية يجب أن تراعي في رياضة المرأة المسلمة، فكلنا نعلم ما يكون عليه جسم المرأة من حال أثناء الجري.

- إن الرسول لم يحرم المرأة من حقها في الرياضة والترويح ما دامت في أطار الشرع الحنيف.

- أن ما يعمد إليه بعض المتزمتين من منع تام لرياضة المرأة حتى ولو كانت في الإطار الشرعي، لا يمكن تفسيره إلا أنها مخالفة للسنة النبوية الشريفة، فضلاً عن إضعاف صحة ولياقة (أمهات المسلمين) وإصابتهن بأمراض قلة الحركة والسمنة وإرهاق القلب، الأمر الذي يثمر لنا خلقاً ضعيفاً وأجيالاً وهنة غير صحيحة.

قال ابن إسحاق في المغازي: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله ﷺ رمى بقوسه يوم أحد حتى أندقت سيتها فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده.

وذكر ابن القيم أن الرسول ﷺ أبصر ترقوة أبي بن خلف من فرجة في سابغة الدرع

والبيضة فطعنه بحبته فوقع أبي عن فرسه وكشر له ضلع وكان ذلك يوم أحد.

ذكر السيوطي في رسالة [الباحة في فضل السباحة] إلى تعلم رسول الله ﷺ السباحة، وذلك عندما بلغ ست سنين خرجت به أمة إلى أخواله بني عدي ابن النجار، حيث نزلت به في دار النابغة، فأقامت به عندهم شهر فكان رسول الله يذكر أموراً في مقامه ذلك فكان يقول: (ههنا نزلت بي أمي، وفي هذا الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار).

رابعاً: اهتمامه ﷺ بتربية الأطفال ولعبهم:

وقد حث الرسول ﷺ على أن نعامل الأطفال باللطف واللين ونربيهم من خلال اللعب والنشاط وأن نتباسط فنعاملهم على قدر عقولهم ومن أقواله: (من كان له صبي فليتصابى له). فقد كان ﷺ رقيق المعاملة للأطفال، وكثيراً ما كان يدعوهم للعب بين يديه.

وأخرج أبو يعلى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رأيت الحسن والحسين على عاتقي النبي ﷺ ، قلت: نعم الفرس تحتكما، فقال رسول الله ﷺ: (ونعم الفارسان هما).

وفي رواية الطبراني عن جابر قال: (دخلت على النبي ﷺ وهو يمشي على أربعة [أي على يديه ورجليه] وعلى ظهره الحسن والحسين، وهو يقول: نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما).

ومن الطريف أن كثيراً من الآباء المسلمين المحدثين يمارسون نفس هذه اللعبة مع أبنائهم بتلقائية شديدة دون أن يعرفوا أنها سنة عن سيد الخلق أجمعين.

وربما جاء الحسن إلى المسجد فالتزم ظهر النبي ﷺ وهو ساجد، فيطيل سجوده من أجله ثم يقول لأصحابه بعد الصلاة: (إن ابني ارتحلني، وإني خشيت أن أعجله). كما كان الرسول ﷺ يفرح بين رجليه حتى يمر الحسن أو الحسين من بينهما وهو قائم يصلي.

وعن أبي داود والنسائي عن أنس قال:

قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ فقالوا:

كنا نلعب فيهما في الجاهلية. فقال الرسول ﷺ: (إن الله أبدلكم بهما خيراً منهما، يوم الأضحى ويوم الفطر).

وذكر ابن سعد في (الطبقات): لما خرج النبي ﷺ إلى أحد وعرض أصحابه فرد من استصغر، رد سمرة بن جندب، وأجاز رافع بن خديج، فقال سمرة لربيعة مرى بن سنان: (يا أبت، أجاز الرسول ﷺ رافع خديج وردني، وأنا أصرع رافع بن خديج)، فقال مرى بن سنان: يا رسول الله: رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه، فقال النبي ﷺ لرافع وسمرة: (تصارعا)، فصرع سمرة رافعاً، فأجازه رسول الله ﷺ في أحد فشهدها مع المسلمين.

الحنكة النبوية في علاج كبوات النفس البشرية

عِلم إدارة الذات يتميَّز برعايته للفرد والمجتمع، وتحقيق التوازُن في المصالح والعلاقات، بما يُؤدي إلى إيجاد المجتمع الفاعل، المتماسك، المتكافل، وإقامة ذلك على تصوُّر مُحكم وشامل للإنسان، والكون، والحياة.

إنه علم في غاية الأهميَّة من جهة علاج الواقع الذي نعيش فيه، فإننا في حال هزيمة على المستوى الفردي والمستوى الجماعي، والعودة بالنفس والمجتمع من حال الهزيمة إلى حال الانتصار، تَحتاج إلى مزيد الاهتمام بهذا العلم، وتقديمه للكبير والصغير في صورة مُيسَّرة وسهلة، وَفْق عقيدة إسلاميَّة سليمة، وبعيدًا عن التعقيدات الفلسفيَّة والشطحات الفكريَّة.

وبالرغم من أنَّ لعلماء الغرب جهودًا واضحة في هذا العلم، فإنَّ ما يعيب عليهم تلك المادية المُفرطة في تناول جزئيَّاته، والتي تدور دومًا حول تكوين الرجل الجبَّار الذي يَقهر الأقدار، وعلى تَسَلْسُل الأحداث، وَفْق مُقَدِّمات ونتائج حتميَّة أشبه بالمعادلات الرياضيَّة الصَّماء، حتى غابت الحقيقة التي لا ريبَ فيها من أنَّ أساس النجاح في أيِّ عملٍ، يرجع إلى توفيق الله سبحانه وتعالى.

أمَّا عُلماؤنا المسلمون، فلهم القدر الأعلى والحظُّ الأوفر في خدمة هذا العلم الشريف، لكن في أجواء روحانيَّة ساميَّة، ولَمسات إيمانيَّة راقية، وتناغُم مع الفطرة البشريَّة، بما فيها من قوَّة في مجالات، وضَعْف في مجالات أخرى، وبما فيها من إقدام وإحجامٍ، وحزنٍ وفرحٍ، وعلمٍ في أمور، وجهلٍ بأمور أخرى، بما فيها من تناقضاتٍ، وإيجابيَّاتٍ، وسلبيَّات.

ويرجع السبب الأعظم في هذا التميُّز الإسلامي، وهذا المذاق الخاص عند علمائنا الأخيار - إلى النَّهل من النَّبع الكريم، نَبْعِ القرآن العظيم، الذي لا يَأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميدٍ، والاسترشاد بالسنَّة النبويَّة المُطهرة التي نزَلت على أطهر قلبٍ، قلبِ الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

ولا ريب أنَّ الاغتراف من مَعين الكتاب الكريم، وأقوال رسولنا الأمين - لهما أبعدُ الأثر في الوقوف الحقيقي على طبيعة النفس البشرية؛ **﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾** (الملك:١٤).

وكيفيَّة التعامل معها، فضلاً عن النظرة الشموليَّة لحياة الفرد، بداية من أخْذ الله الميثاق عليه في الأزَل، ثم وجوده على الأرض في الحياة الدنيويَّة، ثم ما يَتبعها من حياة بَرْزخيَّة، وأحداث يوم القيامة، ثم دار القرار: جنة الخُلد، أو النار - أعاذَنا منها الكريم الجبَّار.

ولا شكَّ أنَّ هذه النظرة الشمولية تختلف كثيرًا عن النظرة القاصرة لحياة الإنسان الدنيويَّة فقط، والتي تُكرِّس الماديَّة المُفرطة، والدَّوران في فلك اللذات والشهوات، دون رقيبٍ أو حسيبٍ.

هذا التناغم بين المصادر الإلهيَّة والتجارب الحياتيَّة -في إطار سلامة المُعتقد، وشمولية النظرة للكون والحياة- جعَل من علم إدارة الذات رائعةً من روائع الحضارة الإسلاميَّة، لا تَجد لها مثيلاً في الأُمم الأخرى، حتى صار هذا العلم فنًّا إسلاميًّا باقتدارٍ، ويكفي أن تُتابع كتابات الأفذاذ، من أمثال ابن القيِّم، وابن الجوزي، وابن حِبَّان، وغيرهم

من المتأخِّرين، فضلاً عن كتابات مشايخنا المعاصرين؛ حتى تُدرك هذه اللمسات الإيمانيَّة الفريدة التي تُدلِّل على براعة علمائنا، ومَن ذاقَ عرَف.

أيضًا مما يَمتاز به علم إدارة الذات الإسلامي، التطرُّق إلى أمور تَغيب تمامًا عن الفكر الغربي المادي، رغم شدَّة حاجتها إلى كلِّ ذي فِطرة سويٍّ، ومنها: عقيدة القضاء والقدر، وقِيَم الصبر على أقدار الله، والرضا بالقَسْم الربَّاني.

أمراض القلوب من غِلٍّ، وحِقدٍ، وحسدٍ، وغيرها، الهوى والشيطان وكيف يَستعيذ منها الإنسان، استراتيجيَّة العمل لِما ينفع بعد الموت، وقِيَم الصَّدقة الجارِيَة، وَفِقه مَن تجاوَزَت أعمالُهم أعمارَهم، وغيرها الكثير.

دور الإيمان بالغيبيَّات في إيجابيَّة حياة الفرد في الدنيا والآخرة، وأنَّ قِيَم الإيمان بالله وملائكته وكُتبه ورُسله وباليوم الآخر - كلها قِيَمٌ دافعة لصلاح الذات، وهذا غَيْض من فَيْض؛ فالمقام لا يسمح باستقصاء كلِّ مميزات عِلم إدارة الذات الإسلامي، لكن لا يَغيب على كلِّ فَطِنٍ أهميَّة هذه المميزات في حياة الإنسان، وفي تفاعُله المُثمر مع خالقه وبارئه، بل ومع الكون كله.

إنَّ الإيمان الحق بالله سبحانه وتعالى، أي الإيمان الراسخ في القلب رسوخ الجبال الشامخات، والذي يُصَدِّقه العمل الصالح، وليس الإيمان الذي يُردِّده اللسان فقط - هذا الإيمان يَجعل الإنسان المؤمن قويًّا في إرادته، لا تُعجزه ولا تُوقفه العَقَبات والمشاكل التي تَعترض طريقه في الحياة، بل يَنظر إليها ويَضعها في حجمها الطبيعي، ويُوقِن أنه سيتغلَّب عليها، أو يتأقْلَم معها طالما الْتَزَم التوكل على الله -سبحانه- حقَّ التوكُّل، وهذا التوكُّل - وليس التواكُل- هو الدافع الحقيقي للفرد المؤمن نحو الشجاعة والإقدام، واقتحام المشاكل، وعدم التسويف الذي يُورث في النفس الخوفَ من المجهول، والخوفَ من المستقبل.

إنَّ التوكُّل على الله تعالى يُولِّد الثقة في النفس، والثقة في القدرات الهائلة التي وضَعها الله سبحانه فينا، فلا مجال إذن إلاَّ للإرادة القوية المقرونة بالتوكُّل الحقِّ على الله -

سبحانه- خالق ومالكِ كلِّ شيء، وأن تَنطلق هذه الإرادة من يقينٍ راسخٍ بأنَّ الله سبحانه هو المتصرِّف في مُلكه، وهو القادر عليه، وهو المعطي والمانع، وهو الرافع والخافض؛ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [٢٦] تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران:٢٦-٢٧).

من هذا المنطلق نستطيع أن نقولَ: إنَّ النبي ﷺ كان رائدَ علم إدارة الذات باقتدارٍ، وتنوَّعت مهاراته -بأبي هو وأمي- في معالجة كَبوات النفس البشرية، تنوعًا يناسب طبيعة الكَبوة؛ سواء على الصعيد الفردي، أو الجماعي.

فعن أبي أمامه قال: "أتى رسول الله ﷺ غلامٌ شابٌّ، فقال: يا رسول الله، ايذَنْ لي في الزنا. فصاحَ به الناس، وقالوا: مَهْ! فقال النبي ﷺ: "ذَرُوه، ادنُ". فدَنا حتى جلَس بين يدي رسول الله ﷺ فقال: "أتحبُّه لأُمك؟" قال: لا. قال: "فكذلك الناس لا يحبُّونه لأُمَّهاتهم. أتحبُّه لابنتك؟" قال: لا. قال: "وكذلك الناس لا يحبُّونه لبناتهم. أتحبُّه لأُختك؟" قال: لا. قال: "فكذلك الناس لا يحبُّونه لأَخواتهم. أتحبُّه لعمَّتك؟" قال: لا. قال: "فكذلك الناس لا يحبُّونه لعمَّاتهم. أتحبُّه لخالتك؟" قال: لا. قال: "وكذلك الناس لا يحبُّونه لخالاتهم، فاكْرَه لهم ما تَكره لنفسك، وأَحِبَّ لهم ما تحبُّ لنفسك". فقال: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يُطهِّر قلبي. فوضَع النبي ﷺ يده على صدره، فقال: "اللهمَّ اغْفِر ذنبه، وطهِّر قلبه، وحَصِّن فَرْجَه". قال: فلم يكن بعد ذلك يَلتفت إلى شيءٍ".

وهنا تكمن براعة المصطفى ﷺ في التعامل بفرديَّة بَحْتة مع هذه القضية الفردية، ذاك أنها مشكلة تخصُّ هذا الشخص وحده، ولا تخصُّ غيره؛ حيث لا يختلف عاقلان على قُبح الزنا وبشاعته، ولكنَّها حالة خاصة من تشوُّش الفكرة، وانقلاب الفطرة، فكانت السياسة النبويَّة قائمة على الإقناع أكثر منها بالمواجهة لحُكم الله تعالى في هذا الأمر؛ ذاك لأن العقول لو تفهَّمت مراد الله -عزَّ وجلَّ- لسَهُل عليها الانقياد لشرعه، والإذعان لحُكمه.

لَم نجد النبي ﷺ يَسرد على الفتى آيات القرآن الكريم التي قبَّحت الزنـا، وتوعَّـدت فاعله، بل إنه -عليه الصلاة والسلام- قابَل تشوُّش الفكرة بعـين الحِكمـة والإقنـاع، ثـم بجميل الدعاء؛ مما سهَّل عليه الانصياع لحُكم الله الذي لا يَجهله مسلم.

لكن في موقف آخرَ نجد أنَّ الطريقة النبوية تختلف تمامًا في تنـاوُل معالجتهـا؛ ذلـك لأنَّها قضيَّة عامَّة تمسُّ الأمة قاطبةً، لا فردًا بعينه، فكان لا بُدَّ من الجهـار والاسـتنكار دون تجريحٍ أو تفضيحٍ.

فعن أبي حُميد الساعدي قال: "استعمَل النبي ﷺ رجلاً مـن الأزد -يُقـال لـه: ابـن اللُّتبيَّة- على الصَّدقة، فلمَّا قَدِم، قال: هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ. قال: فقام رسـول الله عـلى المنبر، فحَمِد الله وأثنَى عليه، ثم قال: "أمَّا بعدُ، فإني أستعمِل الرجل منكم على العمل ممـا ولاَّني الله، فيأتي فيقول: هذا مالكم وهذا هديةٌ أُهْدِيت لي! أفلا جلَس في بيت أبيـه وأمـه؛ حتى تأتيه هَديَّته إن كان صادقًا. والله لا يأخذ أحدٌ منكم شيئًا بغير حقِّه، إلا لَقِي الله يَحمله يوم القيامة، فلأعْرِفَنَّ أحدًا منكم لَقِي الله يَحمل بعيرًا له رُغاءٌ، أو بقرةً لهـا خُـوار، أو شـاة تَيْعَر". ثم رفَع يديه؛ حتى رُئي بياض إِبطَيه يقول: "اللهمَّ هل بَلَّغت".

ولَمَّا كانت النصيحة على الملأ فضيحة، نجد الأدب النبوي أعـرَض عـن ذِكـر اسـم الرجل على المنبر، فالتشهير بذوات الناس لا يُحقِّق المراد، ويُوغِر الصدور، ولكنَّ المقـصود أن يعلم القاصي والداني عاقبة الرِّشـوة؛ لأنهـا ثمـرة فـساد الأُمـم؛ حيـث تُـسْتَجلب بهـا الرغبات بغير حقٍّ، فيتحوَّل المجتمع إلى غابة مُوحشة، الحقُّ كله فيها للغنـي دون الفقـير، وهذا نذيرُ شُؤْمٍ وعاقبة هلاك.

لذلك قال شُرَّاح الحديث:

- وفيه أنَّ مَن رأى مُتأوِّلاً أخطأ في تأويلٍ يَضرُّ مَن أخَذ به، أن يُشهِر القول للناس، ويُبيِّن خطَأه؛ ليحذَر من الاغترار به.

- وفيه جواز توبيخ المخطئ، وجواز تقريعه تقريعًـا يتوجَّـع منـه كـلُّ ذي شـعور،

ويَستحقه مثل هذا العامل الذي أرادَ أن يَخدع نفسه، ويَخدع الناس، ويُفتيهم بحلٍّ ما أخذ من المُزكِّين بدعوى أنه هَديَّة.

إننا في أشد الحاجة لتلمُّس تلك الحنكة النبوية في تعامُلها مع الأحداث، وأن نُقدِّمها لشبابنا وبناتنا خاصةً؛ لتتَّسِع نظرتهم للحياة، ولتَحسن إدارة ذَواتهم في رحلة الحياة، بما يَضمن لهم الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

نريد أن نسترشدَ بهدي سيِّد المرسلين؛ لنَخرج من متعة اللحظة إلى آفاق المُتعة الرَّحبة في الدنيا والآخرة، ونُدير حياتنا بشكلٍ نموذجي؛ نَشكر فيه السرَّاء، ونَصبر على الضرَّاء، ونرضى بقضاء الله تعالى آناءَ الليل وأطراف النهار. والله مِنْ وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.





آل البيت





آلُ البَيْتِ

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد أما بعد: قال ابن منظور صاحب لسان العرب: أهل البيت سكانه وأهل الرجل أخص الناس به وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه وبناته وصهره، أعني عليا عليه السلام وقيل نساء النبي والرجال الذين هم آله .

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد أما بعد:

قال ابن منظور صاحب لسان العرب: أهل البيت سكانه وأهل الرجل أخص الناس به وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه وبناته وصهره، أعني عليا عليه السلام وقيل نساء النبي والرجال الذين هم آله

وقال الراغب الأصفهاني: أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وولد. وقيل إن أصل كلمة آل: أهل، ثم قُلبت الهاء إلى همزة فصارت أأل ثم خففت بعد ذلك إلى آل. اهـ.

فآل وأهل واحد ، وآل الرجل هم أزواجه وذريته وأقرباؤه كما ذكر أهل اللغة . قال تبارك وتعالى عن امرأة العزيز أنها قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً﴾ (يوسف:٢٥) تريد نفسها وقال الله تبارك وتعالى عن موسى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾(النمل:٧). وأهله زوجته التي كانت معه. وقال عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وزوجته ﴿ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود:٧٣).

أما الأهل والآل في الشرع فعلى أربعة أقوال مشهورة :

القول الأول : إن الآل هم الأزواج والذرية:

واستدلوا على ذلك بآية التطهير ، التي ذكرت نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً [٣٢] وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَّ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [٣٣] وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَّ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (الأحزاب:٣٢-٣٤) .

فالآيات في أولها تتكلم عن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك في آخرها عن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال لهن في وسط هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣)، وهنا لا مدخل ولا كلام لمن قال بأن الآل – هنا أو الأهل هنا هم غير نساء النبي – صلى الله عليه وآله وسلم لأن هذا يخالف سياق الآية كما ترون فالآية ابتدأت بالنساء وختمت بالكلام عن النساء .

وأما قول من يقول: فلم أعرض عن نون النسوة وجاء بدلها بميم الجمع ؟

فقال في بداية الآيات: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾، ثم قال: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ثم قال: ﴿ وَاذْكُرْنَ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُّ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ﴾ ولم يقل عنكن ، والجواب هو أن الأوامر في البداية هي للنساء خاصة، ثم جاء بميم الجمع لدخول رجل مع النساء وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو سيد البيت – صلوات الله وسلامه عليه، فإذا دخل الرجل مع مجموع النساء انقلبت نون النسوة إلى ميم الجمع وهذا معلوم ظاهر في اللغة، ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهَّ وَالْحِكْمَةِ﴾.

الدليل الثاني: التشهد، وذلك أننا نقول في تشهدنا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. وجاء في بعض صيغ التشهد عند البخاري تفسير الآل في قوله: اللهم صل على

محمد وعلى أزواجه وذريته. فهذه الصيغة هي تفسير لقوله: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد فحذف الآل، وجاء بدلها بالأزواج والذرية.

وكذلك جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خبز بُرٍّ. أخرجه الإمامان البخاري ومسلم. وقول عائشة ما شبع آل رسول الله. تريد نفسها وأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما تريد أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللاتي هن تبع له شرعاً.

القول الثاني: هم من حرمت عليهم الزكاة :

وفيمن حرمت عليهم الزكاة قولان:

١) أن الذين حرمت عليهم الزكاة: بنو هاشم وبنو المطلب، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرجع نسبه إلى هاشم. فهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم. والمطلب أخو هاشم وهو عم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بل إن عبد المطلب نسبوه إلى عمه وذلك أن اسمه شيبة الحمد ولكنه تربى عند أخواله من بني النجار من أهل المدينة، ولذلك ليقال لهم أخوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتوفي هاشم وولده شيبة عند أخواله فذهب عمه المطلب فأخذه إلى مكة فظن الناس أن شيبة الحمد عبدٌ للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فقال لهم المطلب: لا، هذا شيبة ابن أخي هاشم، ولكن غلب عليه اللقب حتى ما صار يعرف في مكة إلا بعبد المطلب.

الشاهد أن الذين حرمت عليهم الزكاة على القول الأول بنو هاشم وبنو المطلب.

القول الثاني : أن الذين حرمت عليهم الزكاة بنو هاشم فقط:

وأما الدليل على أن هؤلاء هم أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فحديث زيد بن أرقم رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: أذكركم الله أهل بيتي أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، فقيل لزيد من أهل بيته؟ قال أهل بيته من حرم الصدقة. وهم آل علي وآل عقيل وآل العباس وآل جعفر، فعد



هؤلاء الأربعة – أي أقارب النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –أخرجه مسلم.

وكذلك استدلوا بحديث الحسن بن علي رضي الله عنه أنه أخذ تمرة من الصدقة. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. متفق عليه

واستدلوا بحديث عبد المطلب أو المطلب بن ربيعة – على اختلاف في اسمه – والفضل بن العباس أنهما ذهبا إلى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وسألاه أن يستعملهما على الصدقة حتى ينالا الأجر – يعني الأجر المادي – لأنه من الأصناف الذين يستحقون الزكاة . ﴿وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا﴾ (التوبة:٦٠) فأراد الفضل بن العباس ، وعبد المطلب بن ربيعة أن يكونا من العاملين عليها. فقال لهما النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –: إنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد . ومنعهما من ذلك. أخرجه مسلم.

فدل هذا على أن الفضل بن العباس بن عبد المطلب وعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لا تحل لهما الزكاة. لأنهما من آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –.

القول الثالث: أن آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم جميع أمة الاستجابة:

يعني كل مسلم يعتبر من آل النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – أي من أتباعه. فآل الرجل أتباعه، فكل من تبع رجلا صار من آله . كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦) .

أي فرعون ومن تبعه على دينه وكفره والعياذ بالله، ولذلك لما جاء أبرهة الحبشي ليهدم الكعبة قال عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبياتا من الشعر منها:

لا هُمَّ إن العبد يمنع رَحْ لَهُ فامنع رِحالك

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهم ومِحا لُهم غدواً مِحالك

وانصر على آل الصَّليبِ وعابديه اليوم آلك

القول الرابع : علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما دون غيرهما .

واستدلوا بحديث الكساء وهو أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كما روت عائشة رضي الله عنها دخل عليه علي بن أبي طالب - فأدخله تحت كسائه {عباءته} ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جَلَّلَهم {أي غطاهم} ثم قرأ: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " أخرجه مسلم.

فدل على أن هؤلاء أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

واستدلوا كذلك بآية المباهلة وهي قوله تبارك وتعالى: **﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾** (آل عمران:٦١) ، فقالوا: دعا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أقرب الناس إليه وهم آله فكانوا عليا وفاطمة والحسن والحسين. أخرجه البخاري ومسلم. والصحيح من هذه الأقوال أن آل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هم من حرموا الصدقة . والصحيح أن الذين تحرم عليهم هم بنو هاشم فقط ، أما بنو المطلب فالصحيح أنه لا تحرم عليهم الزكاة . والله أعلم

وأما نساء النبي فهن من آل البيت بالتبعية لا بالأصالة، وذلك أنهن قبل اقترانهن بالنبي لم يكنَّ من آل البيت.

من هم بنو هاشم بن عبد مناف:

عبد مناف جد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الخامس له أربعة من الولد كما ذكر أهل العلم. وهم هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل.

عبد شمس ولد له الحكم وأمية والحكم والد مروان وجد عبد الملك مؤسس الدولة المروانية.

وأمية والد بني أمية: ومنهم عثمان بن عفان وأبو سفيان والد معاوية .



ونوفل من نسله مطعم بن عدي وعبد الله بن جبير بن مطعم بن عدي كان قائد الرماة الذين تركوا مكانهم في غزوة أحد.

والمطلب من نسله: ركانة الذي اشتهر أنه صارع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فصرعه النبي.

ومن نسله كذلك: مسطح بن أثاثة الذي تكلم في عائشة - رضي الله عنها - في حادثة الإفك . فجلده النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

ومن نسله الإمام الشافعي، ولذلك يقال للإمام الشافعي الأمام المطلبي . ولذلك لما تكلم رجل في علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند معاوية رضي الله عنه، رد معاوية على الرجل ودافع عن علي. فاستغرب أحد الحاضرين، خاصة مع القتال الذي كان بين معاوية وعلي، فسافر إلى الكوفة وأخبر عليا - رضي الله عنه - بما وقع فقال له علي: أتدري لم فعل معاوية ذلك؟ قال: لا أدري. قال: لأجل المنافية. .يعني لأجل أنه ابن عمي. يلتقي معي في عبد مناف.

وكذا لما خرج أبو سفيان بعد صلح الحديبية إلى الشام والتقى بهرقل هو والذين معه سألهم هرقل: أيكم أقرب الناس نسبا بمحمد؟ قال أبو سفيان: أنا. لأنه كما قلنا يلتقي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عبد مناف.

أما هاشم فله ولدان: عبد المطلب الذي هو شيبة الحمد. وأسد وهو والد فاطمة أم علي بن أبي طالب. وله أولاد ذكور ولكن لا يذكر لهم ذرية. والله أعلم

أما عبد المطلب، فقد ذكر أهل التاريخ أن الله رزقه عشرة من الولد. أولاد عبد المطلب:

١) عبد الله: والد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس له غير النبي ﷺ.

٢) حمزة: ولا عقب له.

٣) العباس: وهو أكثرهم ذرية، له ثمانية من الولد: عبد الله البحر الحبر وعبيد الله،

وعبد الرحمن، وكثير، وتمام، وقثم، ومعبد، والفضل وبه كان يكنى. وهذان اللذان أسلما من أعمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٤) **أبو طالب**: وله أربعة من الولد: علي، وعقيل، وجعفر، وطالب الذي كان به يكنى.

٥) **الزبير**: ولم يعقب.

٦) **أبو لهب**. وأبو لهب اسمه: عبد العزى: له ثلاثة من الولد: عتبة، وعتيبة، ومعتب.

٧) **الحارث**: وله أربعة من الولد: ربيعة، وعبد الله، وأمية، وأبو سفيان وأبو سفيان بن الحارث هو الذي هجا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعد ذلك تاب وتابع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان النبي لا يكلمه حتى بعد إسلامه حتى اشتكى إلى علي بن أبي طالب ابن عمه فقال: ما بال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكلمني؟ قال: أو ما علمت ما قد فعلت. يعني هجوت النبي صلوات الله وسلامه عليه وأنت ابن عمه. ثم قال له: أذهب إليه فقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف:٩١) فجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب. فقال للنبي: {تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين} فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال أخوة يوسف صلوات الله وسلامه عليه: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين}.

٨) **المقوم** ٩) **الغيداق** ١٠) **صفار**

فهؤلاء ومن جاء من بعدهم من الذرية كلهم آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فضل آل البيت ومكانتهم وحقهم الذي لهم:

أولا: نستطيع أن نقسم فضائل أهل البيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قسمين:

فضائل عامة، وفضائل خاصة

ـ **أما الفضائل العامة**: فمنها حديث زيد وفيه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي. وهذا عام في كل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ومن الفضائل ما جاء في آية النساء ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣) وذلك أن نساء النبي من آل البيت كما قدمنا، ودخل علي وفاطمة والحسن والحسين في هذا الفضل بحديث الكساء.

وكذلك حديث الصلاة عليهم في التشهد نقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. وهذا لفضلهم ومكانتهم عند الله تبارك وتعالى

وكذلك مما يدل على فضلهم حديث زيد بن أرقم، وفيه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم تركت فيكم ما إن تمسكتم فيه فلن تضلوا بعده أبدا كتاب الله وعترتي وفي رواية عترتي أهل بيتي" وهذا الحديث كنت أقول بحسنه فترة من الزمن ولكن بعد سبر أسانيده وإمعان النظر فيها تبين لي أنه ضعيف والله أعلم.

ـ الفضائل الخاصة:

ـ فرأسهم وسيدهم وأفضلهم علي بن أبي طالب رضي الله وتبارك وتعالى عنه وشهرته أكبر وأظهر من أن ننبه عليها ويكفيه فخرًا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. رواه مسلم

ـ العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم له: عم الرجل صنو أبيه. أي بمكانة أبيه. أخرجه الترمذي

ـ أزواجه وفيهن قول الله تبارك وتعالى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦). أي أمهات المؤمنين.

ـ فاطمة رضي الله عنها وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها: فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها. متفق عليه

ـ الحسن والحسين وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهما: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة " . أخرجه الترمذي وهو حديث صحيح.

ـ عبد الله بن العباس رضي الله عنهما ودعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم له: اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين. رواه أحمد بإسناد صحيح.

ـ المهدي وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : المهدي من عترتي من ولد فاطمة " ، وهذا رواه أبو داود وهو حديث صحيح. .

فهذه بعض فضائلهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

موقف السلف من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

أما موقف السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين من آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وتعظيمهم لهم وتوقيرهم إياهم، فمن أمثلة ذلك:

ـ قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ارقبوا محمدًا في أهل بيته. رواه البخاري في صحيحه .

وقال رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليَّ من أن أصل من قرابتي. أخرجه البخاري كذلك في صحيحه .

ـ وقال الشعبي: صلى زيد بن أرقم على جنازة أمه ثم قربت إليه بغلة ليركبها، فجاء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابه – أي يمسك ركاب البغلة لزيد بن ثابت رضي الله عنه، فقال له زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال عبد الله بن عباس: هكذا نفعل بعلمائنا، فنزل زيد من على بغلته وقبل يد عبد الله بن العباس، وقال هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ـ عن شريك بن عبد الله وهو من أتباع التابعين قال: لو جاءني أبو بكر وعمر وعلي وسألني كل حاجته لقدمت حاجة علي لقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر أفضل من علي عند الله ، ولكن قرابة علي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم توجب تقديم حاجته على حاجة غيره.

ـ وهذا مالك بن أنس إمام دار الهجرة لما آذاه أبو جعفر المنصور وضربه، قيل له: ألا تدعو عليه. فقال: والله إني لأستحيي أن آتى يوم القيامة فيُعذَّب به هذا الرجل من قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسببي، فتركه لقرابته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ـ وذكر أن هارون الرشيد جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فجاء هارون الرشيد عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتخر على الناس، فقال السلام عليك يا ابن عم. لأنه من نسل العباس بن عبد المطلب. فجاء موسى بن جعفر فقال السلام عليك يا أبت . فالتفت إليه هارون الرشيد وقال: هذا والله الفخر.

وما نقل يبطل قول الجهلة والمغرضين الذين يقولون: إن أهل السنة لا يقومون بحق آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – ، وهذه فرية قديمة ليست اتهم بها الشيخ / محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، حتى قال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في الرسالة التي بعثها عام ١٢١٨هـ ، ورد فيها على من افترى عليه في أنه لا يرى حقاً لأهل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –؟ فأجاب: سبحانك هذا بهتان عظيم. فمن روى عنا شيئاً من ذلك أو نسبه إلينا فقد كذب علينا وافترى.

فهذه هي مكانة آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – بشكل عام عند أهل السنة والجماعة.

وسأقتصر على ذكر بعض آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم ـ

وهم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة. وهم:

١ـ علي بن أبي طالب ٢ ـ الحسن ٣ ـ الحسين ٤ـ علي بن الحسين { زين العابدين}

٥ ـ ولده محمد { الباقر } ٦ـ ولده جعفر { الصادق } ٧ـ ولده موسى { الكاظم }

٨ـ ولده علي { الرضا } ٩ـ ولده محمد { الجواد} ١٠ـ ولده علي {الهادي }

١١ـ ولده الحسن {العسكري} ١٢ـ ولده محمد { المنتظر }

وهؤلاء يمكن أن نقسمهم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الصحابة منهم وهم علي والحسن والحسين.

القسم الثاني : وهم علماء أتقياء من جملة علماء أهل السنة والجماعة وهم ستة :-

١ـ علي بن الحسين ٢ـ محمد الباقر ٣ـ جعفر الصادق ٤ـ موسى الكاظم

٥ـ علي الرضا ٦ـ محمد الجواد .

القسم الثالث : من جملة المسلمين لم يُعرف له كبير علم ولا طُعن في دينهم فهم مستورون ويكفيهم فخراً نسبهم إلى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وهما اثنان:

١ـ علي الهادي ٢ـ الحسن العسكري.

وأنهما ممن يحق لهما أن يأتيا عند قبر النبي – صلى الله عليه وآله وسلم . وأن يقولا: السلام عليك يا أبت.

القسم الرابع : معدوم لم يخلق: وهو واحد وهو المنتظر، محمد بن الحسن أما مكانتهم عند أهل السنة والجماعة، أعني القسمين الأول والثاني:

القسم الأول:

ورأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزوج سيدة نساء العالمين فاطمة بن محمد رضي الله عنها، وهو رابع الخلفاء الراشدين وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

قال الحسن البصري: قُتل أمير المؤمنين { يعني عثمان بن عفان } مظلوماً، فعمد الناس إلى خيرهم فبايعوه { يعني علي بن أبي طالب }. قال أحمد بن حنبل: من لم يُرَبِّع بعلي { أي بعد أبي بكر وعمر وعثمان } فهو أضل من حمار أهله.

الثاني: الحسن بن علي السبط السيد الإمام ابن الإمام أبو محمد سيد شباب أهل الجنة. قال مساور السعدي: رأيت أبا هريرة قائماً على مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم مات الحسن يبكي وينادي بأعلى صوته ويقول: يأيها الناس مات اليوم حِبُّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فابكوا.

الثالث: الحسين بن علي الشهيد السعيد الإمام ابن الإمام أبو عُبد الله سيد شباب أهل الجنة مع أخيه رضي الله عنهما.

القسم الثاني:

أولهم: علي بن الحسين ولقبه زيد العابدين، قال ابن سعد: كان ثقة مأمونا كثير الحديث عالياً ورفيعاً ورعاً.

قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين.

قال يحي بن سعيد: سمعت على بن الحسين وكان أفضل هاشمي أدركته. قال الذهبي: كان له جلالة عظيمة وحق له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتأله وكمال عقله .

وقد حج هشام بن عبد الملك قبيل ولايته للخلافة فكان إذا أراد استلام الحجر زحم عليه الناس، فإذا جاء علي بن الحسين ابتعد الناس عن الحجر حتى يأتي ويقبل ثم يكمل باقي الأشواط فغضب هاشم بن عبد الملك نائب الخليفة، وقال: من هذا فما أعرفه؟ وكان بجانبه الشاعر الفرزدق فقال الشاعر:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

من هم آل بيت النبي حقيقة

آل البيت، اختلف أهل العلم في أهل البيت من هم؟ فقال عطاء وعكرمة وابن عباس: هم زوجاته ﷺ خاصة ، لا رجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ (الأحزاب:٣٤) وذهبت فرقة منهم أبو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة والزمخشرى والكلبي أنهم: عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة.

وذهب فريق منهم الفخر الرازي والقسطلانى وآخرون إلى أنهم آولاده وأزواجه ﷺ والحسن والحسين ، وعليٌّ منهم ؛ لمعاشرته فاطمة وملازمته النبى ﷺ.

وذهب زيد بن أرقم إلى أنهم من تحرم عليهم الصدقة، وهم آل عليٍّ، وآل عقيل ، وآل جعفر، وآل العباس ، وهو الراجح. قال السيوطى: هؤلاء هم الأشراف حقيقة فى سائر الأعصار وهو ما عليه الجمهور، وهو معنى رواية مسلم عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: (أما بعد..أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك بينكم ثقلين: أولهما: كتاب الله ، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال: (وأهل بيتى، أذكركم الله فى أهل بيتي) قالها ثلاثا، فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال: ومن هم؟ قال: آل عليّ، وآل عقيل ، وآل جعفر، وآل العباس رضى الله عنهم

***



حقوق آل البيت النبوي

استقرت لآل البيت النبوي في نفوس المؤمنين مكانة رفيعة، لقربهم من النبي ﷺ، واتصالهم بنسبه، ولنصرتهم رسول الله ﷺ في أحلك الظروف وأشد الأزمات منذ بدء الدعوة، فحفظ لهم النبي ﷺ ذلك وأوصى بهم أمته خيرا، فقال عليه الصلاة والسلام:(أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله فيه الهدى والنورأفخذوا بكتاب الله واستمسكوا بهأفحث على كتاب الله ورغب فيهأثم قال: وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي .. الحديث) رواه مسلم في صحيحه، وعرف المسلمون لهم هذا الفضل، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: " والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي " رواه البخاري ومسلم وقال أيضا: " ارقبوا محمدا ﷺ في أهل بيته " رواه البخاري أي: احفظوه فيهم؛ فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم. وقال عمر للعباس رضي الله عنهما: " والله، لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب" رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح قاله الهيثمي في المجمع .

من هم آل البيت :

اختلف العلماء في المراد بآل النبي ﷺ على مذاهب، نذكر أشهرها:

المذهب الأول: أنهم بنو هاشم فقط وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك ويعللون ذلك بأن آله ﷺ هم من اجتمع معه عليه الصلاة والسلام في هاشم قالوا: والمطلب لم يجتمع معه عليه السلام في هاشم لأن المطلب أخو هاشم، وكما أن عبد شمس ونوفلا أخوان لهاشم وهما ليسا من آل البيت، فكذلك المطلب .

ويبين العيني المراد ببني هاشم فيقول: وبنو هاشم هم آل علي وآل عباس وآل جعفر وآل عقيل وآل الحارث بن عبد المطلب .

المذهب الثاني: أن آل البيت هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط وهو المذهب عند الشافعية والحنابلة . ويؤيد هذا ما رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه، أنه قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي ﷺ، فقلنا: أعطيت بني المطلب من خمس خيبر وتركتنا ونحن بمنزلة واحدة منك، فقال: (إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد) قال جبير : "ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس وبني نوفل شيئا". وفي هذا يقول الشيخ الشنقيطي في الأضواء : " ولما ناصر بنو المطلب بن عبد مناف بني هاشم، ولم يناصرهم بنو عبد شمس بن عبد مناف وبنو نوفل بن عبد مناف، عرف النبي ﷺ لبني المطلب تلك المناصرة التي هي عصبية نسبية لا صلة لها بالدين، فأعطاهم من خمس الغنيمة مع بني هاشم، وقال:" إنا وبني المطلب لم نفترق في جاهلية ولا إسلام "، ومنع بني عبد شمس وبني نوفل من خمس الغنيمة، مع أن الجميع أولاد عبد مناف بن قصي".

خصائص آل البيت وحقوقهم :

١) **مودة آل البيت:** اتفق العلماء على وجوب مودة آل البيت; لأن في مودتهم مودة للنبي ﷺ، وقد قال ﷺ: (أذكركم الله في أهل بيتي قالها ثلاثا). ولا شك أن المراد بالمودة هنا قدرا زائدا عن مودة غيرهم من المؤمنين، ولو كانوا من الأقربين، حتى قال أبو بكر رضي الله عنه: " لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي "، وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وقال: (والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله) رواه أحمد .

٢) **الصلاة عليهم:** وقد بين ﷺ كيفية الصلاة عليه، وأن الصلاة على آله تبع للصلاة عليه، فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ قولوا:(اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) متفق عليه.

٣) **تحريم أكل الصدقة عليهم**: قال ﷺ:(إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس، وإنها لا تحل لمحمد، ولا لآل محمد) رواه مسلم . ومعنى أوساخ الناس أنها تطهير أموالهم ونفوسهم. قال الإمام ابن قدامه :" ولا نعلم خلافا في أن بني هاشم لا تحل لهم الصدقة المفروضة "، أما صدقة التطوع فتحل لهم لأنها ليست من أوساخ الناس.

٤) **إعطاؤهم خُمس الخمس من الغنيمة والفيء**: قال تعالى: **﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾** (الأنفال:٤١)، وقال: **﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾** (الحشر:٧).

٥. فضل النسب وطهارة الحسب: فعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) رواه مسلم . فنسبه ﷺ ونسب آله أشرف النسب وأعلاه في العرب والعجم .

وقد وردت أحاديث في بعض خصائص آل البيت، لكنها ضعيفة أو موضوعة، وقد سئل علي رضي الله عنه هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ فقال: ما خصنا بشيء لم يعمَّ به الناس، إلا ما في قراب سيفي هذا، فأخرج صحيفة فيها: (لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من غير منار الأرض، ولعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدثا) رواه مسلم . والاستثناء في كلام علي رضي عنه مقطوع بمعنى لكن، لأن ما ذكر في الحديث ليس خاصا بأهل البيت بل هو عام للأمة جمعاء.

أما مناقب آل البيت وفضائلهم الخاصة فقد ثبت لكثير منهم مناقب كثيرة، حفظتها السنة، مثل فضائل علي رضي الله عنه، وهي أشهر من أن تذكر، والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وخديجة خير النساء، وفضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام، وفاطمة سيدة نساء أهل الجنة، وحمزة سيد الشهداء يوم القيامة .

ومثل فضائل زوجاته ﷺ اللاتي فضلهن الله على سائر النساء إن تحلين بالتقوى، وقمن بحقها، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ (الأحزاب:٣٢)، وقد أكرمهن الله بأن جعل بيوتهن موطنا يتنزل فيه وحي السماء، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب:٣٤). ولما كانت مكانتهن تلك المكانة، فقد حذرهن الله جل وعلا من الوقوع فيما يسخطه، فيتخذ أعداء الإسلام ذلك سبيلا للطعن في النبي ﷺ ورسالته، قال تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ (الأحزاب:٣٠)، والغاية من وراء ذلك هو المبالغة في تطهير بيت النبوة أن يشوبه عيب أو نقص، وليكون موضعاً للتأسي والاقتداء لسائر الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣).

عقيدة أهل السنة في آل البيت

تتلخص عقيدة أهل السنة في آل البيت في أنهم يحبون المؤمنين منهم، ويرون أن المؤمن من آل البيت له حقان: حق الإيمان، وحق القرابة.

ويرون أنهم ما شرفوا إلا لقربهم من الرسول ﷺ، وليس هو الذي شُرِّف بهم، ويتبرؤون من طريقة من يغالون في حبهم، كالذين رفعوا بعضهم إلى مقام العصمة، يتبرؤون كذلك من طريقة المبغضين الذين يسبونهم ويكفرونهم، ويحفظون فيهم وصية الرسول ﷺ.

ويرون أنهم على مراتب ومنازل، وأنهم وإن تميزوا فلا يعني أن لهم الفضل المطلق على غيرهم في العلم والإيمان، فالثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، أفضل من علي، وإن امتاز عنهم بخصوصيات.

ويرون تعظيم قدر أزواجه رضي الله عنهن، والدعاء لهن، ومعرفة فضلهن، والإقرار بأنهن أمهات المؤمنين.

قال ابن كثير – رحمه الله – في تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣): " ولا ننكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم، وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخراً وحسباً ونسباً، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين".

ومع كل هذه المكانة التي أكرم الله بها آل بيت نبيه، إلا أن ذلك كله مشروط بالصلاح والتقوى، وهم فيما عدا ما لهم من خصائص كغيرهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما على المسلمين من واجبات، فليس قربهم من النبي بمجيز لهم تجاوز أحكام الله وشرعه، أو أن ينالوا النجاة في الآخرة دون تقوى وعمل صالح، فكل عباد الله في ميزان الله سواء، وهذا ما أوضحته الأدلة الشرعية إيضاحاً تاماً بعيداً عن اللبس في أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: (أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ، فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: أتشفع في حد من حدود الله، ثم قام فاختطب فقال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) فهذا الحديث يبين بما لا يدع مجالا للشك أن الكل أمام شرع الله سواء، سواء أكان من آل البيت أم من غيرهم، وسواء أكان من أشراف الناس أم من ضعفائهم، هذا في الدنيا، أما في الآخرة فقد قال النبي ﷺ القول الفصل في ذلك عندما أعلنها صريحة أن: (من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم فمدار النجاة على الإيمان والعمل الصالح، لا على الأنساب والأحساب.

هذه هي حقوق آل بيت النبي، وتلك هي مكانتهم، فمن أنزلهم فيها فقد رشد وهدي إلى صراط مستقيم، ومن غلا فيهم أو أجحف في حقهم، فقد ضل سواء السبيل .

آلُ البيْتِ للشيخ عثمان الخميس

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد أما بعد: قال ابن منظور صاحب لسان العرب: أهل البيت سكانه وأهل الرجل أخص الناس به وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه وبناته وصهره، أعني عليا عليه السلام وقيل نساء النبي والرجال الذين هم آله .

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد أما بعد:

قال ابن منظور صاحب لسان العرب: أهل البيت سكانه وأهل الرجل أخص الناس به وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه وبناته وصهره، أعني عليا عليه السلام وقيل نساء النبي والرجال الذين هم آله

وقال الراغب الأصفهاني: أهل الرجل من يجمعه وإياهم نسب أو دين أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وولد. وقيل إن أصل كلمة آل: أهل، ثم قُلبت الهاء إلى همزة فصارت أأل ثم خففت بعد ذلك إلى آل. اهـ. فآل وأهل واحد ، وآل الرجل هم أزواجه وذريته وأقرباؤه كما ذكر أهل اللغة . قال تبارك وتعالى عن امرأة العزيز أنها قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً﴾ (يوسف:٢٥) تريد نفسها وقال الله تبارك وتعالى عن موسى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾(النمل:٧). وأهله زوجته التي كانت معه. وقال عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وزوجته ﴿ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود:٧٣)

أما الأهل والآل في الشرع فعلى أربعة أقوال مشهورة.

القول الأول : إن الآل هم الأزواج والذرية:

واستدلوا على ذلك بآية التطهير ، التي ذكرت نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في قول الله تباك وتعالى ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً [٣٢] وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً [٣٣] وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً﴾ (الأحزاب ٣٣-٣٤) .

فالآيات في أولها تتكلم عن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكذلك في آخرها عن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال لهن في وسط هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ، وهنا لا مدخل ولا كلام لمن قال بأن الآل – هنا أو الأهل هنا هم غير نساء النبي – صلى الله عليه وآله وسلم لأن هذا يخالف سياق الآية كما ترون فالآية ابتدأت بالنساء وختمت بالكلام عن النساء .

وأما قول من يقول: فلم أعرض عن نون النسوة وجاء بدلها بميم الجمع ؟

فقال في بداية الآيات: ﴿ يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ﴾، ثم قال: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، ثم قال: ﴿ وَاذْكُرْنَ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ﴾ ولم يقل عنكن ، والجواب هو أن الأوامر في البداية هي للنساء خاصة، ثم جاء بميم الجمع لدخول رجل مع النساء وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو سيد البيت – صلوات الله وسلامه عليه، فإذا دخل الرجل مع مجموع النساء انقلبت نون النسوة إلى ميم الجمع وهذا معلوم ظاهر في اللغة، ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾.

الدليل الثاني: التشهد، وذلك أننا نقول في تشهدنا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. وجاء في بعض صيغ التشهد عند البخاري تفسير الآل في قوله: اللهم صل على

محمد وعلى أزواجه وذريته. فهذه الصيغة هي تفسير لقوله: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد فحذف الآل، وجاء بدلها بالأزواج والذرية.

وكذلك جاء عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من خبز بُرٍّ. أخرجه الإمامان البخاري ومسلم. وقول عائشة ما شبع آل رسول الله. تريد نفسها وأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما تريد أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم اللاتي هن تبع له شرعاً.

القول الثاني: هم من حرمت عليهم الزكاة.

وفيمن حرمت عليهم الزكاة قولان:

١) أن الذين حرمت عليهم الزكاة: بنو هاشم وبنو المطلب، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرجع نسبه إلى هاشم. فهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم. والمطلب أخو هاشم وهو عم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

بل إن عبد المطلب نسبوه إلى عمه وذلك أن اسمه شيبة الحمد ولكنه تربى عند أخواله من بني النجار من أهل المدينة، ولذلك ليقال لهم أخوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتوفي هاشم وولده شيبة عند أخواله فذهب عمه المطلب فأخذه إلى مكة فظن الناس أن شيبة الحمد عبدٌ للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فقال لهم المطلب: لا، هذا شيبة ابن أخي هاشم، ولكن غلب عليه اللقب حتى ما صار يعرف في مكة إلا بعبد المطلب.

الشاهد أن الذين حرمت عليهم الزكاة على القول الأول بنو هاشم وبنو المطلب.

القول الثاني: أن الذين حرمت عليهم الزكاة بنو هاشم فقط:

وأما الدليل على أن هؤلاء هم أهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فحديث زيد بن أرقم رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: أذكركم الله أهل بيتي أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، فقيل لزيد من أهل



بيته؟ قال أهل بيته من حرم الصدقة. وهم آل علي وآل عقيل وآل العباس وآل جعفر ، فعد هؤلاء الأربعة – أي أقارب النبي – صلى الله عليه وآله وسلم -أخرجه مسلم.

وكذلك استدلوا بحديث الحسن بن علي رضي الله عنه أنه أخذ تمرة من الصدقة. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد. متفق عليه

واستدلوا بحديث عبد المطلب أو المطلب بن ربيعة – على اختلاف في اسمه – والفضل بن العباس أنهما ذهبا إلى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وسألاه أن يستعملهما على الصدقة حتى ينالا الأجر – يعني الأجر المادي – لأنه من الأصناف الذين يستحقون الزكاة .] والعاملين عليها [[التوبة ٦٠] فأراد الفضل بن العباس ، وعبد المطلب بن ربيعة أن يكونا من العاملين عليها. فقال لهما النبي – صلى الله عليه وآله وسلم -: إنها لا تحل لمحمد ولا لآل محمد . ومنعهما من ذلك. أخرجه مسلم.

فدل هذا على أن الفضل بن العباس بن عبد المطلب وعبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب لا تحل لهما الزكاة. لأنهما من آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –.

القول الثالث: أن آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم جميع أمة الاستجابة:

يعني كل مسلم يعتبر من آل النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – أي من أتباعه. فآل الرجل أتباعه، فكل من تبع رجلا صار من آله . كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦) .

أي فرعون ومن تبعه على دينه وكفره والعياذ بالله، ولذلك لما جاء أبرهة الحبشي ليهدم الكعبة قال عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبياتا من الشعر منها:

لا هُمَّ إن العبد يمنع رَحْ لَهُ فامنع رِحالك

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهم ومِحا لُهم غدواً مِحالك

وانصر على آل الصَّليبِ وعابديه اليوم آلك

القول الرابع : علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما دون غيرهما .

واستدلوا بحديث الكساء وهو أن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم - كما روت عائشة رضي الله عنها دخل عليه علي بن أبي طالب – فأدخله تحت كسائه {عباءته} ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جَلَّلَهم {أي غطاهم} ثم قرأ: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " أخرجه مسلم.

فدل على أن هؤلاء أهل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –.

واستدلوا كذلك بآية المباهلة وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران:٦١) ، فقالوا: دعا النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – أقرب الناس إليه وهم آله فكانوا عليا وفاطمة والحسن والحسين. أخرجه البخاري ومسلم. والصحيح من هذه الأقوال أن آل النبي – صلى الله عليه وآله وسلم - هم من حرموا الصدقة . والصحيح أن الذين تحرم عليهم هم بنو هاشم فقط ، أما بنو المطلب فالصحيح أنه لا تحرم عليهم الزكاة . والله أعلم

وأما نساء النبي فهن من آل البيت بالتبعية لا بالأصالة، وذلك أنهن قبل اقترانهن بالنبي لم يكنَّ من آل البيت.

من هم بنو هاشم بن عبد مناف

عبد مناف جد النبي – صلى الله عليه وآله وسلم - الخامس له أربعة من الولد كما ذكر أهل العلم. وهم هاشم والمطلب وعبد شمس ونوفل.

عبد شمس ولد له الحكم وأمية والحكم والد مروان وجد عبد الملك مؤسس الدولة المروانية.



وأمية والد بني أمية: ومنهم عثمان بن عفان وأبو سفيان والد معاوية .

ونوفل من نسله مطعم بن عدي وعبد الله بن جبير بن مطعم بن عدي كان قائد الرماة الذين تركوا مكانهم في غزوة أحد.

والمطلب من نسله: ركانة الذي اشتهر أنه صارع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فصرعه النبي.

ومن نسله كذلك: مسطح بن أثاثة الذي تكلم في عائشة - رضي الله عنها - في حادثة الإفك . فجلده النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

ومن نسله الإمام الشافعي، ولذلك يقال للإمام الشافعي الأمام المطلبي . ولذلك لما تكلم رجل في علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند معاوية ﷺ، رد معاوية على الرجل ودافع عن علي. فاستغرب أحد الحاضرين، خاصة مع القتال الذي كان بين معاوية وعلى، فسافر إلى الكوفة وأخبر عليا - ﷺ- بما وقع فقال له علي: أتدري لم فعل معاوية ذلك؟ قال: لا أدري. قال: لأجل المنافية. .يعني لأجل أنه ابن عمي. يلتقي معي في عبد مناف.

وكذا لما خرج أبو سفيان بعد صلح الحديبية إلى الشام والتقى بهرقل هو والذين معه سألهم هرقل: أيكم أقرب الناس نسبا بمحمد؟ قال أبو سفيان: أنا. لأنه كما قلنا يلتقي مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عبد مناف.

أما هاشم فله ولدان: عبد المطلب الذي هو شيبة الحمد. وأسد وهو والد فاطمة أم علي بن أبي طالب. وله أولاد ذكور ولكن لا يذكر لهم ذرية. والله أعلم

أما عبد المطلب، فقد ذكر أهل التاريخ أن الله رزقه عشرة من الولد. أولاد عبد المطلب:

١) عبد الله: والد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليس له غير النبي صلى الله عليه وآله وسلم

٢) حمزة: ولا عقب له.

٣) العباس: وهو أكثرهم ذرية، له ثمانية من الولد: عبد الله البحر الحبر وعبيد الله، وعبد الرحمن، وكثير، وتمام، وقثم، ومعبد، والفضل وبه كان يكنى. وهذان اللذان أسلما من أعمام النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

٤) أبو طالب: وله أربعة من الولد: علي، وعقيل، وجعفر، وطالب الذي كان به يكنى.

٥) الزبير: ولم يعقب.

٦) أبو لهب . وأبو لهب اسمه: عبد العزى: له ثلاثة من الولد: عتبة، وعتيبة، ومعتب.

٧) الحارث: وله أربعة من الولد: ربيعة، وعبد الله، وأمية، وأبو سفيان وأبو سفيان بن الحارث هو الذي هجا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم بعد ذلك تاب وتابع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان النبي لا يكلمه حتى بعد إسلامه حتى اشتكى إلى علي بن أبي طالب ابن عمه فقال: ما بال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يكلمني؟ قال: أو ما علمت ما قد فعلت. يعني هجوت النبي صلوات الله وسلامه عليه وأنت ابن عمه. ثم قال له: أذهب إليه فقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف:٩١) فجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . فقال للنبي: {تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين} فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال أخوه يوسف صلوات الله وسلامه عليه: {لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين} .

٨) المقوم ٩) الغيداق ١٠)

صفار فهؤلاء ومن جاء من بعدهم من الذرية كلهم آل النبي ﷺ.

فضل آل البيت ومكانتهم وحقهم الذي لهم:

أولا: نستطيع أن نقسم فضائل أهل البيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قسمين: فضائل عامة، وفضائل خاصة:



ـ أما الفضائل العامة:

فمنها حديث زيد وفيه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي، أذكركم الله أهل بيتي. وهذا عام في كل أهل بيت النبي ﷺ.

ومن الفضائل ما جاء في آية النساء ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب:٣٣) وذلك أن نساء النبي من آل البيت كما قدمنا، ودخل علي وفاطمة والحسن والحسين في هذا الفضل بحديث الكساء.

وكذلك حديث الصلاة عليهم في التشهد نقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. وهذا لفضلهم ومكانتهم عند الله تبارك وتعالى

وكذلك مما يدل على فضلهم حديث زيد بن أرقم، وفيه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم تركت فيكم ما إن تمسكتم فيه فلن تضلوا بعده أبدا كتاب الله وعترتي وفي رواية عترتي أهل بيتي " وهذا الحديث كنت أقول بحسنه فترة من الزمن ولكن بعد سبر أسانيده وإمعان النظر فيها تبين لي أنه ضعيف والله أعلم.

ـ الفضائل الخاصة :

ـ فرأسهم وسيدهم وأفضلهم علي بن أبي طالب رضي الله وتبارك وتعالى عنه وشهرته أكبر وأظهر من أن ننبه عليها ويكفيه فخرًا قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق. رواه مسلم

ـ العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفيه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم له: عم الرجل صنو أبيه. أي بمكانة أبيه. أخرجه الترمذي

ـ أزواجه وفيهن قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦). أي أمهات المؤمنين.

ـ فاطمة رضي الله عنها وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لها: فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها. متفق عليه.

- الحسن والحسين وقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنهما: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة " . أخرجه الترمذي وهو حديث صحيح.

- عبد الله بن العباس رضي الله عنهما ودعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم له: اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين. رواه أحمد بإسناد صحيح.

- المهدي وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : المهدي من عترتي من ولد فاطمة " ، وهذا رواه أبو داود وهو حديث صحيح. .

فهذه بعض فضائلهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

موقف السلف من آل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

أما موقف السلف الصالح، من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين من آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وتعظيمهم لهم وتوقيرهم إياهم، فمن أمثلة ذلك:

- قال أبو بكر الصديق ﷺ: ارقبوا محمدًا في أهل بيته. رواه البخاري في صحيحه .

وقال رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليَّ من أن أصل من قرابتي. أخرجه البخاري كذلك في صحيحه .

- وقال الشعبي: صلى زيد بن أرقم على جنازة أمه ثم قربت إليه بغلة ليركبها، فجاء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فأخذ بركابه – أي يمسك ركاب البغلة لزيد بن ثابت رضي الله عنه، فقال له زيد: خلِّ عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقال عبد الله بن عباس: هكذا نفعل بعلمائنا، فنزل زيد من على بغلته وقبل يد عبد الله بن العباس، وقال هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

- عن شريك بن عبد الله وهو من أتباع التابعين قال: لو جاءني أبو بكر وعمر وعلي وسألني كل حاجته لقدمت حاجة علي لقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر أفضل من علي عند الله ، ولكن قرابة علي من النبي صلى الله عليه وآله وسلم توجب تقديم حاجته على حاجة غيره.

ـ وهذا مالك بن أنس إمام دار الهجرة لما آذاه أبو جعفر المنصور وضربه، قيل له: ألا تدعو عليه. فقال: والله إني لأستحيي أن آتى يوم القيامة فيُعذَّب به هذا الرجل من قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسببي، فتركه لقرابته من النبي صلى الله عليه وآله وسلم

ـ وذكر أن هارون الرشيد جاء إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومعه موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فجاء هارون الرشيد عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتخر على الناس، فقال السلام عليك يا ابن عم. لأنه من نسل العباس بن عبد المطلب. فجاء موسى بن جعفر فقال السلام عليك يا أبت . فالتفت إليه هارون الرشيد وقال: هذا والله الفخر.

وما نقل يبطل قول الجهلة والمغرضين الذين يقولون: إن أهل السنة لا يقومون بحق آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – ، وهذه فرية قديمة ليست اتهم بها الشيخ / محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، حتى قال عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في الرسالة التي بعثها عام ١٢١٨هـ ، ورد فيها على من افترى عليه في أنه لا يرى حقاً لأهل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –؟ فأجاب: سبحانك هذا بهتان عظيم. فمن روى عنا شيئاً من ذلك أو نسبه إلينا فقد كذب علينا وافترى.

فهذه هي مكانة آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – بشكل عام عند أهل السنة والجماعة.

وسأقتصر على ذكر بعض آل بيت النبي – صلى الله عليه وآله وسلم –

وهم الأئمة الاثنا عشر عند الشيعة. وهم:

١ـ علي بن أبي طالب ٢ ـ الحسن ٣ ـ الحسين ٤ـ علي بن الحسين { زين العابدين}

٥ ـ ولده محمد { الباقر } ٦ـ ولده جعفر { الصادق } ٧ـ ولده موسى { الكاظم }

٨ـ ولده علي { الرضا } ٩ـ ولده محمد { الجواد} ١٠ـ ولده علي {الهادي }

١١ـ ولده الحسن {العسكري} ١٢ـ ولده محمد { المنتظر }

وهؤلاء يمكن أن نقسمهم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الصحابة منهم وهم علي والحسن والحسين.

القسم الثاني : وهم علماء أتقياء من جملة علماء أهل السنة والجماعة وهم ستة :-

١ـ علي بن الحسين ٢ـ محمد الباقر ٣ـ جعفر الصادق ٤ـ موسى الكاظم

٥ـ علي الرضا ٦ـ محمد الجواد .

القسم الثالث : من جملة المسلمين لم يُعرف له كبير علم ولا طُعن في دينهم فهم مستورون ويكفيهم فخراً نسبهم إلى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وهما اثنان:

١ـ علي الهادي ٢ـ الحسن العسكري.

وأنهما ممن يحق لهما أن يأتيا عند قبر النبي – صلى الله عليه وآله وسلم . وأن يقولا: السلام عليك يا أبت.

القسم الرابع : معدوم لم يخلق: وهو واحد وهو المنتظر، محمد بن الحسن أما مكانتهم عند أهل السنة والجماعة، أعني القسمين الأول والثاني:

القسم الأول:

ورأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وزوج سيدة نساء العالمين فاطمة بن محمد رضي الله عنها، وهو رابع الخلفاء الراشدين وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة.

قال الحسن البصري: قُتل أمير المؤمنين { يعني عثمان بن عفان } مظلوماً، فعمد الناس إلى خيرهم فبايعوه { يعني علي بن أبي طالب } . قال أحمد بن حنبل: من لم يُرَبِّع بعلي { أي بعد أبي بكر وعمر وعثمان } فهو أضل من حمار أهله.

الثاني: الحسن بن علي السبط السيد الإمام ابن الإمام أبو محمد سيد شباب أهل الجنة. قال مساور السعدي: رأيت أبا هريرة قائماً على مسجد رسول الله – صلى الله عليه

وآله وسلم - يوم مات الحسن يبكي وينادي بأعلى صوته ويقول: يأيها الناس مات اليوم حِبُّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فابكوا.

الثالث: الحسين بن علي الشهيد السعيد الإمام ابن الإمام أبو عبد الله سيد شباب أهل الجنة مع أخيه رضي الله عنهما.

القسم الثاني:

أولهم: علي بن الحسين ولقبه زيد العابدين، قال ابن سعد: كان ثقة مأمونا كثير الحديث عالياً ورفيعاً ورعاً.

قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين.

قال يحي بن سعيد: سمعت على بن الحسين وكان أفضل هاشمي أدركته. قال الذهبي: كان له جلالة عظيمة وحق له والله ذلك، فقد كان أهلاً للإمامة العظمى لشرفه وسؤدده وعلمه وتأله وكمال عقله .

وقد حج هشام بن عبد الملك قبيل ولايته للخلافة فكان إذا أراد استلام الحجر زحم عليه الناس، فإذا جاء علي بن الحسين ابتعد الناس عن الحجر حتى يأتي ويقبل ثم يكمل باقي الأشواط فغضب هاشم بن عبد الملك نائب الخليفة، وقال: من هذا فما أعرفه؟ وكان بجانبه الشاعر الفرزدق فقال الشاعر:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم   هذا التقي النقي الطاهر العلم

كرامات الأولياء

كرامات الأولياء ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح، فمذهب أهل السنة والجماعة التوسط في إثبات كرامات الأولياء، فلا مغالاة كالصوفية، ولا نفي لإثبات الكرامات كالمعتزلة، وفرق كبير بين معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وأعمال السحرة والكهنة والعرافين، ومعجزات الأنبياء كثيرة وكرامات الأولياء ثابتة، ولا تتحقق إلا لمن اتقى الله وحسنت متابعته للنبي ﷺ.

كرامات الأولياء بين اعتقاد أهل السنة والجماعة واعتقاد الفرق الأخرى

الفوارق بين الكرامة والمعجزة وما يجري على يد السحرة والعرافين

أما الفوارق بين الكرامة والمعجزة وما يجري على يد السحرة والكهنة والعرافين:

ابتداء: أن المعجزة تكون على يد نبي، والكرامة تكون على يد ولي، وهذا اصطلاح المتأخرين من أهل السنة، ومن قبل في العصور الأولى للإسلام كانوا يطلقون لفظ المعجزة على المعجزة والكرامة، لكن المتأخرين فرقوا بين المعجزة التي يأتي بها النبي، وبين الكرامة التي تكون على يد الولي، والمعجزة مصحوبة بالتحدي ولابد، خلافاً للكرامة؛ لأن الولي لا يحل له أن يتحدى بمنة الله عز وجل عليه، وما كانت هذه الكرامة إلا تثبيتاً له على موقفه الإيماني، أو نصرة لدين الله عز وجل في موقف يحتاج إلى نصرة، أو عوناً له على قضاء حاجاته، أو خروجاً له من مأزق وقع فيه، فلا يتحدى بمنة الله تعالى عليه .

أما النبي فإنه يأتي ومعه المعجزة أو المعجزات ويتحدى بها الناس أجمعين. وأعظم معجزة أتى بها نبينا عليه الصلاة والسلام هي القرآن الكريم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ومعجزات نبينا قاربت أو ساوت الألف معجزة، أعظمها القرآن الذي نزل من السماء وهو كلام الله عز وجل.

وهكذا اعتبر المسلمون أن أعظم معجزة هي القرآن الكريم؛ لأنها نزلت في أبلغ

الخلق وهم العرب، فتحداهم الله عز وجل في شيء يحسنونه في لسانهم ولغتهم، فنزل القرآن بلسان عربي مبين لسان قريش ولسان هذيل وغيرها من الألسنة: ائتوني بكتاب مثل هذا فعجزوا، ائتوني بعشر سور من مثله مفتريات -لما قالوا: هذا القرآن مفترى- فعجزوا، تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة واحدة فعجزوا، وفي كل مرة يتحدى الله عز وجل العرب فيعجزون؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨)، أي: مظاهراً له مسانداً ومعاوناً، فتحدى الله تبارك وتعالى بهذه المعجزة -وهي القرآن- الإنس والجن مجتمعين، فما استطاعوا أن يأتوا ولا بآية واحدة، وهذا دليل على أن المعجزة تكون مصحوبة بالتحدي خلافاً للكرامة.

ثالثاً: أن ما يخبر به الأنبياء لا يكون إلا صدقاً، كما أخبر القرآن والسنة، بل كما سمى العرب النبي عليه الصلاة والسلام بالصادق قبل بعثته، ومن قال: إن النبي ليس صادقاً في خبره، وليس صادقاً في تبليغه الأمر والنهي كفر وخرج من الملة؛ لأنه جوز على الأنبياء كبيرة من الكبائر وهي الكذب، خلافاً لما يخبر به السحرة والكهان وعباد المشركين وأهل الكتاب وأهل البدع والفجور من المسلمين، فإنه لابد في أخبارهم من وقوع الكذب.

رابعاً: أن الأنبياء لا تأمر إلا بالعدل ولا تفعل إلا العدل، بخلاف غيرهم، فإنهم يفعلون الظلم والجور والفساد، وأحياناً يفعلون العدل، لكن ديدن الأنبياء واحد في أقوالهم وأفعالهم وتشريعاتهم؛ كلها مبنية على العدل والحكمة التي ليس بعدها عدل ولا حكمة.

خامساً: آيات الأنبياء إنما هي معجزة من الله عز وجل بحسن عبادة هؤلاء الأنبياء والأولياء، كذلك تجرى الكرامات على أيديهم جزاءً وفاقاً لحسن أعمالهم، والجزاء من جنس العمل، فآيات الأنبياء إنما تنال بحسن عبادة الله وطاعته، وكذا كرامات الأولياء إنما تنال بقوة الإيمان وزيادته وحسن التقوى ومتابعة الرسول ﷺ. وطريق تحصيل هذا عند النبي والولي الصدق والعدل لا الكذب والخيانة والظلم.

سادساً: آيات الأنبياء لا يقدر عليها الإنس ولا الجن، بخلاف كرامات الأولياء، وما يأتي على أيدي السحرة والكهان فإنه ليس بمعجزة، بل يمكن أن تتم كرامة على يد محمد، ويكون لزيد كرامة، وكرامة محمد أعظم منها وأقوى، وما قد أتى على يد زيد يأتي مثله أو أعظم منه على يد عمرو، خلافاً للمعجزة فهي ليست من هذا الباب، والذي يأتي به ساحر يقدر ساحر آخر بفعل الشياطين والأبالسة أن يفكه؛ ولذلك يغتر العامة إذا أصابه شيء من الجن أو المس أو الصرع أو ضياع الحاجات أو كتابة الأعمال والأحراز الشيطانية، فيزعم أنه لا يستطيع فك ذلك ولا قضاءه إلا ساحر فيذهب إلى الساحر!، ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: (من أتى ساحراً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد برئت منه ذمة الله، وإذا أتى عرافاً أو كاهناً ولم يصدقه فإن الله لا يقبل منه صلاة أربعين يوماً).

أيها الإخوة! إن هذه من مسائل الإيمان والكفر، ومن مسائل الشرك والتوحيد، ينبغي الدندنة حولها بالليل والنهار؛ لأننا نرى أن قطاعاً عظيماً من الأمة وقعوا في مثل هذا البلاء العظيم، أي: في شعب الشرك كلها، لا أقول السحر فحسب، فينبغي الدندنة والتأكيد من الدعاة إلى الله على إظهار التوحيد وطمس وإخماد الشرك وفروعه وأصوله.

سابعاً: ما يأتي به السحرة والكهان وكل مخالف للرسل يمكن معارضته بمثله أو بأعظم منه كما قلنا.

ثامناً: المعجزة مقرونة بدعوى النبوة، يعني: لا يمكن لولي أن يزعم أن هذه الكرامة التي كانت على يديه هي من باب المعجزات، وإلا فلا يكون ولياً، بل يكون كاذباً، خلافاً للكرامة فإنها تظهر على يد عبد صالح ملتزم يتابع النبي ﷺ، مصحوباً بصحة الاعتقاد والعمل الصالح، ويمكن سلبها عنه في أي وقت إذا أتى من الأعمال ما ينقض ولايته لله عز وجل ولرسوله وللمؤمنين، ويمكن أن تكون خوارق العادات استدراجاً من الشيطان، إذاً: ما الفرق بين هذا وذاك؟ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية قاعدة للنجاة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: إذا رأيت الرجل يطير في الهواء أو يمشي على الماء فلا تغتر بذلك حتى

تنظر إلى عمله وإلى إيمانه وعبادته ومتابعته للنبي ﷺ، فإن كان كذلك فإن ما يكون على يديه فهو كرامة من الله، وإذا كان غير عامل بذلك غير معتقد لذلك غير متبع للنبي ﷺ فهذا استدراج وليس كرامة، هذا هو الفرق بين ما يجري على يد أولياء الله وما يجري على أيدي أعداء الله مما يكون ظاهره التماثل والتشابه في أن كلاً منهما قد أتى بخارقة من خوارق العادات.

تاسعاً: أن ما يقع على يد الولي هو من باب التأييد له أو التثبيت أو الإعانة أو نصرة الحق والدين، خلافاً لما يقع على يد السحرة، فكله تمويه وتخييل وكذب وغش وخداع وأخذ بنواصي الأمة إلى أودية الهلاك.

عاشراً: معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء تتضمن حكماً عظيمة، أعظم هذه الحكم إثبات الدلالة على كمال قدرة الله تعالى ونفوذ مشيئته في خلقه، وأنه فعال لما يريد، وأن الأمر كله بيد الله، وأن التدبير والتيسير كله من عند الله، وأن لله في خلقه سنناً لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى.

فإن قيل: إذا كانت الكرامة من باب التأييد والتثبيت والإعانة والنصرة فإننا نجد أن الكرامات قد كثرت بعد زمن الصحابة وكانت قليلة في زمن الصحابة، فهل هذا يدل على أن الذين بعد الصحابة هم أفضل من الصحابة؟

الجواب: كلا وألف كلا، ليس هناك من هو أفضل من الصحابة إلا الأنبياء والمرسلين، ولكن قلت الكرامات في زمن الصحابة وكثرت فيمن أتى بعدهم لأن من أتى بعدهم في أمس الحاجة للنصرة والتأييد والإعانة؛ فكثرت الكرامات لهذه الحاجة، وقلت في زمن الصحابة لاستغنائهم بوجود النبي ﷺ بين أظهرهم، فليسوا في حاجة إلى كرامات تنزل من السماء، بخلاف غيرهم. والكرامات باقية إلى قيام الساعة؛ لأن العلة في وجود الكرامات هي ثبوت الولاية، والولاية قائمة في الأرض إلى قبيل قيام الساعة، حتى تأتي ريح من جهة اليمن طيبة تقبض روح كل عبد مؤمن ولا يبقى في الأرض من يقول: الله الله، وهم شرار الخلق وعليهم تقوم الساعة.

فإذا كانت الكرامة مرتبطة بالولاية، والولاية باقية إلى قيام الساعة فلابد أن تكون الكرامة كذلك باقية إلى قيام الساعة. أولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء كانوا فقراء أو فقهاء أو علماء أو تجاراً أو جنوداً أو صناعاً أو زراعاً.. أو غير ذلك من سائر فئات المجتمع، والناس يتفاضلون في هذه الولاية على قدر تفاضلهم إيماناً وتقوى. وأصحاب الخوارق لا يخرجون عن الأقسام الثلاثة المذكورين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ (فاطر:٣٢) السحرة والكهان والكذابون والعرافون والدجالون: ﴿وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)، فهذه الآية قد جمعت أقسام خوارق العادات، فمنه ما يجري على يد أعداء الله، ومنه ما يجري على يد الأنبياء والمرسلين، ومنه ما يجري على يد الأولياء والصالحين. أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم. وصلى الله على نبينا محمد.

توسط أهل السنة والجماعة في إثبات كرامات الأولياء بدليل الكتاب والسنة والإجماع

أهل السنة والجماعة توسطوا بين المعتزلة المنكرين لكرامة الأولياء من جهة، وبين الصوفية المغالين في إثبات الكرامة لغير الأولياء من جهة أخرى، وإنما هي أحوال شيطانية تجري على يد من اتخذوهم أولياء من دون الله عز وجل ودون عباده الصالحين المؤمنين.

توسط أهل السنة والجماعة بين هؤلاء وهؤلاء، فقالوا بإثبات كرامة الأولياء، ولكنهم وضعوا مسائل وقيوداً وشروطاً لمعرفة ما إذا كانت هذه معجزة أو هذه كرامة، أو هذه خارقة من خوارق العادة تجري على يد السحرة والكهان، فصارت المسألة اعتقاديه في غاية الحكمة، محكومة من كل زواياها وفروعها، فلا يمكن الالتباس الذي يزعمه المعتزلة، كما لا يمكن الغلو الذي يزعمه الصوفية.

قال أهل السنة والجماعة: كرامات الأولياء ثابتة بالقرآن والسنة والواقع والعقل، فهذه مصادر إثبات الكرامة للأولياء؛ أنها ثابتة بالقرآن وستتعرف عليه، والسنة وستتعرف عليها، والواقع أننا نرى ذلك واقعاً مشاهداً كل منا يلمسه، فإن الله تبارك وتعالى يجري

الكرامة على أيدي كثير من عباده في كل طوائف المجتمع، من صناع وتجار وزراع وحكماء وحكام وغير ذلك من عامة الشعب؛ لأنه قد انطبع في أذهان العامة أن الولي لابد أن يكون عالماً أو فقيهاً، وهذا كلام غير سديد، وإنما أولياء الله عز وجل هم المؤمنون المتقون، كما قال الله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس:٦٢)، لا خوف عليهم في الدنيا، ولا يصيبهم حزن ولا غم ولا كرب يوم القيامة، ثم عرفهم الله عز وجل في نفس الآية. قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس:٦٣)، فكل إنسان فيه ولاء لله عز وجل بقدر ما فيه من إيمان وتقوى، ودون ذلك خرط القتاد وكلام فارغ وتهريج، سواء من جهة المعتزلة أو المتصوفة.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يدل على أن الله تعالى اتخذ أولياء من اليهود والنصارى وأصحاب الكتب السابقة مادام النبي محمد ﷺ لم يبعث، فإذا بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فقد انقطعت الولاية عن كل الأمم السابقة، إلا أن يكونوا أتباعاً لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وهذه الآيات يدندن حولها اليهود والنصارى إلى يومنا هذا ويقولون: نحن أولياء الله وأحباؤه، قل: فلم يعذبكم؟ لأن الولي لا يعذبه الله عز وجل، وإنما يغفر له ويرحمه ويجري الكرامة على يديه تأييداً وتثبيتاً ونصرة للحق وإعانة له على قضاء مصالحه، فإذا كان هذا هو غرض الكرامة، وإذا كان هذا هو ثمرة الولاية، فكيف تزعمون يا معشر يهود! ويا معشر مشركي العرب! أنكم أولياء لله عز وجل، مع نزول العذاب عليكم بالليل والنهار؟ أنتم كذبة، وإنما أولياؤه الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهذا يدل على انقطاع الولاية في الأمم السابقة، وثبوت هذه الولاية في هذه الأمة المباركة أمة محمد ﷺ.

هذه مسألة ينبغي أن تقرر، كما قررت المسألة التي قبلها، أما السنة فإن أعظم حديث في ثبوت كرامة الأولياء هو الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: (قال الله عز وجل: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)، فأثبت الله تعالى في هذا الجزء من الحديث أن الناس أولياء وأعداء، وغير ما آية

في كتاب الله تكلمت عن هذين الصنفين؛ عن أعداء الله وعن أوليائه، عن الذين كفروا وعن الذين آمنوا، عن الصالحين وعن غير الصالحين، آيات في الموازنة بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين أهل الصلاح وأهل الفساد، بين أهل الطاعة وأهل المعصية، آيات كثيرة جداً ذكرت الفريقين على سبيل المقابلة؛ لإظهار شأن كل فريق، وبيان خصائص كل فريق منهما. قال الله عز وجل: (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة) .

وإذا قلنا: إن أولياء الله هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، فالمعلوم أن على قمة هرم الأولياء هم أهل العلم العاملون بعلمهم، المخلصون في دعوة الخلق إلى الحق، هم على قمة هرم الولاية، فكيف يُعَادَون من غيرهم، فلابد أن الذي يعاديهم ويمنعهم من مهمتهم عدو لله عز وجل ولأوليائه الصالحين.

قال: (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة)، ولم يقل: فقد بارز أوليائي بالمحاربة، وإنما الحرب بينه وبين الله عز وجل؛ لأنه بارز الله في عباده الصالحين وفي أوليائه المؤمنين المتقين، رفع نار الحرب وشعار الحرب بينه وبين الله عز وجل. وما حارب الله تعالى أحد فأفلح وأنجح، بل ما حارب الله تعالى أحد إلا وأهلكه الله تعالى في أي واد ولا يبالي سبحانه وتعالى؛ لأنه لا يخشى عاقبة الأمور، كما قال: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ (الشمس:١٥)، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء:٢٣).

فليعلم هؤلاء الذين يحاربون أولياء الله عز وجل أن حربهم إن لم تكن قائمة فهي قادمة مع الله عز وجل لا محالة. قال: (من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ورجله التي يمشي بها، وعينه التي يبصر بها)، وهذا يعني: أن ولي الله عز وجل الذي حقق الولاية الكاملة التامة لله عز وجل؛ فلا يرى إلا بنور الله عز وجل، ولا يسمع إلا ما يرضي الله عز وجل، ولا يمشي إلا إلى شيء يحقق فيه رضا الله، أي: كل أقواله وأعماله وحركاته وسكناته المراد منها رضا الله عز وجل، هذا هو ولي الله. قال الله عز وجل في الحديث القدسي: (وما ترددت في

شيء ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، غير أن ذلك شيء لابد له منه) وهو الموت، وإثبات التردد لله عز وجل إثبات يليق بجلاله وكماله، ونقول فيه كما قلنا من قبل في بقية صفات المولى عز وجل لا نخوض فيها بكيفية، ونثبتها ونمرها كما جاءت، ونفوض كيفية هذه الصفة إلى الله عز وجل، ولا إشكال في ذلك.

اعتقاد المعتزلة في كرامات الأولياء

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة.

ما زال الكلام موصولاً عن وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة فيما يتعلق بكثير من مسائل الاعتقاد.

من هذه المسائل الاعتقادية كرامات الأولياء، هل هي ثابتة لهم حقاً أم أنها غير ثابتة؟ أنكرها المعتزلة وغالى فيها المتصوفة، أما المعتزلة فقالوا باستحالة ثبوت الكرامة للولي، واحتجوا لذلك بحجج ظنوها عقلية، فقالوا: إذا أثبتنا الكرامة التي هي خوارق العادات للأولياء، فربما اشتبه الولي بالنبي، وربما اشتبه الولي بالساحر، وربما اشتبه الساحر بالنبي؛ ولذلك نحن نمنع هذا الباب ونغلقه إغلاقاً.

الرد على المعتزلة في هذا الزعم: أن الولي لا ينال هذه الكرامة ولا تجرى على يديه إلا بإتباعه للنبي ﷺ، ولذلك يستحيل أن يدعي ولي لله عز وجل أنه نبي، ولو ادعى أنه نبي لا تجرى على يديه هذه الكرامات، فهذا المأمن من هذا الالتباس والاشتباه، أن الولي لا يمكن أن يزعم في يوم أنه نبي، فهذا فارق بين الولاية والنبوة، إذ إن الولي لا ينال من كرامات الله عز وجل إلا بحسن إتباعه واقتدائه بالنبي ﷺ، فإن زعم هذا الولي أنه نبي في يوم من الأيام فهو كاذب؛ ولذلك لا يستحق أن يكون ولياً لله عز وجل.

وأما نفي الاشتباه والالتباس بين الولي والنبي من جهة وبين الساحر من جهة أخرى:

أن الساحر إنما يستعين بأسياده من الشياطين في قضاء الحاجات ومعرفة الأخبار، وهذا كفر بالله عز وجل؛ ولذلك قد ثبت في السنة أن الخبر يكون في السماء حتى ينزل إلى السماء الدنيا؛ فتصعد الشياطين فتسترق السمع، فيأخذون الخبر فيضيفون عليه مائة كذبة من عندهم فيوحون بها إلى أوليائهم من الإنس وهم السحرة والكهان والعرافون؛ ولذلك قال النبي ﷺ: (حد الساحر ضربة بالسيف)، واختلف أهل العلم في كفر الساحر من عدمه، ومذهب الجماهير أنه يستتاب ثلاثة أيام فإن تاب وإلا قتل.

إذاً: النبي تأتي الآية على يديه وهي معجزة يتحدى بها الخلائق أجمع خلافاً للساحر وخلافاً للولي كذلك، فلا التباس ولا اشتباه بين كرامة الولي ومعجزة النبي، وما يكون من خوارق العادات على يد السحرة والكهان والعرافين، فهذه الحجج وغيرها ترد على المعتزلة في ردهم لإثبات كرامات الأولياء.

وإذا كنا نتكلم عن كرامات الأولياء فيحسن بنا أن نعرف الكرامة ابتداء، ثم نعرف الأولياء. فالكرامات: جمع كرامة، وهي خوارق العادات التي يجريها الله عز وجل على أيدي بعض خلقه من الأنبياء والصالحين، وقولنا: خوارق العادات احتراز مما اعتاده الناس وتعارفوا عليه، وليس أمراً غريباً على أعرافهم وعاداتهم، أما الأولياء فالأولياء: جمع ولي، والولي: هو القريب، يقال: فلان أولى فلاناً أو ولي فلان، أو يلي فلاناً، أي: هو قريب منه مجاور له، فالأولياء هم أقرب الناس إلى الله عز وجل، وهم أولى الناس بشرع الله عز وجل، فالولي تجرى على يديه خوارق العادات، والنبي تجرى على يديه خوارق العادات، وهذان فضل ومنة من الله عز وجل.

أما الساحر والكاهن فتجرى على يديه خوارق العادات كذلك، ولكن أصلها الشيطان، وأصلها إبليس، وبين المعجزة على يد النبي والكرامة على يد الولي، وخوارق العادات على يد السحرة والكهان من الفروق الشيء الكثير التي ستتعرف عليها بإذن الله تعالى. هذا الفريق الأول وهم المعتزلة وبيان موقفهم من إثبات كرامة الأولياء.

اعتقاد الصوفية في كرامات الأولياء

الفريق الثاني أثبت كرامة الأولياء، ولكنه غالى فيها جداً فأثبتها وزيادة، وأنتم تعلمون أن البدعة في دين الله عز وجل كما تكون بالنقصان تكون كذلك بالزيادة، وشرع الله عز وجل منزه عن الزيادة والنقصان إلا ما جاء عن الله وعن رسوله وأجمع عليه أهل العلم، وهي أصول التشريع وأصول الديانة الثلاث: كتاب وسنة وإجماع، خاصة ما أجمع عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم؛ ولذلك أجمع الصحابة بغير خلاف بينهم على ثبوت كرامة الأولياء، كما أجمعوا على ثبوت المعجزات لجميع الأنبياء والمرسلين.

ولكن الخلاف وقع بعد زمن الصحابة رضي الله عنهم على يد المعتزلة، ثم على يد المتصوفة .

فالصوفية قالوا: الكرامة ثابتة للأولياء والصالحين، لكن الولي عندهم أحياناً يكون إنساناً مجنوناً أو مخبولاً أو لا عقل له أو سفيهاً أو طريداً أو إنساناً قد ترك الأوامر وارتكب النواهي، أو أنه يفعل الفواحش بحجة أن العامة يرونها فواحش في الظاهر وهي في حقيقة الأمر طاعات. هكذا يظنون، حتى إن أحدهم -كما في طبقات الشعراني- كان ينزو على أنثى الحمير، فإذا أنكر عليه العامة ضحك منهم واستهزأ وسخر؛ وقال: لأنكم ترون ما لم أفعله! فهو فعل طاعة كما يزعم، وإن العامة رأوا بأعينهم فعل الفاحشة مع الدواب رؤية ظاهرة، فهو يسخر منهم باعتبار أن ما قد رأوه لم يفعله حقيقة، فالعامة أهل الظاهر، وهم -أي: الصوفية- أهل الباطن، وهكذا جعلوا للشرع ظاهراً وباطناً، خلافاً لمنهج النبي ﷺ، وقالوا: بأن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه.

قال ابن تيمية: وغير واحد من السلف: وهذا كفر بإجماع، وقال ابن القيم : وهذا كفر صريح، وقال ابن قتيبة : وهذا صريح الكفر.. وغير ذلك من أقوالهم التي أجمعوا عليها.

لأن الإجماع منعقد أن خير الخلق هم الأنبياء والمرسلون، وخير هؤلاء هم أولو العزم من الرسل، وخير أولي العزم هو نبينا عليه الصلاة والسلام.

فإذا انعقد إجماع العقلاء -فضلاً عن إجماع الموحدين والمسلمين عامة- على أن خير الخلق قاطبة هو نبينا ﷺ فكيف يقبل قول المتصوفة: خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء؟ فهذا كلام هو عين الكفر، ومن قال بذلك كفر وخرج من ملة الإسلام. ولذلك تجد عند الصوفية كلاماً لا حقيقة له ولا واقع له في كلام أهل السنة والجماعة، تجدهم يقولون: الغوث والقطب والأوتاد والأقطاب، وغير ذلك من هذه الألفاظ الضخمة الفضفاضة، التي تزعج أسماع السامعين، فيضطر الواحد آسفاً أن يحترم هذه الألقاب، ولا يرد على صاحب هذه الأقوال.

والحقيقة أننا لو بحثنا في القرون الخيرية لما وجدنا شيئاً من هذه الأقطاب في كتبهم ولا في مصنفاتهم إلا على سبيل المدح لمن علم صلاحه وحسن عبادته، لكن من أقطاب هؤلاء الصوفية الآن من كان لا يغتسل إلا في كل أربعين يوماً مرة، ومن يترك الصلاة والصيام والزكاة والحج، ويقول: إنني قد بلغت مرحلة اليقين، التي هي في قول الله عز وجل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (الحجر:٩٩)، قالوا: واليقين هو: درجة إيمانية في القلب تسقط معها التكاليف، فيكون هذا هو خاتم الأولياء، أو يكون من أكبر مريدي هؤلاء الأولياء، فإذا بلغ هذه المنزلة سقطت عنه التكاليف، وهذا اتهام للنبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ لم يسقط عنه شيء مما شرعه الله عز وجل عليه وعلى أمته حتى لقي الله عز وجل، وقد طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو في الصلاة، فلما أغشي عليه ذكروه بقولهم له: الصلاة يا أمير المؤمنين! قال: لست أميراً للمؤمنين، ثم يقول: نعم. الصلاة الصلاة، لا حظ في الإسلام لمن لا حظ له في الصلاة، وغير ذلك الكثير والكثير من الآيات والأحاديث التي دلت على عدم سقوط التكاليف مطلقاً حتى يلقى العبد الله عز وجل، فكيف يزعم هؤلاء المهرجون أن التكاليف تسقط عن العبد إذا بلغ مرتبة الإيمان أو اليقين؟ هذا كلام لا يقبله أحد، حتى اليهود والنصارى ومشركو العرب لا يقبلون هذا الكلام، فالصوفية وقعوا فيما لم يقع فيه أهل الجاهلية الأولى عياذاً بالله، فهذه المصطلحات التي يدندنون حولها ويلتفون حولها ويقدسون أشخاصها وأربابها لم تكن معلومة لدى سلف الأمة.

معيار التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على رسوله المصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. وبعد:

فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في المجلد الحادي عشر من مجموع الفتاوى ما يسمى برسالة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان إثبات الكرامة، وأنها معتقد أهل السنة والجماعة خلافاً للمعتزلة، وكل من تكلم في هذا الباب بكلام مسند في كتب الاعتقاد المسندة أو بكلام مشروح لهذه النصوص -أثبت أن عقيدة أهل السنة والجماعة إثبات كرامة الأولياء وأنها باقية بقاء الدنيا، ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية قال بالمعيار المعتبر في التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، هذا المعيار هو موافقة ومتابعة الرسول ﷺ. حيث قال: فإنه هو الذي فرق الله تعالى به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء، وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد وأعدائه أهل الغي والضلال والفساد، وأعدائه حزب الشيطان وأوليائه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم الله تعالى بروح منه.

قال: ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (المجادلة:٢٢). إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الأنفال:١٢) وهذه كرامة ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:١٢)، وقال الله تعالى في جانب أعدائه: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ (الأنعام:١٢١)، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام:١١٢)، وقال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:٢٢١-٢٢٤). إلى آخر الآيات. وقال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ [٣٨] وَمَا لا تُبْصِرُونَ [٣٩] إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [٤٠] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ [٤١] وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ [٤٢] تَنزِيلٌ مِنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٣] وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ [٤٤] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [٤٥] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [٤٦] فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [٤٧] وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ [٤٨] وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ [٤٩] وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ [٥٠] وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ [٥١] فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (الحاقة:٣٨-٥٢). وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾ (الطور:٢٩) .

فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمداً ﷺ عمن تقترن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين، وبين أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه من بين الملائكة، كما قال تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٣) وهو جبريل عليه السلام ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٤-١٩٥)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (البقرة:٩٧)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل:٩٨)؛ للدلالة على أن الشيطان لا تأثير له على النبي ﷺ. وقال تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ (التكوير:١٥-١٦). إلى آخر الآيات التي أثبتت أن إبليس لا سلطان له على النبي عليه الصلاة والسلام. فأولياء الله هم المتقون المقتدون بمحمد ﷺ. ......

أمثلة من معجزات سيد الأنبياء محمد ﷺ

إن كرامات الأولياء تحصل ببركة اتباع النبي محمد عليه الصلاة والسلام؛ ولذلك جاء في القرآن ذكر كثير من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وقد جاءت السنة بكرامات كثيرة من كرامات أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. فمن معجزاته ﷺ: إتيانه بالكتاب العزيز، وانشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه ﷺ، وإتيان الشجر إليه لما دعاه، وحنين الجذع إليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وإخباره بما كان وما يكون إلى قيام الساعة، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة بين يديه ﷺ، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص كما في حديث أم سلمة المشهور، وأروى العسكر في

غزوة خيبر من مزادة ماء لم تنقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل لم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفاً، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه في غزوة الحديبية، كانوا نحو (١٤٠٠) أو (١٥٠٠)، ورد النبي ﷺ عين أبي قتادة حين سالت على وجنته، فقال: يا رسول الله! ادع الله لي، فأخذها النبي من على وجنته، ووضعها في عينه ومسح عليها، فكانت أحسن عينيه حتى مات، ولما أرسل النبي محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله، فمسحها النبي وبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً، كل واحد منهم حز له قطعة أشبعته وفضلت منها فضلة، ولما مات عبد الله والد جابر وترك ديناً، فقال النبي عليه الصلاة والسلام لجابر : (خذ هذا التمر فاقض منه دين غرمائك، فقال: يا رسول الله! وكم يغنيني هذا؟ فوقف النبي ﷺ على التمر فقسمه أقساماً ووزعه أوزاعاً ودعا في هذه الأقسام، فكان قدر كل قسم يكفي لسداد دين غريم من الغرماء) والأصل فيه أنه بضع تمرات. معجزات نبينا فاقت ذلك بكثير، ولكن المقام مقام سرد كرامات الأولياء، لا معجزات النبي ﷺ.

أمثلة من كرامات الأولياء الصالحين

ومن كرامات الأولياء ما كان من أسيد بن حضير ﷺ لما قرأ سورة الكهف، حيث نزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج على الخيل، وكانت هذه السرج هي الملائكة تنزلت لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبح ما فيها من طعام. و عباد بن بشر و أسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السيف، فلما افترقا افترق معهما النور. وقصة الصديق في الصحيحين: أنه لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربا مكانها لقمتان، وما كان عنده من طعام إلا بعض كسر. هذا على يد أبي بكر الصديق ﷺ. وخبيب بن عدي كان أسيراً عند المشركين، فنظرت امرأة الآسر له إليه وهو في أسره يأكل عنباً، وما بمكة عنبة واحدة. وعامر بن فهيرة قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، فنظروا إلى السماء، فوجدوا أنه محمول مرفوع قد رفعته الملائكة.

وأنتم تعلمون قصة حنظله غسيل الملائكة الذي نودي للجهاد في ليلة زفافه، فخرج ولم يدرك غسل الجنابة، فلما مات قال النبي ﷺ: (إنما غسلته الملائكة) أي: من الجنابة. وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت من العطش، فلما كان وقت الفطر وهي صائمة سمعت حساً من فوق رأسها، فرفعته فإذا بدلو معلق، فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها. وسفينة مولى رسول الله ﷺ وخادمه، خرج عليه أسد في طريق، فقال سفينة للأسد: يا كلب الله! كيف تؤذيني وأنا رسول رسول الله ومولاه، فصحبه الأسد حتى أبلغه مأمنه.

أسد يرعى إنساناً! وذئب يرعى غنماً! أمور عجيبة وخوارق للعادة، ليست في أعراف الناس، ولا في أخلاق الناس، جرت على يد أولياء الله عز وجل؛ إثباتاً لكرامتهم. البراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبره، وكانت الحرب إذا اشتدت قال المسلمون للبراء : يا براء ! أقسم على ربك، فيقول: يا رب! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم، وأن تجعلني أول الشهداء في هذه المعركة، فمكنهم الله تعالى من أكتاف أعدائهم، وكان البراء أول شهيد في المعركة. رجل مستجاب الدعوة.

وخالد بن الوليد لما حاصر حصناً منيعاً فأمرهم أن يسلموا أنفسهم، فقالوا: يا خالد! لا نسلم لك إلا بشرط. قال: هاتوا ما عندكم، قالوا: أن تشرب هذا السم، فشربه خالد ، فلم يضر، فلما رأوا ذلك سلموا وهم يظنون أن السم سيعمل فيه عمله وأنه يموت ويتخلصون من سيف الله المسلول. وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة، وما دعا قط دعوة إلا استجاب الله عز وجل له، وكان عمر يبجله، وكان عبد الله بن مسعود يبجله، وهما أعظم منه إيماناً وعلماً وعملاً وفضلاً، ومع هذا كان عمر بن الخطاب يهابه إذا رفع يديه إلى السماء، وكان له دين عند عبد الله بن مسعود ، فلما ذهب ليتقاضاه قال: أمهلنا. قال: إما أن تدفع وإما دعوت عليك، ورفع يديه إلى السماء، فتعلق بهما عبد الله بن مسعود ؛ لعلمه أن النبي ﷺ دعا لسعد أن يكون مستجاب الدعوة، وهو يقول: يا سعد ! إذا دعوت علينا فلا تلعن، وهذا إثبات لخصيصة سعد بن أبي وقاص أنه كان مستجاب الدعوة، فكان

إذا دعا في جيش نصره الله، وإذا دعا على جيش هزمه الله كرامة من الله عز وجل.

عمر بن الخطاب لما أرسل جيشاً أمر عليهم رجلاً اسمه سارية ، فلما حاصرهم العدو وكادوا ينهزمون وهم بأرض العراق، وعمر بالمدينة رضي الله عنه يخطب للجمعة - ألهم الله عمر إلهاماً وحدث حديثاً من الله عز وجل، أن سارية هناك بالعراق يكاد يهزم، وكأن الله تعالى أطلع عمر على وضع سارية وجيشه، فصاح عمر من على المنبر: يا سارية ! الجبل الجبل، أي: ألزم الجبل، يا سارية ! واجعل الجبل قبل ظهرك، والعدو من أمامك، فلما سمع سارية -وهو بالعراق- صوت عمر رضي الله عنه -وهو بالمدينة- فعل ما سمع فنصره الله عز وجل. وجاء رسول عمر إلى سارية ، فقال سارية : لقد سمعنا كذا وكذا، فامتثلنا ذلك وفعلناه، فنصرنا الله عز وجل، قال: أشهد أني كنت مع عمر في المسجد وهو يفعل ذلك، وهو يصيح بأعلى صوته ويقول: يا سارية ! الجبل الجبل، كرامة من الله عز وجل.

ولما أصيبت الزنيرة في بصرها، فقال المشركون: سخطت عليها اللات والعزى، قالت: كلا والله! إن الله تعالى هو النافع الضار، فرد الله تعالى إليها بصرها، كرامة لتوحيدها ونفيها ما عليه المشركون من إثبات النفع والضر بيد آلهتهم وأصنامهم كاللات والعزى.

****

رحلة رأس الحسين رضي الله عنه

تزينت مصر وتجملت وتجمع أهلها واصطف القاصي والداني والصغير قبل الكبير ورفرفت الأعلام وأضيئت المصابيح انتظارا وشوقا لحضور رأس سيدنا الحسين إليها وكان ذلك مع منتصف العام الثامن والأربعين بعد المائة الخامسة من الهجرة وبينما كانت مداهمات الحملات الصليبية تشتد علي الأراضي الشامية وسقوط الكثير منها تحت وطأة الخيانات الخسيسة لبعض حكام الولايات الإسلامية..وترامت إلي الأسماع أن الصليبيين لا يحملون في صدورهم أي تقدير للمقدسات الإسلامية بل إنها أصبحت محل انتهاك وتخريب علي يد جنود جاءوا إلي الشرق طمعا في كنوزه ولياليه الزاخرة بالنساء "البيض الحسان" مما أوجس القلق والخوف داخل نفس الوزير الفاطمي ابن طلائع الذي لقب بالصالح طلائع متحكما في أمر الحكم المصري بعدما استطاع الحفاظ علي جدران الدولة الفاطمية بعد مقتل الخليفة الظافر حيث كثرت الفتن وتهدد القصر الفاطمي فبعث له نسوة القصر يستنقذن به في الأخذ بثأر الظافر فسار طلائع يريد القاهرة لمحاربة الوزير نصر بن عباس قاتل الظافر والذي فر من أمامه ليدخل طلائع القاهرة ويتسلم الوزارة ونعت منذ ذلك الحين بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين .

واستبد بالأمر لصغر سن الخليفة الفائز ومنذ ذلك الأمر أصبح الوزير ابن طلائع ذا كلمة نافذة في حكم الشئون الفاطمية ولأنه كان عالما ومؤلفا وشاعرا وقارئاً للتاريخ وقبل كل ذلك شيعيا من أخمص الرأس حتى القدمين فقد أرقه انتهاك حرمة قبر رأس حفيد رسول الله الحسين بن علي بن أبي طالب بعسقلان والذي كانت استقرت به بعد قرابة نصف القرن من موقعة كربلاء الحزينة عام ٦١ هجريا عن عمر يناهز السابعة والخمسين حيث طاف قتلة الحسين برأسه الشريف علي أسنة الرماح بعدما اجتزها شمر بن ذي الجوشن وذهب بها إلي يزيد بن معاوية في الشام لينال مكافأته بولاية احدي المدن الإسلامية فأمعن يزيد في فعلته الشنعاء وعلق الرأس علي أبواب منازل المشتركين في المعركة بدمشق ليزيد الناس إرهابا .. وقد وجد الرأس بخزائن السلام بدمشق بعد وفاته



وذلك بعد الطوفان بها المدن الإسلامية لتستقر كما ذكر المؤرخون بعسقلان حيث دفن هناك في تلك المدينة الساحلية بفلسطين وحتي يكون بعيداً كل البعد عن نصرة الحسين وأتباعه فاستقرت هناك قرابة الخمسة قرون حتي اشتد وطيس الحملات الصليبية علي فلسطين فخاف الصالح طلائع وكان شيعيا شديد التشيع مثلما كان مشهورا عن بيت الخلافة الفاطمية بمصر فأوعز النصح للخليفة الفائز وأجزل في نصحه له بالتفاوض مع بلدوين الثالث قائد الحملة الصليبية علي عسقلان بدفع مبلغ مالي كبير مقابل الحصول علي الرأس الشريف وإعادة دفنه بمصر خاصة وأن ابن طلائع كان علي علم بالأوضاع المالية السيئة للحملة وشدة احتياجها للمال لتدبير المؤن لهم.

أهل مصر يحتفلون بمولده يوم دفنه بمصر وليس لتاريخ ميلاده

انفراد: بنشر صورة تابوت رأس الحسين في العهد الفاطمي

المصريون يخلعون أحذيتهم لاستقبال الرأس بالصالحية

جامع الحسين كان قصر الحكم الفاطمي ولم يكن مسجداً

وبعد عدة جولات مكوكية من المفاوضات استخدم فيها ابن طلائع كل حيل الترغيب والحجج والأسانيد اتفق ابن طلائع علي أن يدفع الفاطميون ثلاثين ألف قطعة ذهب (دينار) مقابل الرأس الشريف وبالفعل تمت الصفقة بين الطرفين وذهب الأمير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الدين الجمالي فوقف علي القبر حتى استقر عند الرأس الشريف فحمله علي صدره من عسقلان في يوم الأحد الثامن من جمادي الآخرة لتصل يوم الثلاثاء العاشر من نفس الشهر الموافق العام ٥٤٨ الموافق يوم ٣١ أغسطس عام١١٥٣ ميلاديا وقد سار بها في موكب مهيب تقشعر له الأبدان وتخلج له جنبات الصدور وتنتشي بعزته كل فخور فرحا بنقل الرأس الشريف إلي مصر المحروسة التي كانت وستظل إلي أبد الآبدين كنانة آل بيت رسول الله في الأرض.

وقيل أيضا إن الذي وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم واليها..

وفي اليوم المشهود خرج السلطان الفائز بصحبة الصالح طلائع لاستقبال الرأس الشريف عند مدخل مدينة الصالحية وقد اتخذت مصر زينتها وتهيأت وتعطرت وارتدت ثوب الفرحة واكتست بوشاح السرور وعلي كل باب أضيئت المصابيح استقبالا لشرف الرأس الحسيني وابتهاجا بتشريفه الديار المصرية .. وإجلالا لشرف الاستقبال قام المصريون بخلع نعالهم حتي لم يكن بينهم من هو مرتديا نعله وذلك زيادة في إجلال وتقديس الرأس الشريف وهو ما عرف عن الشيعة في معاملاتهم مع أهل البيت وعند الصالحية استقبلها القوم بكل ما تعرفه البشرية من مباهج الفرحة والمحبة السمو الروحاني الذي كان مسيطرا علي أهل مصر في ذلك الوقت انتظارا لوصول الرأس إليها .. وعلي الفور جرت مراسم التسليم الشريفة عند حدود الصالحية ليحملها الموكب السلطاني وتوضع في كيس من الحرير الأخضر وتحمل علي كرسي من الأبانوس وتسير ويسير خلفها كل من فيه الروح بأرض مصر فرحين مهللين مكبرين من الصالحية وحتى بوابة مسجد طلائع الذي كان تحت الإنشاء حيث تم بناؤه خصيصا ليدفن به رأس الحسين ..

ولم يكن الرأس يمر بقرية أو مدينة حتي يلقي لها الأهالي والأحباب بالورود والعطور والرياحين فكان الرأس يرد عليهم نفحات الطيب والعطر الذي انتشر بأرجاء المحروسة من روائح آل بيت النبوة أوكأن كل مراقد آل البيت في كل قري ونجوع مصر قد هبوا من مراقدهم ليكونوا في شرف استقبال سيد شهداء أهل الجنة الحسين بن علي الحاصل علي جراءة جده نبي الله عليه وعلي آل بيته أجمل تحية وأشرف تسليم وأتم صلاة الي يوم الدين وأقرب آل بيت النبي شبها لجده المصطفي

المراسم الجنائزية للدفن بمصر

وسادت احتفالات المصريين بقدوم الرأس أياما وليالي حتى استقرت بمسجد طلائع في كيسه الحريري الأخضر الذي بناه لينال شرف افتخار دفن الرأس الشريف به وهو أحد ثلاثة مساجد معلقة بمصر ولعل الناظر إلي المسجد يشعر وكأنه قد بني علي

استعجال حتى يحوي ثراه الرأس مما يؤكد أن المصريين لم يكن لهم تخطيط مسبق في الحصول علي رأس الحسين ولكن الحملات الصليبية هي التي جعلت من الحصول علي الرأس حتمية لابد منها فأمر ابن طلائع ببناء المسجد خارج القاهرة وفي الجهة الشرقية المقابلة لباب زويلة وكأن المسجد قد بني ليرقد به الرأس ناظر علي بوابة القاهرة القديمة .. وأخيرا تدخل من بوابة المسجد إلي ساحته فتوضع علي لوح من خشب معطرة بالمسك وأطيب العطور الزكي ومازالت تلك الخشبة موجودة أعلي واجهة المسجد من الداخل وكأن ابن طلائع وضعها كدرة تاج للمسجد ويعرفها جيدا أهالي الدرب الأحمر بالقاهرة الفاطمية وهم يعرفونها بمغسلة سيدنا الحسين وموجودة بهذا المسجد ويؤيد هذه الرواية ما كشفت عنه الحفائر التي أجريت عام ١٩٤٥ من وجود مبان بجوار الجهة الشرقية للواجهة البحرية لجامع الصالح طلائع عليها كتابات أثرية منها (ادخلوها بسلام آمنين) ومثل هذه العبارة تكتب عادة علي مداخل المدافن ولذلك فإنه من المرجح أن تكون هذه الآية من بقايا المشهد الذي بناه الصالح طلائع مجاوراً لمسجده لكي يدفن فيه رأس الأمام الحسيني كما ذكره ابن دقاق .

ولكن بيت الحكم الفاطمي بمصر لم يرض بأن يدفن الرأس الحسيني بعيدا عن مقر الحكم فدب الخلاف بين الصالح طلائع والخليفة الفائز علي شرف دفن الرأس بالقرب منه حتى استقر الأمر بينهما بأن يغسل الرأس في مسجد طلائع ويدفن في قصر الزمرد ..

وهنا نتساءل كيف يغسل رأس الحسين وهو شهيد وأيضا قد مر علي دفنه بعسقلان قرابة الخمسمائة سنة ؟ فكانت الإجابة لدي المؤرخين أن حاكم عسقلان ورسل الخليفة الفاطمي حينما حفروا لاستخراج الرأس من مرقدها وجدوا دماءها لم تجف وكذلك قد تعفرت من التراب المهال فوقها فكان الغسل لها ليس تغسيلا بمعناه المفهوم لدي العامة ولكنه تنظيفا وتعطيرا وتضميدا لجرح مازال ينزف بقلب كل مسلم محب لآل بيت رسول الله .وبعد الاتفاق بين طرفي الحكم بمصر تم حفر نفق يقول المؤرخون إنه مازال موجودا بدايته أسفل باب زويلة ونهايته بمحل دفن رأس الحسين رضي الله عنه بقصر الزمرد أسفل

قبة الديلم أسفل دهليز باب الخدمة بقصر الزمرد عند الباب الأخضر والمعروف حاليا بالمئذنة القديمة لمسجد الحسين وذلك لإتمام إجراءات نقل الرأس بعد مكوثه بمسجد طلائع وحتى لا يعاد مشهد النقل ثانية بين العامة من الناس حيث تم وضع رأس سيدنا الحسين في الكيس الحريري ووضع علي كرسي من الأبنوس وقيل من خشب الساج صنع له خصيصا و عليه طست من الذهب وكان ذلك عام ٥٤٩ هجريا ليصبح ذلك اليوم احتفالا لدي شعب مصر معروفا عند الجميع بمولد سيدنا الحسين وهنا نكتشف أن ميعاد مولد الحسين لم يكن يوم مولده وإنما يوم دفنه تحت قبة الديلم في مصر وإنما ولد الحسين عليه السلام في الخامس من شهر شعبان في السنة الرابعة من الهجرة النبوية الشريف. وبفعل التاريخ تحول مقر الحكم الفاطمي من قصر الزمرد إلي مسجد سيدنا الحسين ليكون مقصدا للمسلمين من شتي بقاع الأرض ..

ولقد دخلنا من الباب الأخضر نسبة إلي الحرير الأخضر الذي يكسو الرأس الشريف ولاحظنا بأسفل المئذنة بشباك من الطوب المسدود وكأنه كان علي شكل طاقة رؤيا من تلك التي كانت معروفة قديما في العمارة الإسلامية. وتم سد الطاقة بعد التجديدات والتوسعات الأخيرة للمسجد عام ١٩٦٥ حيث كان الشباك يطل مباشرة علي سرداب الدفن الذي يحوي الرأس الشريف في حجرة يتوسطها الطست الذهبي. واعتلي المرقد تابوت خشبي (مقصورة خشبية) من أجود أنواع الأخشاب الهندية ومحفوظة الآن في متحف الفن الإسلامي تحت رقم(١٥٠٢٥) و الذي عثر عليه ملاصقا لجدار الغرفة التي تحت أرض القبة الحالية لهذا المشهد بالقاهرة وصاحب الفضل في العثور عليه المرحوم حسن عبدالوهاب. كما ورد في عبد العزيز مرزوق، الفن الإسلامي في العصر الأيوبي، ص ٢٥.

الأدلة التاريخية علي وجود الرأس بمصر

وبعد رحلتنا مع الرأس الشريف من عسقلان وحتى مدفنها بقصر الزمرد سوف يتساءل الكثيرون والمعرضون والمتشككون في رحلتنا مع الرأس انتهاجا لبعض الأقاويل المكذبة لحقيقة وجود رأس الحسين بمصر وإذا كان البعض يقولون بأن الشيعة قد اخذوا

الرأس ودفنوها مع الجسد في كربلاء فنحن نقول لهم إن الأولي لهم أن يأخذوه يدفن تحت ولايتهم وأمام أعينهم وفي مقر حكمهم بمصر وليس من الفطنة أن الذهاب به إلي العراق مقر الحكم العباسي ومعروف ما بين الفاطميين والعباسيين من خلافات وحروب وأيضا لدرء الشبهات فسوف نعرض في السطور القادمة خلاصة البحث الذي قام به الباحثان عادل سعد زغلول والمستشار رجب عبد السميع في كتابهما (تصحيح مفاهيم خاطئة في طريق النصرة الواجبة ..تحقيق وإثبات مراقد مشاهير آل البيت في مصر) الذي اشرف علي إعداده دكتور السعيد محمد إمام مسجد سيدنا الحسين ..

وللحقيقة فإن بحثهما الذي جمعا ودققا فيه كل ما ورد عن إنكار أو إثبات وجود الرأس بمصر وكذلك ردهم علي الإنكار بمباحث دقيقة تنفي المزاعم الكاذبة لنكران دفن الرأس بمصر المحروسة .. قد استطاعا فيه رفع اللثام عن الكثير من التساؤلات التي كانت تدور برءوس الكثير من المصريين وفي البداية يسأل الباحثان سؤالا هاما..

لماذا دفن الرأس في عسقلان؟

وما السبب في اختيار مدينة عسقلان بالذات لكي تكون مقراً للرأس؟ ونجد الشيخ محمد زكي إبراهيم يذكر ثلاثة احتمالات هي:

(١) البحث عن مدينة تكون بعيدة كل البعد عن الشيعة وليست مركزاً لهم.

(٢) اختيار مدينة قريبة من بيت المقدس.

(٣) اختيار مدينة قريبة من الساحل حيث يمكن نقلها في يسر إلي شمال إفريقيا وبلاد المغرب حيث اتجه عدد عظيم من الشيعة. وأيدت الرأي الأخير د. سعاد ماهر ونري أن الصحيح هو الرأي الأول حيث إن مدينة عسقلان مدينة بعيدة عن ساحل البحر تبعد عن مركز الشيعة والعلويين وهم المقصودون من إخفاء الرأس عنهم لما سبق بيانه.

كما أن الدولة العباسية ابتعدت عن البحر واتجهت نحو المشرق الذي هو سر نجاحها واتخذت بغداد عاصمة بدلاً من دمشق وعليه تم إخفاء الرأس في مكان بعيد

(عسقلان) عن مقر الخلافة ببغداد حتى إذا ما ظفر العلويون أو الشيعة بالرأس وقاموا بثورات مضادة للعباسيين استطاع الخليفة العباسي القضاء عليها بسهولة وكان ذلك بعيداً جداً عن مقر الخلافة.

أما ما ذكره ابن تيمية من أن الغرض هو تعفية القبر فهو صحيح ولكنه لم يصب الحقيقة إذ قال إن المرابطين يظهرونه وعليه يعرف القبر.

فذلك مردود عليه بأنه لم يعلم أن يذكر بوجود مرابطين في هذا الثغر في هذا الوقت وذلك نظراً لما رأوه من قيام الجيش العباسي بالتنكيل لبني أمية المرابطين في مدينة الرملة كما سبق بيانه وعليه فقد فروا من ثغر عسقلان خشية ذلك وترك الثغر خاوياً مما يستبعد معه قول ابن تيمية بأنه كان فيه مرابطون لو أخفي الرأس لأظهروه كما أنه غاب عن ابن تيمية أن الإخفاء والتعمية للرأس تم في بداية العصر العباسي الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م ونهاية وانهيار الدولة الأموية وليس في عهد يزيد بن معاوية كما زعم ٦٠هـ/ ٦٨٠م.

وقد غاب عنه أيضا أن الفترة الزمنية بين مقتله عام ٦١ هـ وقيام سليمان بن عبد الملك بدفن الرأس قرب باب الفراديس عام ٩٦هـ حوالي خمسة وثلاثين عاماً ومن ٩٦هـ حتى ١٣٢هـ نجد أن هناك ستة وثلاثين عاماً وبالتالي يكون هناك فترة زمنية قدرها ٧١ عاماً سقطت من حسابات ابن تيمية ونسيها تماماً.

كما أنه أهمل جانب خشية العباسيين من العلويين وشيعتهم ومحاولة طمس أسباب قوتهم وتوحدهم حول ثأر الحسين. أما ما ذكره من أنه لو فرض جدلاً أن الهدف التبرك فقد كفانا هم الرد في ذلك لأنه أقر بأن ذلك لا يجوز بل يستحيل أن يحدث من قاتلي الحسين. و مما يثبت وجود الرأس الشريف، أن الأيوبيين الذين انهوا الحكم الفاطمي الشيعي بمصر، حيث قام صلاح الدين بإجراءات مكثفة لمحو أثر كل ما هو فاطمي بمصر مثل:

محو آثار الدولة الفاطمية بإنشاء المدارس السنية في مصر.

عين القضاة علي المذهب الشافعي بعد أن عزل القضاة علي المذهب الشيعي.

دعا للخليفة العباسي علي المنابر سنة ٥٦٧ ه وأرسل رسله لمكة لتأييد الدعاء للعباسيين.

حرق الأوراق الخاصة والوثائق الهامة والسرية للدولة الفاطمية فيما عدا الوثائق التي خبأها الفاطميون في المسجد الذي أنشأوه في دير سانت كاترين وهي التي وصلت إلينا وذلك لمحو التاريخ الفاطمي.

سيطر علي الحجاز بما فيها الحرمين واهتم بهما لما لهم من أهمية روحية ودينية في العالم الإسلامي وأعلن ولاءهم للدولة العباسية.

١٢٤٨م حصل حريق بالمشهدأفلم يلبث أن أصلح. ولذلك لما زاره الرحالة ابن بطوطة، الذي زار مصر حوالي سنة ٧٢٧هـ - ١٣٢٧م وصفه بقوله. "ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام. وعليه رباط ضخم عجيب البناء علي خشب أبوابه حلق الفضة وصفائحها وهو موفي الحق من الإجلال والتعظيم". ويقول ابن كثير (البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٠٤) في وجود الرأس بالقاهرة: (وادعت الطائفة المسمون بالفاطميين الذين ملكوا الديار المصرية قبل سنة أربعمائة إلي ما بعد سنة ستين وستمائة، أن رأس الحسين وصل إلي الديار المصرية ودفنوه بها وبنوا عليه المشهد المشهور به بمصر، والذي يقال له تاج الحسين بعد سنة خمسمائة).

ويضيف ابن كثير فيقول: (وقد نص غير واحد من أهل العلم علي أنه لا أصل لذلك، وإنما أرادوا أن يروجوا بذلك بطلان ما أدعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كذبة خونة، وقد نص علي ذلك القاضي الباقلاني وغير واحد من أئمة العلماء في دولتهم في حدود سنة أربعمائة). وهذا النص مردود عليه بأنه من المعروف أن الدولة الفاطمية كانت من سنة ٣٥٨ حتى ٥٦٧هـ وليس ٦٦٠هـ كما ذكر ابن كثير كما أنه في حدود سنة أربعمائة لم يكن الرأس قد نقل إلي مصر: هذا وعدم الدقة في التواريخ التي وردت في هذه الرواية يقلل كثيراً من قيمتها أن الفاطميين لم يكونوا بحاجة إلي أن يروجوا صحة إثبات هذا

المشهد ليوهموا الناس بصحة نسبهم. حيث لا علاقة بإقامة المشهد بعسقلان أو نقله لمصر والنسب سالف الذكر فسواء أكان النسب صحيحاً أو مكذوباً فلم يكن هناك أية حاجة في وقت النقل إلي ذلك حيث لو كان الرأس موجوداً في مكان آخر غير عسقلان سواء في الشام أو خارجها لما عز علي خلفاء الفاطميين الوصول إليه، وهم كما نعلم من الشيعة الإسماعيلية، وقوتهم الدينية تعتمد في أكثر ما تعتمد علي نسبهم لفاطمة الزهراء، أما قوتهم السياسية فقد فاقت قوة الدولة العباسية، إذ امتدت الدولة الفاطمية من مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن شرقاً إلي شمال أفريقيا وبلاد المغرب غرباً. بل إنه حدث في عهد الخليفة المستنصر أن نادي البساسيري أحد أعوانهم من الشيعة بسقوط الدولة العباسية في بغداد والبصرة وواسط وجميع الأعمال وذكر اسم الخليفة المستنصر الفاطمي علي منابرها في خطبة الجمعة، وفي هذا أكبر شاهد علي تلك القوة .

لماذا لم يهدم الصليبيون قبر الحسين بعسقلان وقبلوا الفدية؟

حيث من المعلوم أن الصليبيين قاموا بنبش قبور الصالحين نكاية في المسلمين وأن المقريزي ذكر في اتعاظ الحنفا أنهم هدموا مشهد الخليل إبراهيم في بيت المقدس، ويروي ابن العديم في زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢٤]: (أن الصليبيين أتوا في تلك الغزوة مساوئ كثيرة فنبشوا قبور موتي المسلمين وأخذوا توابيتهم إلي الخيم وجعلوها أوعية لطعامهم، وسلبوا الأكفان، وعمدوا إلي من كان من الموتى لم تنقطع أوصاله فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين، وجعلوا يقولون: هذا نبيكم محمد وآخر يقول: هذا عليكم. وأخذوا مصحفاً من المشاهد بظاهر حلب وقالوا يا مسلم أبصر كتابكم ... وثقبه الفرنجي بيده .

وهنا بعد عرض هذا النص يثور تساؤل هام هو لماذا لم يهدم الصليبيون قبر الحسين .. حين استولوا علي عسقلان؟ وللإجابة عن ذلك لابد أن نوضح نقاطاً معينة يعرف منها سبب ذلك وهي أنه:

أن التبادل التجاري بين المسلمين والصليبيين رغم ما بينهم من حروب كان قائماً

بشكل ظاهر جلي. وفي ذلك يقول ابن جبير في (رحلته ص ٢٨٨) أن: (ومن أغرب ما يحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلي بلاد الفرنج وسبيهم يدخل إلي بلاد المسلمين).

وكذلك ابن جبير في رحلته أن الجيش الصليبي حينما استولي علي عسقلان (في عهد بلدوين الثالث) كان يعاني من نقص في الإمدادات والنفقات اللازمة واحتياج الأموال لدرجة أن بلدوين الثالث لكي ينفق علي جيشه تعرض للاستدانة علي نطاق أدي إلي الحد من حريته في المناورة السياسية، خاصة حروبه مع نور الدين محمود حول دمشق وحلب واحتياجه الشديد للأموال والموارد المالية لتجهيز الجيش. فإذا ما علمنا ذلك تبين لنا بوضوح كيف تمت المفاوضات مع سفراء طلائع بن زريك والصليبيين في ظل الرواج التجاري والقائم وكذلك لماذا قبل الفدية عندما طلب منه الفاطميون رأس الحسين .. مقابل ثلاثين ألف درهم ورشاء طلائع لهم بالمال من أجل أن يسمحوا له بنقل الرأس إلي مصر. حيث إن احتياج الصليبيين للمال هو الذي منعهم من هدم قبر الحسين.

ويضيف الباحثان أن الدكتورة سعاد ماهر في كتابها "أولياء الله الصالحون" من ص ٣٧٤ تقول في انتقال الرأس إلي عسقلان وهي مدينة لم تحدثنا كتب التاريخ بأنها كانت مركزاً من مراكز الشيعة مثلاً اللهم إذا أريد أن يكون الرأس في مكان قريب من بيت المقدس من جهة وقريب من الساحل من جهة إخراجها من الشرق حيث لاقي الشيعة الشيء الكثير من اضطهاد الأمويين أولاً ثم العباسيين ثانياً ليمكن نقلها في يسر إلي شمال أفريقيا وبلاد المغرب مثلاً حيث أتجه عدد عظيم من الشيعة (ومما يؤيد وجود الرأس بعسقلان في العصر الفاطمي) نص تاريخي منقوش علي منبر المشهد الذي أعاد بناءه بدر الجمالي وأكمله أبنه الأفضل في عصر الخليفة المستنصر ولما نُقل الرأس الشريف إلي مصر نُقل المنبر إلي المشهد الخليلي بالقدس والمنبر ما زال موجوداً حتى الآن هناك ولقد نقل الرأس بعد ذلك من عسقلان إلي مصر ومما يؤكد ذلك ما ذكرته الأستاذة عطيات الشطوي المفتشة بالآثار المصرية التي أشرفت علي تجديد القبة في القرن الماضي تقول أن وثائق هيئة

الآثار تؤكد أن رأس الإمام الحسين نقل من عسقلان إلي القاهرة وهذا ما ذكره المقريزي في خططه أن الرأس نقل في يوم الأحد الثامن من جمادي الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة الموافق ٣١ أغسطس سنه ١١٥٣م وكان الذي وصل بالرأس من عسقلان الأمير سيف المملكة تميم وليها وحضر في القصر يوم الثلاثاء العاشر من جمادي الآخرة المذكور الموافق ٢ من سبتمبر ١١٥٣م ويضيف المقريزي أن الذي قدم بالرأس مكنون في عشاري من عشاريات الخدم ونزل به إلي الكافوري (حديقة) ثم حُمل إلي السرداب إلي قصر الزمرد ثم دفن في قبة الديلم بباب دهليز الخدمة (القصر الحالي) والدليل علي وجودها بمصر الآتي:

أولاً : فقد عثر الباحثون بالمتحف البريطاني بلندن علي نسخة خطية محفوظة من (تاريخ آمد) لابن الأورق المتوفي عام (٥٧٢هـ) وهي مكتوبة عام (٥٦٠هـ) أي قبل وفاته باثنتي عشرة سنة ومسجلة بالمتحف المذكور تحت رقم (٥٨٠٣ شرقيات) قد أثبت فيها صاحب هذا التاريخ بالطريق اليقيني أن رأس الإمام الحسين قد نقل من عسقلان إلي مصر عام (٥٤٩هـ) أي في عهد المؤرخ وتحت سمعه وبصره وبوجوده ومشاركته ضمن جمهور أهل مصر الذين كانوا في استقبال الرأس الشريف.

وفي نهاية رحلتنا ما بين مؤيدي وناكري وجود الرأس في مصر فإننا نختتم رحلتنا مع الرأس الشريف داخل مصر بأنه إن لم يكن دفنت بمصر فكيف تناقل الرحالة والمؤرخون مراحل انتقاله ودفنه وتجديدات مرقده في مصر وإلا فإن كل هؤلاء سكري والمنكرون علي أدلة واهية هم فقط المتنبهون والعالمون بما لا يعلمه البشر علي مدار أكثر من ١٣٠٠ سنة هجرية .

***



آلام البيت النبوي عليه السلام

بلاد الشام

الشام اسم يشمل عامة الأقاليم الداخلة اليوم في سورية ولبنان وفلسطين، وكانت الشام من أول الأقطار التي فكّر الرسول صلى الله عليه واله في أمرها لنشر كلمة التوحيد وبثّ الدعوة إلى الإسلام، وقد جهّز الرسول العديد من السرايا والغزوات لهذا الغرض، وفي أواخر أيامه جهزّ جيشاً أمّر عليه أسامة بن زيد، وقال: "لعن الله من تخلف عن جيش أسامة".. وما كان هدف الرسول صلى الله عليه واله توسيع رقعة حكمه جغرافياً، بل كان ذلك أمراً عرضياً تابعاً لبسط كلمة التوحيد والتفاف الناس حول راية الإسلام، وهداية الناس إلى الله تبارك وتعالى، ولكن الأمور تغيرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه واله، وانقلبت الموازين، وغرّت الدنيا كثيراً من الناس، وأصبحت الغنيمة والحصول على المناصب الدنيوية وبسط السلطة والنفوذ من أهم الدواعي لفتوح البلدان.

وبعد أن فتحها المسلمون استعمل عليها عمر يزيد بن أبي سفيان، ومن بعده أخاه معاوية بن أبي سفيان، وفي سنة ٤١ بايعه أهل الشام

بالخلافة، فهو مؤسس الدولة الأموية التي جعلت من دمشق قاعدة الحواضر الإسلامية، وظلت كذلك حتى سنة ١٣٢ هجرية، وقد ورّث معاوية ابنه يزيد الخلافة سنة ٦٠ للهجرة.

الركب الحسيني إلى الشام

لما وصل كتاب ابن زياد إلى يزيد بن معاوية ووقف عليه، أعاد الجواب إليه يأمره فيه بحمل رأس الحسين ورؤوس من استشهد معه وبحمل أثقاله ونسائه وعياله.

فلمّا فرغ القوم من التطوف بالرأس الشريف في الكوفة ردوه الى القصر فدفعه ابن زياد إلى زحر بن قيس ودفع إليه رؤوس أصحابه وسرّحه إلى يزيد بن معاوية، وأنفذ معه أبا بردة بن عوف الأزدي وطارق بن أبي ظبيان مع جماعة من أهل الكوفة، حتى وردوا بها على يزيد.

وقد ساقوا الأسارى من أهل البيت عليهم السلام من النساء والأطفال راكبين أقتاباً يابسة، وحولهم الجنود بالرماح، إن دمعت عين أحدهم قُرِعَ رأسه بالرمح، وساقوا بهم من منزل الى منزل كما تساق أسارى الترك والديلم، وكان على رأسهم سيد العابدين علي بن الحسين عليهم السلام وقد جُعل الغلّ في عنقه ويده، يحمله بعير يظلع بغير وطاء.

وروي عن السيدة زينب عليها السلام أنها قالت: "قد علم الله ما صار إلينا، قتل خيرنا، وانسقنا كما تساق الأنعام، وحُملنا على الأقتاب".

وسار القوم برأس الإمام الحسين عليه السلام ولأسارى فلمّا قربوا من دمشق، دنت السيدة أم كلثوم من الشمر، فقالت: "لي إليك حاجة؟".

فقال: "وما حاجتك؟" . قالت عليها السلام: "إذا دخلت بنا البلد فاحملنا في درب قليل النظارة، وتقدم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل وينحّونا عنها، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا ونحن في هذه الحال" . فأمر لعنه الله في جواب سؤالها أن تُجعل الرؤوس على الرماح في أوساط المحامل، وسلك بهم بين النظارة على تلك الصفة، حتى أتى بهم إلى باب دمشق، فوقفوا على درج باب المسجد الجامع حيث يُقام السبي.

وكان دخول الركب الحسيني إلى دمشق نهاراً وأهلها قد علّقوا الستور والحجب والديباج، فرحين مستبشرين، ونساؤهم يلعبن بالدفوف، ويضربن على الطبول، كأنه العيد الأكبر عندهم.

وروي عن سهل بن سعد ألساعدي الصحابي أنه قال: "خرجت إلى بيت المقدس حتى توسطت الشام فإذا أنا بمدينة مطردة الأنهار كثيرة الأشجار قد علقوا الستور والحجب والديباج وهم فرحون مستبشرون وعندهم نساء يلعبن بالدفوف والطبول، فقلتُ في نفسي: لعل لأهل الشام عيداً لا نعرفه نحن. فرأيت قوماً يتحدثون، فقلت: يا هؤلاء ألكم بالشام عيد لا نعرفه نحن؟ قالوا: يا شيخ نراك غريباً! فقلتُ: أنا سهل بن سعد قد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه واله وحملتُ حديثه، فقالوا: يا سهل ما أعجبكَ السماء لا تمطر دماً والأرض لا تخسف بأهلها. قلتُ: ولِمَ ذلك؟ فقالوا: هذا رأس الحسين

عترة رسول الله صلى الله عليه واله يهدى من أرض العراق إلى الشام وسيأتي الآن. قلت: وا عجباه! يهدى رأس الحسين والناس يفرحون؟!".

الإمام زين العابدين عليه السلام مع الشيخ الشامي:

بعد أن أقيم السبي على درج باب المسجد، إذا بشيخ قد أقبل حتّى دنا منهم، وقال: "الحمد لله الذي قتلكم وأهلككم، وأراح الرجال من سطوتكم، وأمكن أمير المؤمنين منكم!".

قال له الإمام زين العابدين عليه السلام: "يا شيخ هل قرأت القران؟".

فقال: "نعم قرأته".

قال عليه السلام: "فعرفت هذه الآية: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى:٢٣) ؟".

قال الشيخ: "قرأت ذلك..".

فقال عليه السلام: "فنحن القربى يا شيخ! فهل قرأت في "بني إسرائيل" ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ (الإسراء:٢٦) ؟".

فقال الشيخ: "قد قرأت ذلك..".

قال عليه السلام: "نحن القربى يا شيخ! ولكن هل قرأت هذه الآية: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ (الأنفال:٤١)؟ فنحن ذو القربى يا شيخ، ولكن هل قرأت هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب:٣٣) ؟".

فقال الشيخ: "قد قرأت ذلك".

فقال عليه السلام: "فنحن أهل البيت الذين خُصصنا بآية الطهارة..".

فبكى الشيخ ورمى عمامته، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: "اللهم إني أبرأ إليك من

عدو إل محمد صلى الله عليه واله، من الجن والإنس، ثم قال: هل لي من توبة؟".

فقال عليه السلام: "نعم، إن تبت تاب الله عليك وأنت معنا..".

فقال: "أنا تائب..".

فبلغ يزيد بن معاوية حديث الشيخ فأمر بقتله.

ونستنتج من هذا الخبر عدة أمور:

١- إن هذا أول موقف تكلم به الإمام زين العابدين عليه السلام بعد تحمّله شدة السفر، لأن الرواية تقول: إن الإمام عليه السلام بقي طول طريق السفر بين الكوفة والشام ساكتاً لا يكلم أحداً.

٢- يقوم الإمام بأداء الرسالة في أول فرصة وأول نقطة يجد بها الطينة الطيبة، فمع أن ذاك الشيخ الشامي لم يكن إلا رجلاً عاش في حكم الأمويين، ولم يرَ الإمام علياً عليه السلام ولا أحداً من أبنائه، ولكن فطرته سليمة، بينما الذين قاموا بقتل الإمام الحسين عليه السلام وسبي أهل بيته فقد كان كثير منهم ممن رأى علياً والحسن والحسين عليهم السلام وصلى خلفهم!

٣- سيطرة الجو الإعلامي المسموم على المجتمع، فلقد أذاعوا أن المقتول هو رجل خارجي خرج على "أمير المؤمنين"، وكان يريد بث الفتنة والفرقة في المجتمع، لذا نرى أن الرجل الشامي بادر بالتعبير عن حمده لله على قتل الخارجي وإهلاك أهله.

رأس الإمام الحسين عليه السلام وبقية الركب الحسيني بين يدي يزيد بن معاوية

لقد غمرت الأفراح والمسرات يزيد، وأمر بترتيب مجلس حاشد بالأشراف والأعيان والشخصيات من أهل الشام وممثلي بعض الدول والأديان آنذاك مثل رأس الجالوت، فكان مجلساً في غاية الأهمية سياسياً واجتماعياً، داخلياً وخارجياً، وقد أراد أن يظهر نفسه بأنه انتصر على عدوه. فلما أُدخل عليه موكب الأسارى من أهل البيت عليهم السلام، هنأه القوم بالفتح.

وعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: " قُدِم بنا على يزيد بن معاوية لعنه الله بعدما قتل الحسين ونحن اثنا عشر غلاماً ليس منا أحد إلا مجموعة يداه إلى عنقه وفينا علي بن الحسين عليه السلام..".

وأدخل رأس الإمام الحسين عليه السلام على يزيد ووضع بين يديه، فاستبشر الشقي بقتله، وجعل ينكتُ رأسه بالخيزران.

وأقبل قاتل الإمام الحسين عليه السلام على يزيد يقول:

أوقر ركابي فضة وذهبا فقد قتلت الملك المحجبا

قتلتُ خير الناس أماً وأباً وخيرهم إذ ينسبون نسبا

فقال له اللعين: "إذا علمتَ أنه خير الناس فلمَ قتلته؟".

فأجابه: "رجوت الجائزة!".

فأجابه يزيد: "اخرج من بين يديّ فلا جائزة لك".

وقد كان هذا المجلس العام الوحيد الذي جمع فيه يزيد الأشراف، ذلك أن المجالس الخاصة التي كان يحضر فيه رأس الإمام الحسين عليه السلام وأهل البيت تكرّرت، فكان يزيد يتخذ مجالس الشرب واللهو والقيان والطرب، ويحضر رأس الإمام الحسين عليه السلام بين يديه.

يزيد ينكث ثانيا الإمام الحسين عليه السلام

وضع يزيد رأس الإمام الحسين عليه السلام بين يديه وأجلس النساء خلفه لئلا ينظرن إليه، وكانت ابنتا الإمام تتطاولان لتنظرا إلى الرأس وجعل يزيد يتطاول ليستره عنهما، وهو ينكت ثناياه بقضيبٍ في بيديه متمثلاً ببيت شعر للحصين بن الحمام المري:

نفلق هاماً من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعقّ وأظلما

ثم قال: "ما رأيتُ وجهاً قط أحسن منه!".

فقيل له: "إنه كان يشبه رسول الله صلى الله عليه وآله".

فسكت، ولم يبقَ أحد في مجلسه إلا عابه وتركه، وكان عنده أبو برزة الأسلمي، وهو صحابي من سكان المدينة ثم البصرة، فقال له: "ويحك يا يزيد، أتنكت بقضيبك ثغر الحسين عليه السلام ابن فاطمة عليها السلام؟! اشهد، لقد رأيت النبي صلى الله عليه واله يرشف ثناياه وثنايا أخيه الحسن عليه السلام ويقول: أنتما سيدا شباب أهل الجنة، قتل الله قاتلكما ولعنه، وأعدّ له جهنّم وساءت مصيراً".

فغضب يزيد وأمر بإخراجه من المجلس فأُخرج سحباً.

وكان موقف هذا الصحابي في أهم زمان وأخطر مكان، ولأجل ذلك لم يتحمل يزيد هذا الموقف.

ثم إن عبد الرحمن بن الحكم أخا مروان بن الحكم، كان ممن حضر المجلس العام، فلمّا رأى ما فعل يزيد برأس الإمام الحسين عليه السلام وتمثله بالأبيات قال:

سمية [1] أمسى نسلها عدد الحصى   وبنت رسول الله ليس لها نسل

فعندئذٍ، وخشية انقلاب الأمور ضده، بادر يزيد إلى القول: " نعم، فلعن الله ابن مرجانة، إذ أقدم على قتل الحسين بن فاطمة، لو كنت صاحبه لما سألني خصلة إلا أعطيته إياها ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن قضى الله أمراً فلم يكن له مرد".

ثم إنه قال لعبد الرحمن: "سبحان الله! أما يسعك السكوت يا ابن الحمقاء! ما لك ولهذا؟!".

وقد أظهر يزيد في بعض كلماته ندمه كذباً ونفاقاً، ملقياً بمسؤولية قتل الإمام الحسين عليه السلام على عاتق ابن زياد، وكان ذلك الندم يرجع إلى كذبه وخوفه على زوال

---

(١) أو أمية.

ملكه وتمشياً مع الوضع العام واستنكار الناس لذلك، والدليل على كذب يزيد أنه لم يعاقب عبيد الله بن زياد، ولم يعزله عن الإمارة، بل شكره واستدعاه وشرب معه الخمر وأعطاه جائزة كبيرة.

يزيد والتضليل المكشوف

تبدلت لهجة يزيد أثناء وجود الموكب النبوي في الشام، فبعد أن كان يظهر الفرح بقتل الإمام الحسين عليه السلام، اضطر أمام شدة النكير المكتوم والذي تم التعبير عنه غالباً بتعابير ضعيفة.

وفي سياق إظهاره الفرح قال في مجلسه: :"أتدرون من أين دهّي أبو عبد الله؟". فقالوا: "لا، فأجابهم: من الفقه والتأويل! هذا يفخر علي". ويقول: "أبي خير من أبي يزيد، وأمي خير من أمه، وجدي خير من جد يزيد، وأنا خير من يزيد"، فهذا الذي قتله! فأما قوله "إن أبي خير من أبي يزيد" فقد حاج أبي أباه فقضى الله لأبي على أبيه! وأما قوله "إن أمي خير من أم يزيد" فلعمري إنه صادق، إن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه واله خير من أمي، وأما قوله "إن جدي خير من جد يزيد" فليس أحد يؤمن بالله واليوم الأخر يقول إنه خير من محمد صلى الله عليه واله، وأما قوله "أنا" خير مني فلعمري لم يقرأ هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ (آل عمران:٢٦) .

لقد التجأ يزيد إلى هذا الموقف ليوهم الأمة بأنه وإن قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه واله إلا أنه لم يخرج من الإسلام، خاتماً كلامه بذكر مشيئة الله وقضائه وقدره ليعطي لجريمته النكراء بعداً دينياً! من خلال تثبيت مسلك الجبر الذي تشبث به الطواغيت ليُسكتوا به أصوات مخالفيهم والسذج من الناس.

تمثل يزيد بأبيات ابن الزبعرى

تؤكد مجمل الروايات على تمثل يزيد بن معاوية بأبيات ابن الزبعرى في مجلسه العام. والزبعرى شاعر قريش في الجاهلية، كان شديداً على المسلمين:

ليت أشياخي ببدر شهدوا	جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلوا فرحاً	ثم قالوا يا يزيد لا تُشل
لستُ من خندف إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل
لعبت هاشم بالملك فلا	خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

وقد زاد يزيد على هذه الأبيات ما يدل على كفره وخبث باطنه، ويكشف عما في قلبه من الإلحاد والحقد على رسول الله صلى الله عليه واله وأهل بيته عليه السلام:

لستُ من عتبة إن لم أنتقم	من بني أحمد ما كان فعل

وقد استندت السيدة زينب عليها السلام إلى إنشاد يزيد لهذه الأبيات في المجلس بقولها: "فلا يستبطأ في بغضنا أهل البيت... وهو يقول فرحاً بقتل ولده وسبي ذريته غير متهوب ولا مستعظم: ليت أشياخي...".

ثم إن أحد الصحابة قال ليزيد بعد تمثله بهذه الأبيات: "ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين!".

قال يزيد: "بلى.. نستغفر الله..".

فأجابه الصحابي: "والله لا ساكنتك أرضاً أبدا". وخرج عنه.

وهذا اعتراف من يزيد على نفسه بأن قوله يوجب الكفر والارتداد عن الدين، غير أنه بعد أن نكث يزيد ثنايا الإمام الحسين عليه السلام بقضيبه، أمر بصلبه، فصُلب ثلاثة أيام بدمشق على باب المسجد.

محاورات الإمام زين العابدين عليه السلام مع يزيد

لقد بلغت الحرب النفسية الذروة بعد واقعة ألطف الأليمة، ولم تكن بأقل من الحرب في ظل السيوف، وأراد يزيد أن يظهر بمظهر الغالب الظافر في جميع المجالات، وأن يرى انتهاء الأمر بتمامه، لكي يتم بذلك كل شيء له! وهو يعلم أنه لا يصل إليه إلا بظفره في هذه الحرب.

في المقابل نرى جبهة الحق تسير في خطى قائدها، وتتحرك نحو تحقق أهدافها، فنرى السيدة زينب عليها السلام تقف خلف الإمام زين العابدين عليه السلام في جميع المواقف، وكيف لا وهو الحجة على الأرض بعد أبيه عليه السلام.

روي أن يزيد قال للسيدة زينب عليها السلام: "تكلمي؟!" فأجابت عليها السلام: "هو المتكلم". أي الإمام زين العابدين عليه السلام وقد أرادت بذلك أن تعرّف قائد المسيرة المظفرة.

كان الإمام زين العابدين عليه السلام يواجه مشاكل عديدة ينبغي له أن يتغلب عليها:

١- طاغوتاً متغطرساً يعيش نشوة النصر المزعوم، لابد أن يواجه بكلمة الحق على رؤوس الأشهاد، ليكشف الغطاء عن واقعه الملحد، ويظهر على حقيقته خصوصاً أمام أتباعه ومواليه.

٢- نظاماً قمعياً أقامه معاوية على الترغيب والترهيب والجماجم والأشلاء، وأراد له الشيطان أن يكون التأسيس للإمبراطورية الأموية التي تتخذها "الشجرة الملعونة في القران" وسيلة لطمس معالم الدين وتحريف شريعة سيد المرسلين".

وكان لابد من هز أركان هذه الإمبراطورية التي تتخذ مال الله دولاً وعباد الله خولاً باسم الإسلام وخلافة رسول الله صلى الله عليه واله.

٣- إعلاماً مضللاً وبيئة مسمومة، عرفت الإسلام من خلال يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية، وها هم يسمعون أن هؤلاء السبايا جيء بهم من معركة مع خارجي خرج على "أمير المؤمنين"!

كان على الإمام زين العابدين عليه السلام أن يواجه ذلك ليمزق غيوم الجهل التي تلبدت منذ حوالي أربعة عقود.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "لما أدخل رأس الحسين بن علي عليه السلام على يزيد لعنه الله وأدخل عليه علي بن الحسين وبنات أمير المؤمنين عليه السلام، وكان علي بن الحسين عليه السلام مقيداً مغلولاً".

قال يزيد: "يا علي بن الحسين، الحمد الله الذي قتل أباك!".

فقال علي بن الحسين عليه السلام: "لعن الله من قتل أبي".

فغضب يزيد وأمر بضرب عنقه.

فقال علي بن الحسين: "فإذا قتلتني فبنات رسول الله صلى الله عليه واله من يردهم إلى منازلهم وليس لهم محرم غيري؟".

فقال يزيد: "أنتَ تردهم إلى منازلهم!".

ثم دعا بمبرد فأقبل يبرد الجامعة من عنقه بيده، ثم قال له: "يا علي بن الحسين، أتدري ما الذي أريد بذلك ؟".

قال عليه السلام: "بلى، تريد أن لا تكون لأحد عليّ منّة غيرك".

فقال يزيد: "هذا والله ما أردت فعله... يا علي بن الحسين "﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ (الشورى:٣٠).

فقال علي بن الحسين عليه السلام: "كلا، ما هذه فينا نزلت،إنما نزلت فينا: "﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد:٢٢-٢٣) فنحن الذين لا نأسى على ما فاتنا، ولا نفرح بما أتانا منها".

وبهذا هدم الإمام زين العابدين عليه السلام أصل استناد يزيد من الأساس، وبيّن

عدم فقهه بمعنى الآية الشريفة، فوثب رجل من أهل الشام وقال دعني أقتله، فألقت السيدة زينب عليه السلام بنفسها عليه.

وجعل الإمام زين العابدين عليه السلام يقول:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم — وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

فالله يعلم أنّا لا نحبكم — ولا نلومكم إن لم تحبونا

فقال يزيد: "صدقت، ولكن أراد أبوك وجدك أن يكونا أميرين، فالحمد لله الذي أذلهما وسفك دماءهما!".

فوقف الإمام عليه السلام ليُذكر يزيد بن معاوية بآبائه وأجداده، ويُعرفه بأبيه وجده: "يا ابن معاوية وهند وصخر، لم يزل أبائي وأجدادي فيهم الإمرة من قبل أن تولد، ولقد كان جدّي علي بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر وأحد والأحزاب في يده راية رسول الله صلى الله عليه واله، وأبوك وجدك في أيديهما رايات الكفر".

ثم قال عليه السلام: "ويلك يا يزيد، إنك لو تدري ما صنعتَ وما الذي ارتكبت من أبي وأهل بيتي وأخي وعمومتي إذاً لهربت في الجبال وافترشت الرمال ودعوت بالويل والثبور، أن يكون رأس الحسين بن فاطمة وعلي عليهما السلام منصوباً على باب المدينة وهو وديعة رسول الله صلى الله عليه واله فيكم، فأبشر بالخزي والندامة غداً، إذا جمع الناس ليومٍ لا ريب فيه".

ثم دعا يزيد بالنساء والصبيان، فأُجسلوا بين يديه، فرآهم بهيئة مؤلمة فقال: "قبّح الله ابن مرجانة، لو كانت بينكم وبينه قرابة ورحم ما فعل هذا بكم ولا بعث بكم هكذا".

وكانت هذه الكلمات وأمثالها من يزيد في المرحلة الثانية التي تلت تعبيره عن غاية البهجة والسرور، إلا أنه فوجيء ببردة فعل من الناس لم يكن يحسب لها أدنى حساب، مما اضطره إلى أن يتخلى عن المسؤولية ويرميها على عاتق ابن زياد.

وتبرز من مواقف الإمام علي بن الحسين عليه السلام عدة نقاط للبحث والتأمل:

١- صلابة موقف الإمام عليه السلام وصموده في المقام.

٢- جعل الإمام عليه السلام مسؤولية قتل الإمام الحسين عليه السلام وما جرى في وقعة الطف وبعده على عاتق يزيد وتنبيهه لعمق الفاجعة الكبرى ووعيده بنار جهنم.

٣- تبيين حقيقة يزيد بأنه وأباه وجده كانوا في خط الباطل، معلنين الحرب على رسول الله صلى الله عليه واله، وأهل البيت عليهم السلام، وأن النهضة الحسينية هي استمرار لتلك المواجهة والمقابلة.

يزيد يهمّ بقتل الإمام زين العابدين عليه السلام

وكما تقلب موقف يزيد في الحديث عما جرى في كربلاء، بين الفرح بما حصل، والتبرؤ منه، كذلم تقلبت مواقفه من الإمام السجاد عليه السلام، بين السماتة، ومحاولة القتل، ثم الإيحاء بأنه يكرمه.

حاول يزيد لعنه الله أثناء محاوراته للإمام زين العابدين عليه السلام أن يستنطقه بكلمة يوجب فيها قتله، والإمام عليه السلام يجيبه حسب ما يكلمه وفي يده سبحة صغيرة يديرها بأصابعه، وهو يتكلم، فقال له يزيد: "أنا أكلمكَ وأنت تجيبني وتدير أصابعك بسبحة في يدك، كيف يجوز ذلك؟".

فقال عليه السلام حدثني أبي عن جدي صلى الله عليه واله: "إنه كان إذا صلّى الغداة وانفتل لا يتكلم حتى يأخذ سبحة بين يديه، فيقول: اللهم إني أصبحت أسبّحك وأحمدك وأهلك وأُكبرك وأُمجدك بعدد ما أدير به سبحتي، ويأخذ السبحة في يده ويديرها وهو يتكلم بما يريد من غير أن يتكلّم بالتسبيح، وذكر أن ذلك محتسب له وهو حرز إلى أن يأوي إلى فراشه، فإذا أوى إلى فراشه قال مثل ذلك القول ووضع سبحته تحت رأسه فهي محسوبة له من الوقت إلى الوقت، ففعلتُ ذلك اقتداءً بجدي صلى الله عليه واله".

فقال له يزيد لعنه الله: "لستُ أكلم أحداً منكم إلا ويجيبني بما يفوز به".

وشاور يزيد جلساءه في أمر الأسارى في مجلسٍ كان في أخر أيام مقام أهل البيت عليه السلام في الشام، فأشاروا بقتله وقالوا له: "لا تتخذ من كلب سوء جرواً".

فابتدر الإمام عليه السلام بالكلام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال ليزيد: "لقد أشار عليك هؤلاء بخلاف ما أشار جلساء فرعون إليه، حيث شاورهم في موسى وهارون، فإنهم قالوا: أرجه وأخاه، وقد أشار هؤلاء عليك بقتلنا". فسكت يزيد.

رأس اليهود في مجلس يزيد العام

بعد المحاورة التي جرت بين الإمام زين العابدين عليه السلام ويزيد، التفت إليه حبرٌ من أحبار اليهود وكان حاضراً، فقال: "من هذا الغلام يا أمير المؤمنين؟".

فقال يزيد: "صاحب الرأس هو أبوه".

قال الحبر: "ومن هو صاحب الرأس يا أمير المؤمنين؟".

قال: "الحسين بن علي بن أبي طالب".

قال: "فمن أمه؟".

قال يزيد: "فاطمة بنت محمد صلى الله عليه واله".

فقال الحبر: "يا سبحان الله! هذا ابن بنت نبيكم قتلتموه في هذه السرعة! بئس ما خلفتموه في ذريته، والله لو خلف فينا موسى بن عمران سبطاً من صلبه، لظننا أنا كنا نعبده من دون الله، وأنتم إنما فارقكم نبيكم بالأمس، فوثبتم على ابن نبيكم قتلتموه، سوأة لكم من أمة..".

السيدة زينب بنت علي عليه السلام في مجلس يزيد

إنها بطلة المعركة في مجلس يزيد، تقف أمام طغيانه بكل صلابة، وتكلمه بمنتهى الشجاعة، لأنها ترى الواقع الثابت عند الله، ولأجل ذلك نرى أنها تفرغ عن منطق أبيها الذي هو نفس المصطفى الحبيب، فتجعل الشام وقصرها الأموي امتداداً ساحة كربلاء

وثورة سيد الشهداء، وتجسيداً نموذجياً لقيمها الكريمة وأهدافها السامية،فها هي تقول له: "يا يزيد أما تخاف الله ورسوله من قتل الحسين عليه السلام؟ وماكفاك ذلك حتى تستجلب بنات رسول الله صلى الله عليه واله من العراق إلى الشام! وما كفاك حتى تسوقنا إليك كما تُساق الإماء على المطايا بغير وطاء! وما قتل أخي الحسين عليه السلام أحد غيرك يا يزيد، ولولا أمرك ما يقدر ابن مرجانة أن يقتله،لأنه كان أقلّ عدداً وأذل نفساً، أما خشيت من الله بقتله وقد قال رسول الله صلى الله عليه واله فيه وفي أخيه: "الحسن والحسين سيدا أهل الجنة من الخلق أجمعين"؟ فإن قلتَ لا فقد كذبتَ، وإن قلتَ نعم فقد خصمت نفسك واعترفت بسوء فعلك..".

فقال يزيد: "ذرية يتبع بعضها بعضاً..".

وقد ركزت السيدة زينب عليها السلام في هذا الخطاب على ثلاثة أمور:

١ - الانتساب إلى رسول الله صلى الله عليه واله.

٢ - تحميل مسؤولية قتل الإمام الحسين عليه السلام ليزيد لتبطل كل محاولة للتبرؤ من ذلك.

٣- إثبات أن يزيد لا علاقة له بالإسلام من قريب ولا من بعيد.

السيدة زينب عليها السلام مع الرأس الشريف

اتخذ موقف السيدة زينب عليها السلام عند رؤية الرأس الشريف منحىً عاطفياً، فهي لما رأته نادت بصوت حزين يقرح القلوب: "وا حسيناه، يا حبيب رسول الله، يا ابن مكة ومنى، يا ابن فاطمة الزهراء سيدة النساء، يا ابن بنت المصطفى..".

فأبكت كل من كان حاضراً في المجلس.

خطبة السيدة زينب عليها السلام(١) :

وهي الوثيقة المحمدية العلوية الفاطمية والحسنية الحسينية التي اتخذت موقعها في سياق خطبة المصطفى الحبيب يوم الغدير، وخطبة أمها الصديقة الكبرى الشهيدة في المسجد النبوي، وخطبة أبيها أمير المؤمنين المعروفة ب"الشقشقية"، لتشكل هذه الخطب جميعاً الوثائق الأبرز لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وقد ألقت عليه السلام هذه الخطبة بعد تمثّل يزيد بأبيات الزبعرى:

"صدق الله ورسوله يا يزيد "﴿ثُمّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾ (الروم:١٠)، أظننت يا يزيد حين أُخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى أن بنا هواناً على الله، وبك عليه كرامة!! وأن هذا لعظيم خطرك فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك، جذلان فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك، والأمور متسقة عليك، وقد أملهت ونفّست وهو قول الله تبارك وتعالى: "﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران:١٧٨)، أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك وسوقك بنات رسول اللهم صلى الله عليه واله قد هتكت ستورهن وأصحلت أصواتهن مكتئبات تحدي بهنّ الأباعر ويحدو بهن الأعادي من بلدٍ إلى بلدٍ، لا يراقبن ولا يؤوين، يتشوفهنّ القريب والبعيد، ليس معهن وليّ من رجالهن، وكيف يستطبأ في بغضنا من نظر إلينا بالشنف والشنان والإحن والأضغان، أتقول: "ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا" غير متأثم ولا مستعظم وأنت تنكت ثنايا أبي عبد الله بمخصرتك؟ ولمَ لا تكون كذلك وقد نكأت القرحة واستأصلت الشافة بإهراقك دماء ذرية رسول الله صلى الله عليه واله ونجوم الأرض من آل عبد المطلب، ولتردن على الله وشيكاً موردهم ولتودن أنك عميت وبكمت، وأنك لم تقل: "لأهلوا وأستهلوا فرحاً".

---

(١) كما نقلها ابن طيفور ت: ٢٨٠.

اللهم خذ بحقنا وانتقم لنا ممن ظلمنا، والله ما فريت إلا في جلدك، ولا حزرت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله صلى الله عليه واله برغمك وعترته ولحمته في حظيرة القدس، يوم يجمع الله شملهم ملمومين من الشعث، وهو قول الله تبارك وتعالى: "﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِّ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾" (آل عمران:١٦٩)، وسيعلم من بوّأك ومكّنك من رقاب المؤمنين إذا كان الحكم الله والخصم محمد صلى الله عليه واله وجوارحك شاهدة عليك، فبئس للظالمين بدلاً، أيّكم شرّ مكاناً وأضعف جنداً، مع أني والله يا عدوّ الله وابن عدوه أستصغر قدرك وأستعظم تقريعك، غير أن العيون عبرى والصدور حرّى وما يجري ذلك أو يغني عنّا، وقد قُتل الحسين عليه السلام، وحزب الشيطان يقربنا إلى حزب السفهاء ليعطوهم أموال الله على انتهاك محارم الله، فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، وهذا الأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الزواكي يعتامها عسلان الفلوات، فلئن اتخذتنا مغنماً لتتخذن مغرماً حين لا تجد إلا ما قدمت يداك، تستصرخ ابن مرجانة ويستصرخ بك، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان، وقد وجدت أفضل زاد زوّدك معاوية قتلك ذرية محمد صلى الله عليه واله، فوالله ما اتقيتُ غير الله ولا شكواي إلا إلى الله، فكِدْ كيدك واسْعَ سعيك، وناصِبْ جهدك، فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبداً، والحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبّان الجنان، فأوجب لهم الجنة،أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات وأن يوجب لهم المزيد من فضله، فإنه ولي قدير".

فكان هذا الخطاب كالصاعقة على رأس يزيد، فقال:

يا صيحة تحمد من صوائح ... ما أهون النوح على النوائح

واستبدت بيزيد الحيرة، فلم يدر ما يقول فما كان منه إلا أن تمثّل بقول شاعرٍ. ولا توجد لأدنى مناسبة بين ما سمعه الطاغية، من الصواعق التي انقضت عليه وعلى بني أمية مذكرة بكل كلمة منها بضربة من ضربات ذي الفقار بين يدي رسول الله صلى الله عليه واله وبين ما تمثل به من الشعر الذي أعلن فيه أن الصيحة تحمد من الصوائح! وأن النوح يهون على النائحات! إنها محاولة الأبكم الفاشلة للتستر بالتشفي.

نظرة سريعة في مضامين الخطبة العظيمة

١- الانطلاق من محور مركزي في المعارف الإسلامية حول إمهال الله تعالى الطغاة الظلمة والكفرة الفجرة، وأنه ليس ذلك إلا لإتمام الحجة عليهم وليزدادوا إثماً.

٢- بيان جور يزيد في الحكم، مع أنه يدّعي تمثيله للخلافة.

٣- التركيز على مسألة حفظ مكانة المرأة ولزوم الغيرة.

٤- التركيز على أن ما فعله يزيد هو نتيجة الكفر، وأن ما ارتكبه هو انتقام لّما فعله الرسول صلى الله عليه واله من قتل أقرباء يزيد الكفرة في يوم بدر، وهو هز السيوف في وجه رسول الله بعد مُضي خمسين سنة من وفاة الرسول صلى الله عليه واله.

٥- التأكيد أن الحكم والولاية لآل محمد لا لغيرهم، وذلك في قولها: "... وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا".

٦- الإشارة إلى مسؤولية من مكّن الطاغية من رقاب المسلمين، وبذلك ترد على من يريد أن يحيل ذلك إلى قضاء الله وقدره.

٧- التصريح بعدم تمكن يزيد ولا أذنابه من محو ذكر أهل البيت عليهم السلام، فذلك أمر لا يتمكن منه أحد.

٨- بيان عظمة مقام الشهيد وسمو قيمة الشهادة في الفكر الإسلامي.

٩- جعل المسؤولية الكبرى في قتل الإمام الحسين عليه السلام على عاتق يزيد مباشرة.

موقف السيدة زينب عليها السلام من خلب الرجل الشامي

روي عن فاطمة بنت الحسين عليه السلام أنها قالت: فلما جلسنا بين يدي يزيد، قام إليه رجل من أهل الشام، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي هذه الجارية يعنيني فأرعدتُ وظننت أن ذلك جائز لهم، فأخذت بثياب عمتي زينب، وكانت تعلم أن ذلك لا يكون.

فقالت عمتي عليها السلام للشامي: "كذبتَ ولؤمتَ، والله ما ذلك لك ولا له!".

فغضب يزيد وقال: "كذبتِ! إن ذلك لي ولو شئت أن أفعل لفعلت!".

قالت: "والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغيرها".

فاستطار يزيد غضباً وقال: "إياي تستقبلين بهذا؟ إنما خرج من الدين أبوك وأخوك!".

قالت زينب عليها السلام: "بدين الله ودين أبي ودين أخي اهتديت أنت وجدك وأبوك إن كنتَ مسلماً!".

قال : "كذبت يا عدوة الله!".

قالت عليها السلام له: "أنتَ أمير تشتم ظالماً وتقهر بسلطانك.. فكأنه استحيا وسكت..".

فعاد الشامي فقال: "هب لي هذه الجارية".

فقال له يزيد: "أعزب، وهب الله لك حتفاً قاضياً".

لقد حققت السيدة زينب عليها السلام نصراً حاسماً على الطاغي وهو في ذروة السلطة والقدرة الظاهرية، فقد أفحمته المرة بعد المرة،

وقد تمكنت أن تظهر جهل مدّعي الخلافة للناس،كما كشفت عن عدم فقهه في شؤون الدين، فإن نساء المسلمين لا يصح اعتبارهن سبايا في الحروب، ولا يعاملن معاملة السبي، فكيف إن كن بنات رسول الله صلى الله عليه واله؟

دور عقيلات بيت النبوة عليهم السلام في مجلس يزيد

سارت النساءُ في بقية الركب الحُسيني على خطى الإمام زين العابدين عليه السلام والسيدة زينب عليها السلام بتحقيق نفس الأهداف، وعمدن إلى فضح السلطة الظالمة، وتعريف أنفسهن بأنهن سبايا آل بيت النبوة عليهم السلام في كل موقفٍ، ما يجعل الأمور تنقلبُ على رأس يزيد بن معاوية، وهذا ما فعلته السيدة سُكينة بنت الإمام الحسين عليه

السلام. في تعريف الأسارى بأنهم من آل محمد صلى الله عليه واله لكي تسيطر على الجو المسموم إعلامياً.

فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عليه السلام: لما قدم يزيد بذراري الحسين أدخل بهن نهاراً مكشوفات وجوههن، فقال أهل الشام الجفاة: ما رأينا أحسن من هؤلاء، فمن أنتم؟ فقالت سكينة بنت الحسين عليه السلام: "نحن سبايا ال محمد!".

ولما وضع رأس الإمام الحسين عليه السلام بين يدي يزيد، قالت له السيدة سكينة عليه السلام: "والله ما رأيتُ أقسى قلباً من يزيد، ولا كافراً ولا مشركاً شرّاً منه ولا أجفى منه".

وكذا قامت فاطمة بنت الإمام الحسين عليه السلام وكانت أكبر من سُكينة حينما أدخلت نساء الإمام الحسين عليه السلام على يزيد، فصاحت نساء ال يزيد وبنات معاوية وأهله وولولن، فقالت فاطمة بنت الحسين عليه السلام: "أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟". فبكى الناس وبكى أهل داره حتى علت الأصوات.

خطبة الإمام زين العابدين عليه السلام

أمر يزيد بمنبرٍ وخطيب ليَذكُرَ للناس مساوئ الإمام الحسين عليه السلام وأبيه الإمام علي عليه السلام، فصعد الخطيب المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأكثر الوقيعة في علي والحسين عليه السلام، وأطنب في مدح معاوية ويزيد، فصاح به الإمام زين العابدين عليه السلام: "ويلك أيها الخاطب! اشتريت رضا المخلوق بسخط الخالق، فتبوّأ مقعدك من النار". ثم قال عليه السلام: "يا يزيد! ائذن لي حتى أصعد هذه الأعواد، فأتكلم بكلمات، فيهن لله رضا ولهؤلاء الجالسين أجر وثواب..".

فأبى يزيد، فقال الناس: "يا أمير المؤمنين، ائذن له ليصعد، فلعلنا نسمع منه شيئاً". فقال لهم: "إن صعد المنبر هذا لم ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة ال أبي سفيان..".

فقالوا: "ما قدر ما يُحسن هذا؟".



فقال: "إنه من أهل بيت قد زقّوا العلم زقّا.."

ولم يزالوا به، حتى أذِن له بالصعود، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم خطب خطبة أبكى منها العيون، وأوجل منها القلوب، فقال فيها:

"أيها الناس،أُعطينا ستاً وفُضلنا بسبع، أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضلنا بأن منا النبي المختار محمداً صلى الله عليه واله وسلم، ومنا الصديق، ومنا الطيار عليه السلام، ومنا أسد الله و أسد الرسول صلى الله عليه واله، ومنا سيدة نساء العالمين فاطمة البتول عليها السلام، ومنا سبطا هذه الأمة وسيدا شباب أهل الجنة.

فمن عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، أنبأته بحسبي ونسبي..

أيها الناس: أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الزكاة في أطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حج ولبى، أنا ابن من حُمل على البراق في الهواء، أنا ابن من أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فسبحان من أسرى، أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لا إله إلا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله بسيفين، وطعن برمحين، وهاجر الهجرتين، وبايع البيعتين، وصلّى القبلتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووراث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين، ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من ال ياسين ورسول رب العالمين، أنا ابن المؤيد بجبرائيل، والمنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين، وقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، والمجاهد أعداءه الناصبين، وأفخر من مشى من قريش أجمعين، وأول من أجاب واستجاب لله من المؤمنين، وأقدم السابقين، وقاصم المعتدين، ومبير

المشركين، وسهم من مرامي الله على المنافقين، ولسان حكمة العابدين، ناصر دين الله، وولي أمر الله، وبستان حكمة الله، وعيبة علم الله، سمح سخي، بهلول زكي أبطحي، رضي مرضي، مقدام همام، صابر صوام، مهذب قوام، شجاع قمقام، قاطع الأصلاب، ومفرق الأحزاب، أربطهم جناناً، وأطبقهم عناناً، وأرجأهم لساناً، وأمضاهم عزيمة، وأشدهم شكيمة، أسد باسل، وغيث هاطل، يطحنهم في الحروب إذا ازدلفت الأسنة وقربت الأعنة، طحن الرحى، ويذروهم ذرو الريح الهشيم، ليث الحجاز، وصاحب الإعجاز، وكبش العراق، الإمام بالنص والاستحقاق، مكيّ مدنيّ، أبطحيّ تهامي، خيفيّ عبقيّ، بدريّ أُحديّ، شجريّ مهاجري، من العرب سيّدها، ومن الوغى ليثها، وارث المشعرين، وأبو السبطين الحسن والحسين، مظهر العجائب، ومفرّق الكتائب، والشهاب الثاقب، والنور العاقب، أسد الله الغالب، مطلوب كل طالب، غالب كل غالب، ذاك جدي علي أبي طالب.

أنا ابن فاطمة الزهراء،أنا ابن سيدة النساء، أنا ابن الطهر البتول، أنا ابن بضعة الرسول، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن فاطمة الزهراء، أنا ابن خديجة الكبرى، أنا ابن المقتول ظلماً، أنا ابن المحزوز من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن طريح كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء، أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء، أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء، أنا ابن من رأسه على السنان يُهدى، أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تسبى. أيها الناس: إن الله تعالى وله الحمد ابتلانا أهل البيت ببلاءٍ حسن حيث جعل راية الهدى والعدل والتقى فينا، وجعل راية الضلالة والردى في غيرنا..".

فضج الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذن أن يؤذن فقطع عليه الكلام وسكت.

فلما قال المؤذن "الله أكبر"، قال علي بن الحسين عليه السلام: "كبّرت كبيراً لا يقاس ولا يدرك بالحواس، ولا شيء أكبر من الله".

فلما قال "أشهد أن لا إله إلا الله"، قال الإمام عليه السلام:" شهد بها شعري وبشري ولحمي ودمي ومخي وعظمي".

فلما قال "أشهد أن محمداً رسول الله" التفت الإمام عليه السلام من أعلى المنبر إلى يزيد وقال: "يا يزيد، محمد هذا جدي أم جدك؟ فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت، وإن قلتَ إنه جدي فلم قتلتَ عترته؟". ففرغ المؤذن وقام يزيد وصلّى صلاة الظهر.

نظرة خاطفة في خطبة الإمام السجاد عليه السلام وصداها

لقد اقتصر الإمام عليه السلام في هذه الخطبة على التعريف بأسرته ونفسه ولم يتعرّض لشيء أخر، ولعل السر في ذلك أنه لما كان يعلم أن المجتمع الشامي لا يعرف عن أهل البيت عليه السلام ومنزلتهم الرفيعة شيئاً لكونه تربى في أحضان سلطة الطغاة من بني أمية التي أخفت عنهم الحقائق وغذتهم بالولاء لأبناء الشجرة الملعونة والحقد على ال بيت رسول الله صلى الله عليه واله اكتفى بذلك، ومن هذا المنطق نرى أنه عليه السلام يعالج المسألة عاطفياً، لأن تأثيره في هذه المرحلة أكثر من أي أداة، ومضمون الخطبة يرشدنا إلى أن المخاطبين كانوا من جمهور الناس، لا الأشراف والأعيان منهم فحسب، فجو المجلس يختلف عن جو مجلس يزيد العام، الذي كان مزدحماً بالأعيان والأشراف وكبار رجال أهل الكتاب وبعض ممثلي الدول الكبار انذاك. فلذلك نرى أن الإمام عليه السلام يعدد مزايا ال البيت عليهم السلام ويخص بالذكر رجالاً منهم ليس لهم بديل ولا نظير، فيقول إنّ منا النبي المختار، ومنا الصديق يعني علي بن أبي طالب عليه السلام ويعدد الكثير من الصفات دون أن يصرح في البداية بالمقصود ممن يذكرهم بهذه الأوصاف مثل الصدق، وسيدي شباب أهل الجنة و...، حتى يذكر أوصافاً متعددة لهم تكشف عن بعض زوايا حياتهم وفضائلهم، ليكون أوقع بالنفوس، كما كان ذلك بالفعل.

وبعد ذلك يذكر الإمام عليه السلام أصله وجذره نسباً وموطناً، حتى يعلم الجميع أنه فرع الشجرة النبوية والثمرة العلوية والجوهرة الفاطمية واللؤلؤة الحسينية، ومن قلب مكة والمدينة، فكيف شوّهت السلطة الباغية والحكومة الطاغية الواقع على الناس وأذاعت الكذب وعرفتهم للأمة بأنهم الخوارج على أمير الفاسقين يزيد!

إن الإمام عليه السلام بعد تبيينه مختصات جده رسول الله صلى الله عليه واله من



الوحي والمعراج، يبيّن خصائص جده أمير المؤمنين علي عليه السلام، والمجتمع الشامي يسمع أوصافاً له يسمعها أول مرة، فهو الذي ضرب بين يدي رسول الله بسيفين وطعن برمحين...

ثم يذكر بعض خصائص جدته الصديقة الكبرى الإنسية الحوراء فاطمة الزهراء عليها السلام حتى يصل إلى قمة كلامه "أنا ابن المقتول ظلماً.." يقول ذلك، والظالم يزيد جالس بين يديه في المجلس، ويشير إلى بعض مأساة كربلاء فيقول: "أنا ابن المجزوز الرأس من القفا، أنا ابن العطشان حتى قضى، أنا ابن طريح كربلاء، أنا ابن مسلوب العمامة والرداء..".

هذا ما جرى في كربلاء، وهذا واقع مقتل الإمام الحسين عليه السلام،وأما الشيء الموجود حالياً في الشام الذي لا بدّ أن يلتفت إليه هذا الجمهور الغافل الضائع فهو أن جسم الإمام الحسين عليه السلام الطاهر وإن كان في كربلاء ولكن رأسه الشريف وحرمه في الشام.

ثم إن يزيد لم يجد مفراً إلا أن يلتجئ إلى المؤذن بذريعة الأذان،وقد كان يعلم في البداية أن الإمام عليه السلام لو صعد المنبر يقلب الوضع عليه، ولكنه ما كان يعلم انه يصل إلى هذه الدرجة، وإلا لما رضي بذلك أصلاً.

لقد أثر خطاب الإمام تأثيراً بالغاً في أوساط المجتمع الشامي، فقد جعل بعضهم ينظر إلى بعض، ويسر بعضهم إلى بعض بما آلوا إليه من الخيبة والخسران، حتى تغيرت أحوالهم مع يزيد وأخذوا ينظرون إليه نظرة احتقار وازدراء.

أهم لقاءات الإمام زين العابدين عليه السلام في الشام

اللقاء الأول كان عندما نزل الإمام زين العابدين عليه السلام عن المنبر، أخذ ناحية باب المسجد، فلقيه مكحول الشامي وهو إمام الشام، وصاحب رسول الله صلى الله عليه واله ومبغض لأمير المؤمنين علي عليه السلام، فقال له: "كيف أمسيتَ يا ابن رسول الله؟".

قال عليه السلام: "أمسينا بينكم مثل بني إسرائيل في ال فرعون، يذبّحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم".

أما اللقاء الثاني للإمام زين العابدين عليه السلام مع منهال بن عمر الأسدي في سوقٍ من أسواق دمشق، فقال له : "كيف أمسيتَ يا ابن رسول الله؟". قال عليه السلام: "ويحك أما آن لك أن تعلم كيف أصبحت؟ أصبحنا في قومنا مثل بني إسرائيل في ال فرعون، يذّبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، وأصبح خير البرية بعد محمد يُلعن على المنابر، وأصبح عدوّنا يُعطى المال والشرف، وأصبح من يحبنا محقوراً منقوصاً حقه، وكذلك لم يزل المؤمنون، وأصبحت العجم تعرف للعرب حقها أن محمداً كان منها، وأصبحت قريش تفتخر على العرب بأن محمداً كان منها، وأصبحت العرب تعرف لقريش حقها بأن محمداً كان منها، وأصبحت العرب تفتخر على العجم بأن محمداً كان منها، وأصبحنا أهل البيت لا يُعرف لنا حق، فكهذا أصبحنا يا منهال".

ونشير إلى تكرار الحادثة والمحادثة مع مكحول ومنهال لا وحدتها، خاصة أن المروي كون محادثة مكحول عند ناحية المسجد، ومكالمة منهال في سوق دمشق، وليس بغريب أن يتكرر ويتقارب جواب في سؤال واحد.

الإمام زين العابدين عليه السلام يحاور الرأي العام المُضَلّل

اهتم الإمام زين العابدين عليه السلام بمسألة تنوير الأفكار وكشف الحقائق أكثر من أي شيء، ولقد ذكرنا شيئاً من كلامه ومحادثاته وخطبه التي تعالج هذا الجانب، فقد أتى إليه رجل من أهل الشام، فقال له: "أنت علي بن الحسين؟".

قال عليه السلام: "نعم".

قال: "أبوك قتل المؤمنين!".

فبكى الإمام عليه السلام ثم مسح وجهه وقال: "ويلك! وبما قطعت على أبي أنه قتل المؤمنين؟".

قال: "بقوله إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم".

قال عليه السلام: "أما تقرأ القران ؟".

قال: "إني أقرأ".

قال عليه السلام: "أما سمعتَ قوله ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾. ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾. ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ (هود: ٥٠، ٦١، ٨٤) ".

قال: "بلى".

قال عليه السلام: "كان أخاهم في عشيرتهم أم في دينهم؟".

قال: "في عشيرتهم".

قال عليه السلام: "فرّجت عني فرج الله عنك".

حبس بقية الركب الحسيني في الشام

فقد روي عن فاطمة بنت علي عليه السلام، قالت: "ثم إن يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين عليه السلام فحبسن مع علي بن الحسين عليه السلام في محبس لا يكنّهم من حر ولا قرّ، حتى تقشرت وجوههم".

وكان البيت خراباً بحيث كان يُخشى وقوعه عليهم، فعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: "أُتي بعلي بن الحسين عليه السلام إلى يزيد بن معاوية ومن معه من النساء أسرى فجعلوهم في بيت، ووكلوا بهم قوماً من العجم لا يفهمون العربية، قال بعض لبعض: إنما جعلنا في هذا البيت ليهدم علينا فيقتلنا فيه، فقال علي بن الحسين عليه السلام للحرس بالرطانة: تدرون ما يقول هؤلاء النساء؟ يقلن كيت وكيت، فقال الحرس: قد قالوا إنكم تخرجون غداً وتُقتلون، فقال علي بن الحسين عليه السلام: كلا، يأبى الله ذلك، ثم أقبل عليهم يعلّمهم بلسانهم".

***

السيدة نفيسة بنت الحسن الانور - رضي الله عنها

السيدة نفيسة الصغرى:

السيدة نفيسة الصغرى بنت سيدي حسن الأنور (ويشتهر بالأكبر كذلك)، وهو ابن زيد الأبلج بن مولانا الإمام الحسن السبط بن مولانا الإمام علي من مولاتنا فاطمة الزهراء البتول، بضعة سيدنا ومولانا الرسول ﷺ.

ومشهدها الآن بالقاهرة الباهرة في جنوبها الشرقي بسفح المقطم على يمين كوبري السيدة عائشة الحديدي في جنوب غربي القلعة، بمنطقة تعرف تاريخيًّا بدرب السباع (بين منطقة القطائع والعسكر) التي كانت تعرف بكوم الجارح، وقد أزالت البلدية ما حول المشهد من مبانٍ ومقابر وغيرها، وجعلت له ميدانًا فسيحًا رائعًا، وجدَّدَتْ بعض المباني من حوله، وزيَّنَت الميدان بالنافورات والزروع.

ولم يجمع المؤرخون على شيء إجماعهم على أن السيدة نفيسة بنت الحسن مدفونة بمشهدها بمصر، والدولة الآن بصدد توسيع مسجدها الشريف.

وقد أخذ اسم نفيسة من النفاسة ورفعة الشأن والشرف، وكان النبي ﷺ يحب الأسماء الجميلة، ويغير بعض أسماء الصحابة بما هو أجمل وأكمل.

ولادتها وزواجها وأولادها:

وقد ولدت رضي الله عنها بمكة في النصف الأول من ربيع الأول سنة مائة وخمس وأربعين من الهجرة، وقضت صباها بـ (المدينة)، ملازمة القبر النبوي في أغلب الأوقات؛ إذ كان والدها أميرًا على المدينة للخليفة المنصور، وقد أدركت طائفة من نساء الصحابة والتابعين وتلقَّت عنهن، وحجت ثلاثين حَجَّة أكثرها وهي تمشي على أقدامها، وكانت تحفظ القرآن الكريم وتفسره وتفقه به الرجال والنساء، صوَّامة قوَّامة، سخية غاية السخاء، ولها كرامات لا تحصى كعمتها (زينب بنت علي) رضي الله عنها.

وتزوجت في العشر الأولى من رجب سنة ١٦١هـ من أحد بني عمومتها، السيد إسحاق المؤتمن (شقيق السيدة عائشة دفينة مصر)، وهو ابن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد علي زين العابدين بن مولانا الإمام الحسين رضي الله عنهم جميعًا، ورزقت منه بـ (القاسم، وأم كلثوم).

ولَمَّا ترك الإمام الحسن الأنور والد السيدة نفيسة ولاية المدينة، خلفه عليها زوجها إسحاق المؤتمن بن جعفر الصادق واليًا للعباسيين؛ فهي بنت أمير وزوجة أمير من أهل البيت.

نزولها إلى مصر ومنازلها فيها:

وفي العشر الأواخر من رمضان سنة (١٩٣ هجرية) نزلت مصر مع زوجها وأبيها وابنها وبنتها لزيارة من كان بمصر من آل البيت، بعد أن زارت بيت المقدس وقبر الخليل، واستقبلها أهل مصر عند العريش أعظم الاستقبال، حتى إذا دخلت مصر أنزلها السيد (جمال الدين عبد الله الجصاص) كبير تجار مصر في داره الفاخرة، ثم انتقلت إلى دار (أم هانئ) بجهة المراغة المشهورة الآن بالقرافة، وهناك كان إكرام الله لها بأن شفى من ماء وضوئها الفتاة المُقعَدة بنت أبي السرايا أيوب بن صابر اليهودي؛ فأسلم أهلوها ومن كان معهم.

وحاول أبو السرايا نقل السيدة نفيسة إلى داره في درب الكروبيين، وكان لهذه القصة دوي هائل في أهل مصر، فلازموا دارها ليل نهار بالمئات يلتمسون البركات، وينتظرون الدعوات.

وهنا أزمع زوجها العودة بها إلى الحجاز، فاستمسك أهل مصر بوجودها بينهم، ورأت في المنام جدها المصطفى ﷺ يأمرها بالإقامة في مصر، فوهبها (عبد الله بن السري بن الحكم) والي مصر دارَه الكبرى بدرب السباع، وهي الدار التي كانت لأبي جعفر خالد بن هارون السلمي من قبل، وحدد لزيارتها يومي السبت والأربعاء من كل أسبوع؛ مراعاة لصحتها، وتمكينًا لها من عبادتها، وكانت تخدمها (زينب بنت أخيها يحيى المتوج)، حتى انتقلت إلى الرفيق الأعلى.

بعض مآثرها:

وكان أهل مصر ربما شَكَوْا إليها انحراف الوالي، فوعظته وحذرته، وذكرته بعذاب الله وحقوق الناس، فما تزال به حتى يفيء إلى أمر الله.

وكانت مستجابة الدعاء، فما دعت لأحد إلا استجاب الله له.

وكانت على شيء من طب العيون، تجمع فيه بين الطب المعتاد والطب الروحي، فيشفي الله قاصدها؛ ولهذا كان يُهْرَعُ مرضى العيون إلى مشهدها بعد وفاتها؛ التماسًا للشفاء، وكان من كراماتها أن أقامت الحكومة إلى جوار مشهدها مستشفى لأمراض العيون عُرِفَ باسمها، ولكن الحكومة عادت فنقلته إلى مكان آخر، ثم غيَّرت اسمه مع الأسف الشديد.

نفيسة والشافعي:

وكان لها دخل كبير في حضور الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه إلى مصر؛ ولهذا كان رضي الله عنه يكثر زيارتها والتلقِّي عنها، وفي صحبته عبد الله بن الحكم رضي الله عنه،وكان يصلي بها في مسجد بيتِهَا، وخصوصًا تراويح رمضان، وكانت تقدره رضي الله عنه وتمدُّه بما يكفيه ويعينه على أداء رسالته العلمية الكبرى.

ولَمَّا مات الشافعي رضي الله عنه في رجب سنة ٢٠٤هـ حملوه إلى دارها فصَلَّت عليه مأمومة بالإمام أبي يعقوب البويطي، ودعت له، وشهدت فيه خير شهادة(١)، وقد حزنت على وفاته حزنًا كبيرًا.

وفاتها ودفنها:

وبعد وفاة الشافعي بدأت السيدة نفيسة تعد نفسها للقاء مولاها؛ فحفرت قبرها بيدها تباعًا في حجرتها بمنزلها الذي أهداه إليها والي مصر (عبد الله بن السري بن الحكم) بدرب السباع، وهو الذي أصبح فيما بعدُ مشهدها ومسجدها الحالي، وكانت تصلي في قبرها الذي حفرته بيدها في حجرتها، وقرأت فيه عشرات الختمات من القرآن تبركًا

واستشفاعًا، بعد أن بناه خير البنائين تسابقًا لمرضاتها ليرضى عنهم الله تعالى.

وفي يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة ٢٠٨هـ اشتد مرضها، قالوا: وكانت تقرأ سورة الأنعام، حتى إذا وَصَلَتْ إلى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام:١٢٧) فاضت روحها إلى الرفيق الأعلى راضية مرضية.

بعض أحبائها:

وكان ممن يتبرك بزيارته لها: مولانا أبو الفيض ذو النون المصري، والإمام أبو الحسن الدينوري، وأبو علي الروذباري، وأبو بكر الدقاق، وأبان الواسطي، والإمام إسماعيل المُزَني الشافعي، والإمام أبو يعقوب البويطي الشافعي، والفقيه عبد الله بن وهب القرشي المالكي، والإمام أبو جعفر الطحاوي الحنفي، وأبو نصر سراج الدين المغافري، والفقيه أبو بكر الحداد، والإمام أبو الحجاج الإشبيلي، والإمام يوسف بن يعقوب الهروي، والمحدِّث الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي، والإمام أبوعبد الله القُضاعي، والإمام أبو زكريا السَّخَاوِي، والفقيه الإمام أحمد بن زَرُّوق المالكي الصوفي، وشيخ قراء مصر الإمام وَرْش المقرئ، والإمام المحدِّث الحافظ الشِّيرازي، والحافظ أبو طاهر السلفي، وأبو الحسن الموصلي... إلى مئات من سادات السادات، وأئمة الأئمة في علوم الدين والدنيا، مِمَّا يدل على رفعة قدرها، وعلو مقامها.

وقد جرَّب كبارُ أصحاب القلوب التوسل إلى الله بها، ودعاءه تعالى عند قبرها؛ فاستجاب لهم ربهم، ولا يزال سبحانه يستجيب لرواد هذا المشهد الحبيب، وهم دائمًا صفوة الصفوة، وخصوصًا رجالات الشرطة والقضاء والوزراء بالإضافة إلى الجماهير الغفيرة من مصر والبلاد الإسلامية.

تاريخ مشهدها:

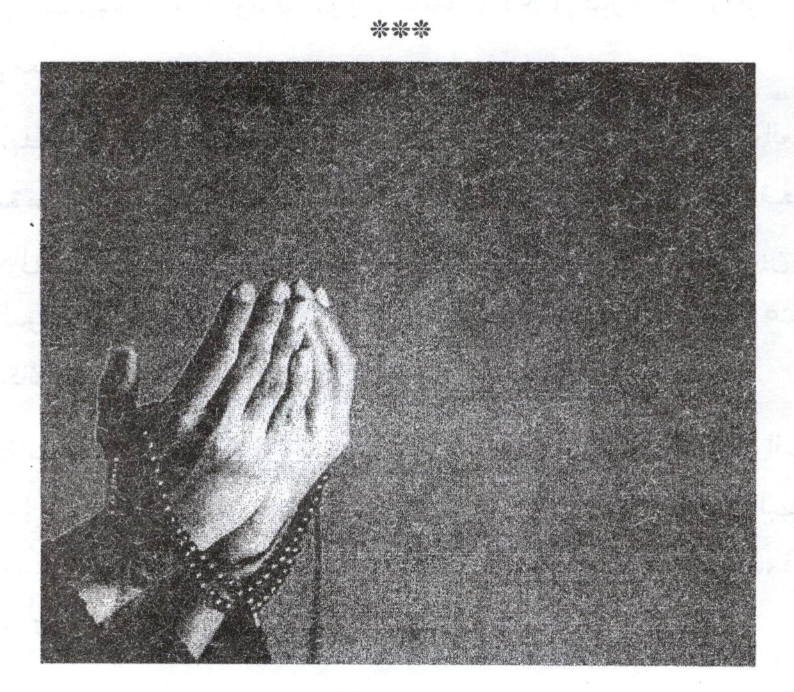
وقد أنشأ قبرها أمير مصر عبد الله بن السري بن الحكم، ثم جَدَّدَهُ الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، ثم بَنَى قبته الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي، كما بنى الحافظ لكبار الفاطميين في جوار المشهد مقبرة (دخلت في المسجد الحالي عند توسعته).

ثم جدد المشهد الملك الناصر محمد بن قلاون، وهو الذي أنشأ المسجد بجوار المشهد، وأسند نظارته إلى الخليفة المعتضد بالله بن المستكفي بالله العباسي من سلالة خلفاء بني العباس الذين هاجروا إلى مصر من العراق بعد أن دخلها المغول، وبعدها جددهما - أي المسجد والمشهد- الأمير عبد الرحمن كَتْخُدَا، ووقف عليه ٤٥٠ فدانًا، وعددًا كبيرًا من الحوانيت والعقارات المختلفة، ثم جدده على وضعه الحالي الخديوي عباس حلمي الثاني، ثم جَدَّدَتْهُ الحكومة وأعلنت أنها ستوسعه.

(١) قالت عنه عبارتها العجيبة المشهورة: «رحم الله الشافعي فقد كان يحسن الوضوء»، وهي شهادة تدل على فقه السيدة نفيسة رضي الله عنها، التي أطلقوا عليها لفقهها «نفيسة العلم والمعرفة».

(٢) فتكون السيدة نفيسة رضي الله عنها قد مكثت في مصر نحو (١٥ عامًا) رحمها الله، وكان المتقدمون يبدءون زيارات أهل البيت والصالحين بزيارتها.

***



السيدة عائشة - رضي الله عنها

السيدة عائشة بنت جعفر بالقاهرة:

لما لم يبقَ من شهيرات أهل البيت بمصر من لم نُشِر إليه -فيما نظن- إلا عائشة؛ لانفرادها في القاهرة باسمها؛ فقد تعين علينا أن نقرر أنَّها السيدة عائشة بنت جعفر الصادق أخت يحيى المؤتمن زوج السيدة نفيسة، وأمير المدينة المنورة رضي الله عنه، وأخت الإمام موسى الكاظم، متفقٌ على دخولها مصر مع إدريس بن عبد الله المحض بعد موقعة (فخ) التي استشهد بها جماعة من أهل البيت بالعراق.

وكانت عائشة رضي الله عنها زوجًا لأمير المدينة أيضًا عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وتوفيت بمصر عام ١٤٥هـ، كما جاء في «مشاهد الصفا»، و«تحفة الأحباب»، وقد أكَّد أحمد زكي باشا وجودها في مقرها هذا بمصر، ولا التفات إلى من يقول: إنَّها جاءت إلى مصر طفلة وتوفيت وهي طفلة، فهذا جهل كبير وخلط وتغرير، أو حقد سلفي مغير.

ومشهدها معروف بميدان القلعة في طريق الإمام الشافعي، وكانت كبقية العترة عابدة مجاهدة من أهل الله، يؤثَر عنها من الكرامات والمناقب شيء كبير، وقبرها مقصود يُدْعَى الله تعالى فيه، ويُتوسَّل بها إليه، جَدَّدَهُ عبد الرحمن كَتْخُدَا بعد تجديد صلاح الدين له، ثم جددته الدولة في عصرنا تجديدًا شاملًا رائعًا، ونقلت له أحجار مسجد (أولاد عنان) الذي بني مكانه الآن (مسجد الفتح) بميدان محطة مصر المشهور بـ (ميدان رمسيس).

كما نقلت الدولة إلى مسجدها الجديد المقصورة النحاسية التي كانت على قبر السيدة زينب بنت علي قبل إهداء المقصورة الفضية الموجودة الآن على قبرها من طائفة (البهرة) أحفاد الفاطميين بالهند، فأصبح المسجد والمرقد عظيمَيْنِ لائقين بمقامها الشريف، فهي ابنة أمير وأخت أمير وزوج أمير رضي الله عنها.

***

الأمام علي زين العابدين- رضي الله عنه

السيد علي زين العابدين:

رأس الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وإليه ينسب المذهب الزيدي باليمن، وجثته مُثِّل بها، ولا يعرف للجثة مدفن على التحقيق، ومشهد رأسه هو المعروف باسم أبيه (سيدي علي زين العابدين) في الحي المعروف باسمه خلف حي السيدة زينب رضي الله عنها بالقاهرة.

أمّا سيدي علي زين العابدين نفسه فالمشهور أنّه لم يدفن بمصر، بل بالمدينة المنورة، ولا شك أنّ في هذا المشهد بمصر بركة الولد والوالد بفضل الله تعالى.

***

السيدة سكينة - رضي الله عنها

السيدة سُكَيْنة بنت الإمام الحسين رضي الله عنه، واسمها الأصلي: (آمنة)، أمها: (الربابة) بنت امرئ ألقيس الكِنْدِيِّ ملك (بني كلب)، ولدت عام ٤٧هـ وهي أول من دخل مصر من أبناء الإمام علي رضي الله عنه كما نقله جماعة منهم: ابن الزيات، وابن زولاق مؤرِّخ مصر (المحقق في القرن الرابع)، وينطق اسمها المشهور -بضم السين وفتح الكاف- تصغيرًا على وزن (بُثَينَة)، وقد أخذ اسم (سُكَينة) من الهدوء والأمن والاستقرار والرضا، وقد جمعت في دمها بين آثار النبوة من أبيها الحسين، وبين جلال الملوكية العربية من أمها الرباب.

سبب دخولها مصر:

وكان سبب دخولها مصر أن خطبها الأصْبَغ بن عبد العزيز بن مروان أمير مصر كما ذكره (ابن خَلِّكَانَ)، وكانت قد عادت من الحجاز الذي ذهبت إليه بعدما أدخلت مصر مع عمتها السيدة زينب، وكان من سياسة الأمويين بعد مقتل الحسين محاولة التخفيف من وقع الحادث عند الناس بالتقرب إلى أهل البيت بالزواج منهم، وإسناد بعض الإمارات والمناصب إلى من يأمنونه من أهل البيت.

وبينما سكينة في طريقها إلى مصر، إذ بلغها شناعة بغي الأصبغ وجوره وفجوره، فأقسمت ألَّا تكون له زوجة أبدًا، واستجاب الله لها، فما إن وصلت منية الأصبغ في مصر حتى كان قد مات الأصبغ قبل أن يراها، وكانت قبل ذلك قد تزوجت بابن عمها عبد الله بن الحسن بن عليٍّ رضي الله عنه.

وهكذا انتقلت من (منية الأصبغ) إلى دارها التي بقيت بها إلى أن ماتت، ثم أصبحت هذه الدار لها مشهدًا ومسجدًا إلى اليوم، وقد جَدَّدَهُ عبد الرحمن كَتْخُدَا، ثم جددته وزارة الأوقاف، قريبًا من مشهد السيدة نفيسة، ومشهد السيدة رقية بنت علي الرضا رضي الله عنها، وهذا هو الملاحظ في كثير من أهل البيت والسادة الأولياء؛ فإنهم كثيرًا ما تكون بيوتهم في حياتهم هي مدافنهم بعد مماتهم، ولله في ذلك حكمة.

السيدة رقية - رضي الله عنها

وهو قريب جدًّا من مشهد السيدة سكينة الكبرى، إلى الشمال الغربي منه يقع قبر السيدة رقية بنت علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين رضي الله عنهم، وكثير من الناس يظنونه للسيدة رقية بنت علي أخت زينب والحسين، وهذه دفينة دمشق ومشهدها معروف هناك ويسمى مشهد السيدة رقية بنت الرضا بالقاهرة بـ (بقيع مصر)؛ لكثرة المدفونين حولها من كبار السلف الصالح.

وقد جَدَّدَتْ هذا القبر السيدة (علم الآمرية) زوجة الخليفة المستعلي بالله الفاطمي عام ٥٢٧هـ، ثمَّ جدده عبد الرحمن كَتْخُدَا، ثم عمَّره عباس الأول وزوجته، ونقل إلى الضريح المقصورة المطعَّمَة بالصدف التي كانت على قبر الحسين قبل عمل المقصورة النحاسية، التي استبدل بها الآن المقصورة الفضية المُكَفَّفَة بالذهب والأحجار الكريمة، والتي أهدتها طائفة (البهرة) إلى ضريح الحسين في خواتم القرن الرابع عشر الهجري.

وقد أُخذ اسم رُقَيَّة من الترقي والسمو والترفع والعلو، أو هو تصغير لطيف للفظ «رُقْيَة» بمعنى الدعاء والابتهال إلى الله في شأن أصحاب البلاء.

ولم يبقَ من المبنى الفاطمي على ضريح السيدة رقية بنت علي الرضا إلا الإيوان الذي به الضَّرِيحُ وما عداه فمستحدث، وليس بالقبة إلا السَّيِّدَة رقية وحدها، ولكن بعضهم يقول: إنَّ معها في القبر جثمان العالم التركي (محمد رضا) وزوجته السيدة زبيدة، وهما اللذان استضافا السيدة رقية منذ جاءت القاهرة حتى توفيت بمنزلها الذي أصبح ضريحًا للجميع، وليس هذا بمستبعد، والله أعلم.

***

السيدة أم كلثوم - رضي الله عنها

هي الصالحة الراجحةُ الشريفة أم كلثوم بنت القاسم الطيب بن محمد المأمون بن جعفر الصادق، وهي أخت السيد يحيى الشبيه بالنبي، وأخت فاطمة العيناء.

كانت أم كلثوم صَوَّامة قوَّامة مستجابة الدعوة، أقامت بمصر وماتت بها، ودفنت بين مسجِدَي الشافعي والليث قريبًا من مشهد أخيها يحيى ثم قبر أختها العيناء، رضي الله عنهم جميعًا، ومن المؤسف إهمالُ قبورِ أهل البيت في هذه المنطقة وغيرها حتى لا يكاد يعرفها الآن إلا القليلُ النادرُ، ويوشك أن تندثر كما اندثر الكثير من هذه المشاهد الكريمة، فلعل الله أن يُهَيِّئَ لها من أثرياء الأشراف، ومن كرام المسلمين من يحافظ على ما بقي منها حتى تحافظ مصر على خصيصتها بحب آل البيت، والحفاظ على آثارهم وتاريخهم.

****



السيد الإمام الحسن الأنور - رضي الله عنه

السيد حسن الأنور والد السيدة نفيسة رضي الله عنها هو ابن السيد زيد الأبلج بن السيد الحسن السبط بن الإمام علي، وابن الزهراء فاطمة النبوية بنت سيدنا رسول الله ﷺ.

وهو الذي يقول عنه المحدِّث الذهبي: «كان من أعيان العلويين وأشرافهم، وكان إمامًا عالمًا فقيهًا معدودًا من التابعين».

وقد تَوَلَّى إمارة المدينة المنورة من قبل المنصور العباسي ثم تَرَكَهَا، وقد رحل إلى القاهرة وتوفي بها، ومسجده معروف مشهور قريبًا من (سور مجرى العيون) في مشارف مصر القديمة، مهمل من وزارة الأوقاف رغم ما له من أوقاف!





السيد الإمام القاسم الطيب - رضي الله عنه

هو السيد الشريف الإمام العالم القاسم الطيب بن محمد المأمون (الملقب بالديباج) ابن الإمام جعفر الصادق، وهو والد السيد (يحيى الشبيه بالنبي ﷺ)، ووالد السيدة (أم كلثوم بنت القاسم)، ومشهده قريب من مشهدها، وقريب منهما مشهد (يحيى الشبيه).

وكان القاسم الطيب من عباد الله الصالحين الأخيار، من أحفظ الناس لحديث رسول الله ﷺ، كُتِبت عنه أربعمائة محبرة.

قال الرازي: وأولاده يعرفون بـ (الطيارة)، ويعرفون أيضًا بـ (الكُلْثُمِيِّينَ).

وقد ذكروا أنَّه كان بمكة يدعو الله تعالى وقد اقْشَعَرَّ جسده، فقالوا له: ما هذا؟ فقال: إني لأستحي أن أدعوه تعالى بلسانٍ ما أديت به حق شكره.

ومناقبُه -رحمه الله- كثيرةٌ.

ويتكون ضريحه من حجرة مربعة تعلوها قبة، تقوم على ثمانية أضلاع، وبالمكان ثلاثة محاريب، وشاهد القبر غاية في البساطة، وقد أُهْمِلَ المكان، بل وتحول إلى مقبرة عامة مفاتيحها في يد (تربي)، ولا يكاد يعرف هذا القبر أحد إلا من يقصده من الباحثين والزوار.

***

الفهـــــرس